

قصيدة الحضرة

وِلْ وَائِرِنْ دِيُورَانْت

عَصْرُ نَابُولِيونَ

تاریخ الحضارة الأوروبیة مِن ۱۷۸۹ إِلَى ۱۸۱۵

تَرْجِمَةٌ

د. عبد الرحمن عبد الله السعدي

الكتاب الخامس

خاتمة المطاف

1818-1819



دبي ق ص

نيورانت، ول، ١٨٨٥ - ١٩٨١.

قصة الحضارة: عصر نابليون: تاريخ الحضارة الأوروبية من ١٧٨٩ إلى ١٨١٥، الكتاب الخامس من المجلد الحادي عشر: خاتمة المطاف ١٨١١ - ١٨١٥ / تأليف: ول نابليون، لويل نابليون؛ ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ - المجمع الثقافي؛ أبو ظبي - دار الجيل، بيروت .٢٠٠٢

١٦٨ ص.

يشتمل على ببليوجرافيات.

١ - فرنسا - تاريخ - نابليون الأول.

٢ - نابليون الأول، أميراطور فرنسا (١٧٦٩ - ١٨٢١).

٣ - الحضارة الأوروبية.

ترجم هذا الكتاب بتكليف من المجمع الثقافي

حقوق الطبع محفوظة للمجمع الثقافي

الأكاديمية في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجمع الثقافي

دار لابعن

بيروت: البشرية - شارع الفرنسيس

ص ٢٣٢ - ٢٣٣ (١١)

هاتف: ٦٨٩٩٥٢ - ٦٨٩٩٥١ - ٦٨٩٩٥٠

فاكس: ٦٨٩٩٥٣ (٠٠٩٦١١)

Email: daraljil@inco.com.lb

القاهرة: هاتف: ٥٨٦٥٦٥٩

فاكس: ٥٨٧٠٨٥٢ (٢٠٢)

تونس: هاتف: ٧١٩٢٢٦٤٤

فاكس: ٧١٩٢٣٦٢٤ (٠٠٢١٣)

المجمع الثقافي ١٤٢٢ - ٢٠٠٢ م

أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة

ص ٢٣٦ - ٢٣٧

هاتف: ٦٢١٥٢٠٠

Email: nlibrary@nsi.cultural.org.ae

<http://www.cultural.org.ae>

عَصْرٌ نَابُولِيُونٌ

الكتاب الخامس

الفصل الخامس والثلاثون

إلى موسكو

[١٨١١ - ١٨١٢]

١- الحصار القاري

كان السبب المباشر للحرب الفرنسية الروسية سنة ١٨١٢ هو رفض روسيا الاستمرار في الحصار القاري الذي نصّ عليه مرسوم برلين الذي أصدره نابليون في ٢١ نوفمبر ١٨٠٦. وكان هذا المرسوم ينطوي على خطة نابليون بإغلاق كلّ موانئ وسواحل القارة الأوروبية في وجه البضائع البريطانية، وكانت هذه الخطة تهدف إلى إجبار بريطانيا العظمى على إنهاء حصارها - الذي كانت قد أعلنته في ١٦ مايو ١٨٠٦ - على كل الموانئ الخاضعة لفرنسا من بريست إلى إلبا the Elbe، وإنهاء التدخل البريطاني في حركة التجارة الفرنسية البحرية واستعادة المستعمرات الفرنسية التي استولت عليها بريطانيا العظمى، وإنهاء التمويل البريطاني لدول القارة الأوروبية التي تشن حرباً على فرنسا.

كيف كانت آية الحصار القاري؟ بحلول عام ١٨١٠ أدى هذا الحصار النابليوني المضاد إلى تعرّض إنجلترا لهبوط اقتصادي قاسٍ. وفي العامين الأولين (١٨٠٦ - ١٨٠٨) بعد إصدار نابليون مرسوم برلين الآنف ذكره انخفضت الصادرات البريطانية من ٤٠,٨٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني إلى ٣٥,٢٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني، وانخفضت وارداتها من القطن بنسبة ٩٥٪. وكإحدى نتائج الحصار ارتفع سعر القممع (الحبوب بشكل عام) من ٦٦ شلنًا إلى ٩٤ شلنًا لكل ربع (كوارتر: وحدة وزن تساوي ٢٨ باوندًا) (ربع الهندرید ويت الذي يساوي ١١٢ باوند)، وفي غضون ما لا يزيد إلا قليلاً عن عام (١٨٠٧ - ١٨٠٨). وفي هذه الأثناء أدى تدهور التجارة الخارجية إلى هبوط الأجرور وانتشار البطالة وقيام الإضرابات المدمرة. لقد كانت بريطانيا تحتاج إلى الحديد السويدي لتصانعها وللأخشاب الروسية لسفنهما، لكن الحرب مع السويد وتحالف روسيا مع فرنسا (١٨٠٧) أديا إلى منع هذين الموردين عنها. وناضلت بريطانيا لمواجهة هذا التقهقر بحماية من تبقى لها من متنفسات لتجارتها،

فارتفعت صادراتها إلى البرتغال وأسبانيا وتركيا (الدولة العثمانية) ٤٠٠٪ بين عام ١٨٠٥ و ١٨١١ إلى أن أتى الغزو الفرنسي المكلف لشبه الجزيرة الأيبيرية.

وكانت الأمور تزداد سوءاً في بريطانيا كلما استمر الحصار؛ لقد انخفضت صادراتها إلى شمال أوروبا بما نسبته ٢٠٪ في عامي ١٨١٠ - ١٨١١. وأدى تراجع ميزانها التجاري إلى ارتفاع المبالغ المدفوعة بالذهب في أوروبا، كما أدى إلى انهيار قيمة الجنيه في العالم إلى درجة دفعت المعارضة مثلة في زعيميها جرينفيل وجراي Grenville & Grey إلى المطالبة بالسلام بأي ثمن^(١). وفي سنة ١٨١١ - أي قبل عام من حرب نابليون مع روسيا - وصل تأثير حصاره القاري ذروته في بريطانيا العظمى.

وكان الحصار البريطاني لفرنسا مفيداً بشكل جوهرى لها (أي لفرنسا) فرغم أن موانئ فرنسا - لي هافر Le Havre ونانت Nantes وبوردو ومارسيليا - كانت قد تعرضت لخراب اقتصادي شديد حتى إن المدينتين الأخيرتين طالبتا بعودة حكم البوربون^(٢)، إلا أن التجارة الفرنسية الداخلية استفادت من إزاحة المنافسة البريطانية، واستفادت من تدفق الذهب ووفرة رأس المال، والإعانات المالية التي تقدمها حكومة رجل الأعمال التي أثرت خزانتها بغنائم الحرب. وكانت أرباح التجار ورجال الأعمال الفرنسيين لا تزال أكثر بسبب هذه العوامل. وبسبب تحسن أحوال أسواق القارة وزيادة التيسيرات فيها في ظل سيادة نابليون. وتضاعفت صناعة النسيج أربع مرات في الفترة من ١٨٠٦ إلى ١٨١٠ مما عجل بالثورة الصناعية - بعد ذلك - في فرنسا. وأعطى انعدام البطالة والاستقرار السياسي في نطاقحدود المتدة حافزاً للصناعة حتى إنه لو ربحت فرنسا الحروب النابليونية لكان قد أدركت إنجلترا إنتاجاً وتجارة عالمية، وضارعتها.

وكان الحصار القاري (الذي فرضته فرنسا) مفيداً لصناعتها وتجارتها الداخلية، لكنه كان مُضرراً بالتجارة الخارجية بالنسبة إلى دول «النظام القاري» التابعة لنابليون. فالمدن الهايسية - أمستردام، وهامبورج، وبرلين ولوبيك Lübeck - كان من الطبيعي أن تعاني من الحصار القاري المزدوج (المقصود الحصار القاري الذي فرضه نابليون على البضائع البريطانية، والحاصر الذي فرضته بريطانيا على الموانئ والسواحل الفرنسية والتابعة لفرنسا)،

لكن سويسرا وشمال إيطاليا ومجتمعات الراين ازدهرت نتيجةً امتداد المؤسسات النابليونية بشكل غير عميق. أما كلما اتجهنا إلى الشرق (في أوروبا) حيث الصناعة أقل تطوراً، فإن الحصار القاري – بمنعه بيع منتجات الإقليم لبريطانيا – كان عبئاً أدى إلى زيادة الاستياء. وبطبيعة الحال، كان هذا أكثر ما يكون وضوحاً على نحو خاص في روسيا.

وكان نقطة الضعف الأساسية في الحصار القاري (الذي فرضه نابليون) هي أنه كان معاكساً للرغبة البشرية الطبيعية في طرق كل الأبواب المؤدية إلى الكسب. لقد كانت موانئ أوروبا ومدنها الساحلية غايةً بأناس كان الواحد منهم راغباً في الخاطرة بحياته لتهريب البضائع البريطانية إلى القارة، فقد أصبحت هذه البضائع جذابة بسبب منعها، وكان أصحاب الصناعات داخل القارة الذين كانوا يجدون لبضائعهم أسواقاً أجنبية غير راضين بإيجارهم على التخلص عن الأسواق البريطانية. وأدى استياء الأسر التجارية الكبيرة في هولندا إلى حدِّ دفع الملك لويس بونابرت إلى الكتابة للقيصر الروسي إسكندر «متجاوزاً الحد في انتقاد نابليون بمرارة لا ترحم»^(٣).

وفي مواجهة المعارضة المتزايدة استخدم نابليون ٢٠٠٠ دار جمارك وألافاً من رجال الشرطة السرية أو المعروفين، وما لا يُحصى من الجنود لكشف أي خرق للحصار، والقبض على من يرتكب هذه المخالفات وعقابه ومصادرة البضائع المهربة. وفي سنة ١٨١٢ أصدرت محكمة الجمارك في هامبورج في ظرف ثمانية عشر يوماً، حكماً كان بعضها بالإعدام، إلا أن الحكم بالإعدام كان على أية حال نادراً، بل وحتى أحكام الإعدام التي صدرت لم تكن تُنفذ. وكانت البضائع المصادرية تتبع للخزانة الفرنسية، وكان بعضها يُحرق عليناً مما كان ينفر كل المشاهدين تقريباً ويسبب استياءهم.

ولتحقيق العداء على نحو ما، ولزيادة الدخل ولسد العجز، بدأ نابليون في سنة ١٨٠٩ في بيع التراخيص، وعادةً ما كان الحصول على الترخيص مقابل ألف فرنك – وذلك لاستيراد البضائع البريطانية التي يثبت ضرورتها للصناعة الفرنسية أو ضرورتها لرفع الروح المعنوية للفرنسيين، أو تصدير بضائع إلى بريطانيا مقابل البن والسكر والذهب. ورغم أن نابليون بدأ رسمياً في إصدار هذه التراخيص عليناً منذ سنة ١٨٠٩ إلا أنه فيما يُقال كان يصدرها قبل

ذلك بعدها طويلة، وكانت بريطانيا قد سبق لها أن أصدرت تراخيص مشابهة - ٤٤,٣٤٦ منها بين ١٨٠٧ و ١٨١٢ - لِإلغاء الحظر على بضائعها^(٤). إن نابليون - بالمقارنة - لم يُصدر سوى ٤٩٤ تراخيصاً بحلول ٢٥ نوفمبر سنة ١٨١١^(٥)، ومع هذا فإن إسكندر أشار إلى أنه بينما يطالب نابليون روسيا بحظر دخول البضائع البريطانية حظراً تاماً فإنـه - أي نابليون يتغاضى عن دخولها إلى فرنسا.

وباختصار فإن الحصار القاري الذي فرضه نابليون كان رغم تدني جماهيريته بشكل واسع، ورغم الصعوبات والأخطاء التي قامت في سببـه - يبدو ناجحاً في سنة ١٨١٠. لقد أصبحت إنجلترا على حافة الإفلاس، بل وعلى حافة الثورة المطالبة بالسلام مع فرنسا، وكانت الدول المتحالفـة مع فرنسا متذمرة لكنـها كانت خاضعة مطـيعة، وكانت فرنسـا رغم الاستنزاف المالي والبـشـري الذي سببـته الحرب الأـبـيرـية، مـزـدهـرـة اقـتصـاديـاـ رـبـماـ كـمـالـمـ تـكـنـ في أي وقت آخر مضـىـ. ولم يكن لدى الفرنسيـيـ سـوـيـ القـلـيلـ من الحريةـ، لكنـ كانـ لـديـهـ فـرنـكـاتـهـ، وـنـصـيـبـهـ منـ عـظـمـةـ فـرنـسـاـ الـمـتـصـرـرـةـ، إـمـپـراـطـورـهـاـ الـذـيـ لـاـ نـظـيرـ لـهـ.

٢- فرنسـاـ فـيـ حـالـةـ رـكـودـ اـقـتصـاديـ: ١٨١١

وفجـأـةـ - كـمـاـ لـوـ أـنـ بـعـضـ الـقـوـىـ الشـرـيرـةـ كـانـتـ تـنـسـقـ لـإـحـدـاـتـ كـوـارـثـ - بـدـاـ كـلـ الـاـقـتصـادـ الـمـتـعـدـ الـأـوـجـهـ يـنـهـارـ مـتـمـزـقاـ إـرـبـاـ غـارـقاـ فـيـ دـوـامـاتـ الـفـشـلـ الـبـنـكـيـ، وـالـاـضـطـرـابـاتـ فـيـ الـاـسـوـاقـ، وـإـغـلـاقـ الـمـصـانـعـ وـالـبـطـالـةـ وـالـإـضـرـابـاتـ وـالـتـمـرـدـ بـلـ وـخـطـرـ الـجـمـاعـةـ - كـانـ كـلـ هـذـاـ وـإـمـپـراـطـورـ الـأـعـجـوـيـهـ الـذـيـ لـاـ يـمـلـ يـخـطـطـ لـجـمـعـ الـأـمـوـالـ وـالـجـنـوـدـ وـرـفـعـ الـرـوـحـ الـمـعـنـوـيـهـ لـخـوـضـ مـعـرـكـةـ حـيـاةـ أـوـ مـوـتـ مـعـ رـوـسـيـاـ الـبـعـيـدـةـ الـمـجـهـوـلـةـ الـوـاسـعـةـ.

إنـ أـسـبـابـ رـكـودـ اـقـتصـاديـ حـدـيـثـ يـصـعـبـ تـحـدـيـدـهـاـ، فـكـيـفـ سـنـحـلـلـ أـسـبـابـ الرـكـودـ الـاـقـتصـادـيـ فـيـ فـرـنـسـاـ فـيـ سـنـةـ ١٨١١ـ؟ـ إـنـهـ لـاـمـ أـشـدـ صـعـوبـةـ، مـاـ يـظـنـ أـكـبـرـنـاـ سـنـاـ (ـمـنـ شـهـدـواـ الرـكـودـ الـاـقـتصـادـيـ الـحـدـيـثـ)، وـهـنـاكـ مـؤـرـخـ نـابـهـ^(٦) أـرـجـعـ الرـكـودـ الـاـقـتصـادـيـ الـفـرـنـسـيـ الـأـنـفـ ذـكـرـهـ إـلـىـ سـبـبـيـنـ: (١)ـ فـشـلـ صـنـاعـةـ الـغـزـلـ وـالـنـسـيـجـ فـيـ فـرـنـسـاـ فـيـ تـدـبـيرـ الـمـوـادـ الـخـامـ وـرـأـسـ الـمـالـ. (٢)ـ وـفـشـلـ شـرـكـاتـ الـصـرـافـةـ فـيـ لـوـبـكـ Lübeckـ. لـقـدـ كـانـتـ مـصـانـعـ الـغـزـلـ فـيـ فـرـنـسـاـ

تعتمد على استيراد القطن الخام إلا أن سياسة حماية المنتجات المحلية التي اتخذتها الحكومة الفرنسية قبضت بوضع تعريفة جمركية عالية على مثل هذه الواردات فقلَّ الوارد وارتفعت أثمان القطن، ولم يستطع أصحاب مصانع الغزل دفع المبالغ الازمة لتشغيل كل أتوالهم، ولم يستطيعوا دفع نسبة الربح العالية التي تفرضها البنوك الفرنسية على القروض. وشعر أصحاب هذه المصانع بضرورة الاستغناء عن المزيد والمزيد من العاملين لديهم. وسرعان ما أعقب فشل بنك لوبيك إفلاسات مماثلة في هامبورج وأمستردام أثرت في الشركات والمؤسسات الباريسية. لقد زاد عدد البنوك المفلسة في فرنسا من ١٧ بنكاً في أكتوبر سنة ١٨١٠ إلى ٤١ في نوفمبر من السنة نفسها، إلى ٦١ في يناير ١٨١١، وأدت ندرة القروض البنكية وارتفاع فوائدها إلى اضطرار الشركات شركةً إثر أخرى إلى تقليل عدد العاملين فيها، بل وإيقاف أعمالها، وسرعان ما ازدحمت شوارع المدن الفرنسية بالعاطلين الذين راحوا يعرضون ممتلكاتهم للبيع أو راحوا يتسلون الخبز، بل وانتحر بعضهم^(٧). وتكونت عصابات من العاطلين في المناطق الشمالية أغارت على المزارع واستولت على الغلال، وفي المدن هاجم العاطلون الأسواق والمخازن واعتبرضوا حمولات الطعام في الطرق والأنهار ونهبوا. لقد بدأ الفوضى التي سادت عام ١٧٩٣ تعود من جديد.

وأصدر نابليون قرارات بعقوبات قاسية ضد جرائم الإخلال بالنظام العام، وأرسل الجنود لقمع المضربين، ونظم أمر توزيع الطعام مجاناً. وأصدر قراراً في ٢٨ أغسطس بإرسال ٥٠٠,٠٠٠ هنريدوبيت من القمح و ٣٠,٠٠٠ جوال من الدقيق للمراكز ذات الوضع الحرج. وفي هذه الأثناء خرق هو نفسه الحصار القاري بالسماح باستيراد الغلال من الخارج، ورفع التعريفة الجمركية عن المنتجات الأجنبية التي تنافس الصناعات الفرنسية، ونظم أمر القروض الحكومية لتمكن الشركات من مواصلة التعيين (التوظيف) والإنتاج، وفي مايو سنة ١٨١٢ وضع حداً أعلى لسعر القمح تأسياً بسابق ثورية، لكن هذه المحاولة فشلت لأن الفلاحين منعوا منتجاتهم منه عن السوق حتى ترتفع الأسعار فيحصلوا على السعر الذي يطليونه. وساعدت الأعمال الخيرية الخاصة الحكومة على تجنب هيجان على مستوى الأمة، فالكونت رمفورت Rumfort العالم الأمريكي البريطاني الذي كان يعيش آنذاك في فرنسا

رتب نوعاً من الحسأء هو (حسأء رمفورت) مكوناً أساساً من اللوبيا أو الفاصوليا، والبسلة أو الفول، وهو حسأء لا تقتصر فائدته على احتواه على البروتينات النباتية وإنما تُقلل من الحاجة إلى الحبز.

وكانت الأزمة الاقتصادية التي أطلت في أثناء استعدادات نابليون لغزو روسيا اختباراً لقوه أعصابه وربما أسممت في إضعاف ثقته في نفسه وإضعاف قراراته، ومع هذا فلم يتخل عن حظه الطيب، فقد كانت البشائر تشير إلى محصول وفير في سنة ١٨١٢ وثبت هذا بالفعل، فأصبح الحبز أرخص سعراً، وأصبح يمكن العاطلين - على الأقل - من أن يجدوا ما يسد رمقهم. وفتحت البنوك أبوابها مرة أخرى أو حل محلها بنوك أخرى وتدفقت القروض وواصلت العاصمة دورها في المصانع وكان لابد من هذا وأصبح من الممكن دفع الأجرور بالعمل في إنتاج بضائع قد يستغرق وصولها إلى المشتري نصف عام. وأصبحت الأسواق عامرة مرة أخرى. والآن كان في مقدور نابليون أن يكسر نفسه للحرب لـإحكام الحصار القاري الذي كان قد بدأ فعلاً في الإخفاق بسبب تصرفات الأمم وطبيعة البشر.

٣- مقدمات الحرب: ١٨١١-١٨١٢

استعدَّ الإمبراطوران المتخاصمان للمعركة بتحركات دبلوماسية، وتحمّلات عسكرية، وتهيّأة جماهيرية، وحاول كل منهما إقناع الآخر بأنه مُخلص للسلام. اختار نابليون كسفير له في روسيا أرمان دي كولينكور Armand de Caulaincourt وهو رجل تفوق قيمته مجرد أصله النبيل. وعندما وصل هذا السفير إلى سان بطرسبرج (نوفمبر ١٨٠٧) تأثر بما لحق بإسكندر من تطور من حاكم شاب حبي - ذلك الحاكم الذي كان قد رأه في سنة ١٨٠١ إلى قيصر كان قد أصبح مثالاً للمظهر الطيب والعادات الرشيقه والأسلوب الودود في الحديث. واعترف إسكندر أنه مُحب لنابليون وأنه لا يزال متمسكاً بالاتفاقات التي عُقدت في تيلسيت - وأبدى بعض التوافقات الخفيفة اعتبرها الإمبراطور الفرنسي الأريب معقوله. لكن بولندا فرقت بينهما. لقد كان نابليون قد أسس دوقية وارسو (فرسافا) الكبيرة (١٨٠٧) تحت الحماية الفرنسية لكن إسكندر واجه هذا بان راح يتودّد للبلاء البولنديين

بعرضه عليهم إعادة بولندا مملكة موحدة كما كانت قبل التقسيم تحكم نفسها حكماً ذاتياً مع الاعتراف بقيصر روسيا كملك لها مهيمن على علاقاتها الخارجية. ووقعت خطابات تحوي هذا العرض في يد نابليون فاستشاط غضباً^(٨)، واستدعي كولينكور (فبراير ١٨١١) وعيّن بدلاً منه جاك لو (ماركيز لوريسون Jaques Law مستقبلاً) سفيراً لفرنسا في روسيا.

وفي هذا الشهر حثَّ إسكندر النمسا على الانضمام إليه في شن هجوم على قوات نابليون في بولندا مغرياً إياها بمحاسبة عرضي - نصف مولدافيا وكل فالشيَا^(٩)، ورفضت النمسا. وقد ألقى نابليون - بعد ذلك - وهو في سانت هيلانة بعض الضوء على سياسته في بولندا «لم أكن أبداً لأشن الحرب على روسيا لخدم - ببساطة - مصالح طبقة النبلاء البولنديين»، أما بالنسبة إلى مسألة تحرير أقنان الأرض «فإنني لا أستطيع أبداً أن أنسى أنني عندما تحدثت إلى أقنان الأرض في بولندا عن الحرية، أجابوني: بالتأكيد نحن نحب الحرية كثيراً جداً، لكن من سُيُطِّعْنُونا ويسخونا ويدبرُونا سكناً؟»^(١٠) وهذا يعني أنهم كانوا سيتعثرون في حالة حدوث أي تغيير مفاجئ.

ووصل كولينكور إلى باريس في ٥ يونيو ١٨١١ محملاً بالهدايا من القيصر، وحاول بكل جهده إقناع نابليون بتوابياً إسكندر السلمية وحذره من أن غزو فرنسا لروسيا قد ينتهي إلى هزيمة بسبب مناخها ومساحتها الشاسعة، وانتهت نابليون إلى أن كولينكور قد وقع في حب القيصر، فانتهك بذلك واجبات منصبه الدبلوماسي^(١١)، وعَبَّ نابليون جيشه في بروسيا أو بالقرب منها بعد أن استبعد الأمل في حل سلمي وبعد أن ساوره الشك أن روسيا تحاول كسب بروسيا والنمسا إلى جانبها^(١٢)، فأرَهُبَ - أي نابليون - فريدرיך وليم الثالث لتوقيع تحالف مع فرنسا (٥ مارس ١٨١٢) ألم بروسيا بتقديم عشرين ألف جندي ينضمون إلى الجيش الفرنسي لغزو روسيا، كما ألم بها بإطعام الجيش الفرنسي عند مروره بالأراضي البروسية على أن تُخصم تكاليف الطعام من تعويض الحرب الذي كانت بروسيا لاتزال ملتزمة بدفعه لفرنسا^(١٣). وفي ١٤ مارس دخلت النمسا في تحالف قسري مماثل مع فرنسا. وفي أبريل اقترح نابليون على السلطان (العثماني) تحالفاً يُتيح لتركيا تطوير صراعها مع

روسيا في حرب مقدسة (جهاد) وأن تتعاون مع فرنسا في مسيرة متزامنة إلى موسكو، ويستعيد الباب العالي – في حالة نجاح الحملة – ولاياته الدانوبية مع ضمان سيطرته على القرم والبحر الأسود. لكن الباب العالي وقد تذكر أن نابليون قد حارب الترك (العثمانيين) في مصر والشام، وأنه عرض في تيلسيت على إسكندر أن يتصرف كما يحلو له ضد تركيا (الدولة العثمانية) – رفض عروض نابليون، ووقع – أي السلطان العثماني – اتفاق سلام مع روسيا (٢٨ مايو ١٨١٢)، وفي ٥ أبريل وقع إسكندر اتفاقية تعاون مشترك مع السويد، وفي ١٨ أبريل عرض على بريطانيا العظمى التحالف. وفي ٢٩ مايو أعلن أن كل الموانئ الروسية مفتوحة لسفن كل الأمم. والحقيقة أن هذا الإعلان كان يعني الانسحاب من الحصار القاري (الذي فرضه نابليون) وإعلان الحرب على فرنسا.

ومع هذه المبارزة الدبلوماسية كانت تجري واحدة من أكثر الاستعدادات العسكرية في التاريخ ضخامة. وفي هذا المجال كانت مهمة إسكندر أبسط وأضيق من مهمة نابليون. لقد كان أمام إسكندر دولة واحدة كان عليه تبعية قواتها ومشاعرها. أما تبعية المشاعر فكادت تتم بدون مجهد منه: فروسيا الأم هيتشكل تلقائي ضد جحافل البرابرة الذين نظموا أنفسهم وعلى رأسهم كافر وتوجهوا لغزو روسيا. وتحولت العاطفة الوطنية التي أدت فيما سبق إلى إدانة سلام تيلسيت إلى دعم ذي طابع ديني للقيصر، فحيثما ذهب تحلق حوله البسطاء رجالاً ونساء يُقبلون حصانه أو حذاءه. أما وقد وجد نفسه بهذه القوة فقد زاد من عدد جيوشة وأمرها بالاستعداد للحرب، ومرّكز ٢٠٠,٠٠٠ جندي على طوال الدفينا Dvina والدنبر Dnieper وهو أطول نهرين يفصلان روسيا الروسية عن ليتوانيا والولايات البولندية التي حصلت عليها روسيا في أثناء تقسيم بولندا^(١٤).

أما تبعية نابليون فكانت أكثر تعقيداً. لقد واجه الصعوبة المبدئية المتمثلة في أن ٣٠,٠٠٠ جندي فرنسي وأثنى عشر جنراً فرنسي كانوا متورطين في إسبانيا وال الحاجة إليهم أكثر لمنع ويلنجتون من اجتياح شبه جزيرة أيبيريا واجتياز جبال البرانس إلى فرنسا. لقد كان نابليون يأمل العودة إلى إسبانيا ليذكر نصراً آخر كالذي كان قد أحرزه في سنة ١٨٠٩، والآن كان على نابليون أن يختار بين فقد إسبانيا والبرتغال والحصار القاري من ناحية، وقد

التحالف الروسي والمحصار «إنني أعلم أكثر من أي شخص آخر أن إسبانيا كانت سرطاناً مزعجاً كان لابد من علاجه قبل أن نستطيع الدخول في مثل هذه الحرب المرعبة التي لابد أن تكون معركتها الأولى على بعد ألف وخمسمائة ميل من حدودي»^(١٥).

وكان نابليون قد بدأ استعداداته العسكرية في سنة ١٨١٠ بتنمية الحاميات الفرنسية في دانسنج (دانزج) وأوزر - بالإضافة لذلك - بحذر شديد، إلى تنظيم أمور العسكرية الفرنسية في بروسيا. وفي يناير ١٨١١ استدعى للخدمة العسكرية الذين أتى عليهم الدور في هذا العام ووزعهم على طول الساحل الألماني من نهر إلبا Elbe إلى نهر أودر Oder تحسباً لهجوم بحري روسي. وفي الربيع أمر أمراء كونفدرالية الراين أن يجهزوا حصتهم من الجنود المفروض تقديمها لجيوش نابليون، للقيام بعمل عسكري فعلي. وفي أغسطس بدأ في دراسة الأرضي الروسية دراسة جادة متنامية، ووقع اختياره على شهر يونيو كأفضل شهر لغزوها^(١٦). وفي ديسمبر نشر شبكة جواسيس للعمل في روسيا وما حولها^(١٧).

وبحلول شهر فبراير سنة ١٨١٢ كان الظرفان قد أتما التعبئة العامة اللازمة للحرب. كانت عملية التجنيد في فرنسا تُوحى بهبوط حاد في شعبية الجيش: من بين ٣٠٠,٠٠٠ تم استدعاؤهم للخدمة اختفى ٨٠,٠٠٠ وتم البحث عن آلاف منهم باعتبارهم مجرمين^(١٨) (هاربين من الخدمة العسكرية). وكثيرون من الجنديين الجدد تركوا الخدمة العسكرية أو كانوا كارهين للجندية وأثبتو - بشكل خطير - أنه لا يمكن الاعتماد عليهم في الأزمات. أما في المعارك السابقة فقد كان الجنود الجدد يجدون أمامهم القدوة والمثال الطيب الذي يدعو للفخر في التشجيع الآبوي من المحاربين المخضرمين القدماء في الحرس الإمبراطوري، أما الآن فقد كان معظم رفاق المعارك هؤلاء قد ماتوا أو كانوا في إسبانيا أو بلغ بهم العمر عتياً. فلم يعودوا قادرين على القيام بأدوار بطولية فعلية وكل ما كانوا يستطيعونه هو اجترار ذكريات بطولاتهم الماضية. بل إنه لم يكن للمجندين الجدد إلهام من أمة موحدة ومتتحمسة تقف وراءهم. وقد ناشدهم نابليون كما ناشد رعاياه أن ينظروا إلى هذا المشروع كحرب مقدسة تشنها الحضارة الغربية ضد موجة غرور البربرية السلافية^(١٩) لكن الفرنسيين المتشككين كانوا قد سمعوا مثل هذه الحكايات من قبل، وعلى أية حال فقد كانت روسيا بعيدة بعداً

يكفي لعدم إرهابهم. وحاول نابليون إلهاب مشاعر جنرالاته إلا أنهم لم يكادوا يُصيغون إليه سمعاً لأنهم كانوا ضد الحرب الجديدة لأنها - في رأيهم - دعوة إلى مأساة. وكان كثيرون منهم قد غدوا أثرياء بفضل هباته وكانوا راغبين أن يتركهم لينعموا بها في سلام.

وكان بعض مساعديه من الشجاعة بمكان بحيث صارحوه بشكوكهم. بل إن كولينكور رغم ولائه له وبرغم أنه خدمه حتى سنة ١٨١٤ كقيم على إصطفاه الإمبراطوري ومشرف على خيوله - حذر من أن الحرب مع روسيا مدمرة، بل وجرأ على أن يقول له إنه قد سبب كل هذه المتاعب لإرضاء «ولعه الشديد» بالحرب^(٢٠). أما فوشيه Fouché الذي كان قد أبعد عن الحضرة الإمبراطورية بسبب تأمره الشديد، كما هو مفترض فقد استدعاه نابليون مرة أخرى ليضعه تحت ناظريه أو ليتمكن من توجيهه. فوشيه Fouché هذا قال لنابليون إنه من الصعب هزيمة روسيا بسبب المناخ وإنه - أي نابليون - يفعل كل هذا بسبب حلمه المضلل بأن يحكم العالم كله - هذا إن جاز لنا أن نصدق فوشيه هذا^(٢١). وقد شرح نابليون أنه لا يحلم إلا بإيجاد ولايات متحدة أوربية وأن يقدم للقاراء تشريعات قانونية واحدة وعملة واحدة، ونظام مقاييس وموازين واحد ومحكمة استئناف واحدة - كل هذا تحت قبة واحدة ذات زوايا ثلات. وهذا الجيش الهائل الذي لم يسبق له مثيل الذي بذل جهوداً كبيرة لجمعه وإعداده - كيف يُعيده إلى دياره الآن ليسير خلال ما يبقى له من حياة وذيله بين سيقانه؟!

لقد كان فعلاً جيشاً هائلاً: ٦٨٠،٠٠٠ مقاتل من بينهم ١٠٠،٠٠٠ فارس وما لا يُحصى من المسؤولين السياسيين والخدم والنسوة المرافقات. وكان أقل من نصف هذا العدد من الفرنسيين، أما الباقون فكانوا كتائب عسكرية مطلوبة من كل من إيطاليا، وإيليريا Illyria والنمسا وألمانيا وبولندا. وكان هناك خمسون جنرالاً: ليغبفر Lefebvre، دافو Davout، أودينو Oudinot، ني Ney، مورا Murat، فيكتور، أوجيرو Augereau، يوجين دي بوهارنيه، الأمير جوزيف أنتوني بونياتوفسكي ابن أخي آخر ملوك بولندا الفرسان، وغيرهم. لقد تجمعت كل هذه القوى في جيوش منفصلة في نقاط مختلفة في الطريق إلى روسيا وتم تزويد كل جنرال بتعليمات محددة عن متى وأين يقود جيشه؟.

لقد كانت مهمة إعداد وتمويل هذا العدد الكبير تحتاج إلى عبقرية وصبر ومال، ربما أكثر

من مهمة جمعها (حشدها). حقيقة لقد كانت المرحلة الأولى من هذا المشروع وكذلك الأخيرة قد تأثرت بشكل حيوي بظروف نقل الجنود وتمويلهم، ولم يكن من الممكن بدء المعركة إلا بعد أن تكون التربية قد سمحت بنمو الحشائش بقدر كاف لإطعام الخيول. وكان دمار الحملة يكاد يكون تاماً باستيلاء الروس على المؤن التي كان الفرنسيون الجوعى العائدون يتوقعون وجودها في سمولنسك Smolensk. لقد حاول نابليون أن يحسب حساب كل شيء سوى الكارثة. لقد كان قد رئب أمره ليكون لديه مخازن للمواد وقطع الغيار الميكانيكية والطعام والملابس والأدوية في كل من وزل Wesel وكولونى Cologne وبون Bonn وكوبленز Coblenz) ومينتس (Mainz) وغيرها من النقاط في طرق جيوشه المتجمعة، وكان لابد من إمدادات شبيهة بمثلة في مئات من عربات النقل تتبع الغزارة إلى روسيا. وكان نابليون يعرف أين يشتري وماذا يدفع. لقد كان يعرف خداع المؤردين، وكان مستعداً لإحراق أي تاجر يحمل جيشه أكثر مما يطيق أو يبيعه بضائع رديئة أو مغشوشة.

كيف دفع تكاليف كل هذه المؤن ونقلها وخزنها وكيف دفع جنده ومستخدميه؟ لقد فرض الضرائب وفرض على المقرضين إقراضه وأخذ القروض من بنك فرنسا ومن البنوك الخاصة، وأخذ الملايين من المبالغ الخاصة به وبالبالغة ٣٨٠ مليون فرنك ذهباً والتي أودعها في أقبية التوليري، وراح يقاوم الإسراف أينما كان ووَيَخْ مطلقته الحبيبة جوزفين لأنها تنفق كإمبراطورة وامتدح الإمبراطورة ماري لويس لاقتصادها في النفقات^(٢٢). وباختصار فإنه قال في وقت لاحق: «إن معركة روسيا... كانت هي الأفضل، والأكثر إتقاناً، والأكثر براعة في قيادتها، بل والأكثر منهجية (نظاماً) من بين كل المعارك التي قُدِّمتها»^(٢٣).

أكان كفؤاً لقيادتها؟ ربما كان أكثر معاصريه كفاءة لكنه كان أقل ملاءمة مما تحتاجه مثل هذه المعركة. لقد كان في الثالثة والأربعين، وكان في هذه السن قد أَلْفَ بالفعل حياة المعسكرات وواجبات المعارك، ويمكننا أن نفترض أنه ربما كان يعاني من آلام عوْقَته في بورودينو Borodino وواترلو Waterloo (بعد ذلك): آلام في المعدة، صعوبات متواالية في التبول، آلام البواسير. ومع هذا فقد كان لا يزال رفيقاً عادلاً وزوجاً طيباً لماري لويس وأباً مولعاً

بابنه منها. ولكنه كان قد أصبح بعد ثمانية أعوام من الحكم الإمبراطوري نافذ الصبر دكتاتوراً سهل الاستئثارة سريعاً الغضب مُغالياً في تقدير قدراته العقلية وإمكاناته السياسية. مع استثناءات كثيرة: لقد تحمل انتقادات كولينكور بفكاهة وصدر رحب. وغفر كثيراً من الأخطاء المكلفة لإخوته وجنرالاته. وكانت تمر به لحظات ينظر فيها لنفسه نظرة واقعية: يخبرنا سكريتيره أنه في الحالات التي كان يستغرق فيها في التفكير والتأمل كنت أسمعه يشخص وضعه و موقفه بعبارة يقول فيها «لقد شددنا القوس إلى منتهاه»^(٢٤) لكنه قلما كان يفقد الرؤية والإحساس بالقصور. لقد قال لناربون Narbonne «وبعد كل هذا، فإن، فإن هذا الطريق الطويل [إلى موسكو] هو الطريق إلى الهند»^(٢٥).

وعلى هذا في ٩ مايو ١٨١٢ غادر سان كلو St. Cloud فاصداً موسكو على الأقل، لقد كان كل شيء في حياته مقامرة، وكانت هذه (ذهابه بجيشه إلى موسكو) هي أكبرها.

٤- الطريق إلى موسكو: ٢٦ يونيو - ١٤ سبتمبر ١٨١٢

أخذ عليه ماري لويس أن تصحبه حتى دريسدن Dresden وأن يدعو والديها للقاءهما هناك لتكون مرة أخرى مع أسرتها لفترة، وستكون هذه الفترة وجيزة على أية حال. ووافق نابليون، ووُجِدَ من الحكمة أن يدعو أيضاً فريدرريك الثالث البروسي وعدداً كبيراً من الشخصيات الملكية وذوي الحيوة. لقد أصبحت مسيرته من مينز (مينتس) مُشرقاً عبر بلاد الراين موكب نصر، إذ كان الحكام المحليون يخرجون لاستقبال سيدِهم الأعلى، وكانوا ينضمون إلى موكبه طوال تقدمه في سكسونيا. وإلى الغرب من دريسدن بأميال قليلة التقى بالملك فريدرريك أغسطس الذي صحبه ومن معه إلى العاصمة، فوصلوا المدينة قبل منتصف الليل بساعة في ٦ مايو وازدحمت الشوارع التي مروا بها الناس حاملين المشاعل وهاتفين مرحبين ودققت أجراس الكنائس ودُوّت المدافع بطلقات التحية^(٢٦).

وفي ١٨ مايو وصل ميتزنيخ مع إمبراطور النمسا وإمبراطورتها^(*)، وعانت ماري لويس

(*) هي ثالث زوجة لفرانسيس الثاني - ماريا لودويفيكا (من مودينا Modena). وكانت ماري لويس هي ابنة زوجته الثانية ماريا تريزا (من نابلي) التي ماتت في سنة ١٨٠٧ ..

أباها بعاطفة جياشة وكانت سعادتها قد قلت بسبب هواجس اعتبرتها بأن هذا العام مليء بالنحس. وسرعان ما أتى ملك بروسيا وولي عهدها وربما لم يكونا سعيدين وسط هذا الجو من التوافق والود بين أعداء وطنهم التاريخيين، وعلى أية حال فقد كان القيصر إسكندر قد تلقى تأكيدات سرية بأن بروسيا والنمسا تتمانيان هزيمة نابليون^(٢٧). وقام الملك فريدرريك أغسطس كمضيف بتخفيف أمور السياسة بالأوبرا والدراما والصيد والألعاب النارية والرقص والاستقبالات التي كان حكام المانيا يقدمون فيها لنابليون فروض الولاء والطاعة (البيعة) وكان هذا مبهجاً له - رغم تواضعه - وبلغ ابتهاجه الذروة.

وفي ٢٨ مايو انطلق نابليون لينضم إلى أحد جيوشة في ثورن Thorn على الفيستولا Vistula، وكانت الأوامر قد صدرت لجنرالاته للقاء عند شاطئ نهر نيم Niemen الذي يفصل دولية وارسو (فرسافا) الكبيرة عن روسيا. وركب هو نفسه في عربة مزودة بمصباح ومنضدة وأدوات كتابة وخرائط وكتب. وكانت هذه الأدوات تُنقل كل يوم في أثناء المسيرة إلى خيمته حيث كان يكتب الأوامر ويطلب من سكرتيريه نقلها لجنرالاته، وكانت هذه الأوامر تتعلق بالعمليات في صباح اليوم التالي. وقد صحبه سكرتيره العجوز مينيفال Méneval وسكرتيره الجديد نسبياً فرانسوا فان Fain وخدمه الخصوصي كونستانط طوال الطريق إلى موسكو وطوال رحلة العودة. ووصل نابليون إلى شاطئ نهر نيم في ٢٣ يونيو واستطاع الأحوال ولم يجد أثراً لوجود العدو على الضفة الأخرى من النهر، فأقيمت ثلاثة جسور عائمة بسرعة، وفي ٢٤ - ٢٦ يونيو عبر ٢٠٠,٠٠٠ من جنوده إلى مدينة كوفنو Kovno (الآن كاوناس Kaunas) وفي الوقت نفسه تقرباً عبر جيش فرنسي آخر مكون من نحو ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل النهر نفسه في أدنى المجرى عند تيلسيت (الآن سوفيتسك Sovetsk)^(٢٨) حيث التقى نابليون وإسكندر منذ خمس سنوات خلت وأقسموا على أن يظللاً صديقين حتى الممات.

لقد كان إسكندر الآن في فيلنا Vilna إلى الجنوب الشرقي من كوفنو بسبعة وخمسين ميلاً. وكانت هناك عدة جيوش في انتظار أوامره: في الشمال ١٥٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة الأمير ميخائيل باركلي دي توللي Mikhail Barclay de Tolly (من أصول

إسكندرية) وفي الجنوب ٦٠,٠٠٠ بقيادة الأمير بيتر باجراتيون Pyotr Bagration (من جورجيا)، وفي الشرق ٤٠,٠٠٠ بقيادة الجنرال إسكندر تورماسوف Aleksandr Tormasov . ولم تكن هذه الجيوش نداً قوياً لجيوش نابليون البالغ عددها ٤٠٠,٠٠٠ ، لكن بالانسحاب المنظم يمكنها أن تستهلك أو تدمّر كل المؤن وموارد الطعام أو تبعدها، ولا تترك إلا القليل لينهبه الغزاة. وكان هناك جيش روسي آخر مكون من ٦٠,٠٠٠ مقاتل شديد البأس أصبح متاحاً الآن بعد الاتفاق مع تركيا وتوقيع معاهدة سلام معها، وكان هذا الجيش في طريقه للشمال بقيادة الجنرال بول شيخاجوف Chichagov لكن هذا الجيش كان يبعد مسيرة سبعة أيام.

وفي ٢٤ يونيو كان إسكندر هو ضيف الشرف في حفل راقص في مزارع الكونت ليفين بنيجسن Levin Bennigsen الذي سبق له أن حارب نابليون في إيلاو Eylau سنة ١٨٠٧ . وفي أثناء الحفل أفضى حامل الرسائل لقىصر بأن الفرنسيين عبروا النيل إلى روسيا، فأخفى قيصر الخبر حتى انتهى الاحتفال. ولما عاد لمقره أصدر الأوامر لجيوشه المحلية بالانضمام معاً إن أمكن، وعليها في كل الأحوال أن تنسحب إلى المناطق الداخلية. لقد وصل الفرنسيون أسرع مما كان متوقعاً ولم تستطع القوات الروسية أن ينضم بعضها إلى بعضها الآخر لكنها راحت تتراجع (تنسحب) بنظام جيد.

وفي ٢٦ يونيو أرسل قيصر إلى نابليون طالباً فتح باب المفاوضات شريطة مغادرة القوات الفرنسية للأراضي الروسية فوراً. ولم يكن هو نفسه مؤمناً بجدوى اقتراحه، فغادر فيلنا Vilna مع جيش باركلي دي تولي Barclay de Tolly قاصداً فيتبسك Vitebsk ، وهنالك، ألح عليه ضباطه بأنه غير مؤهل لوضع استراتيجية عسكرية، فغادر قاصداً موسكو وناشد المواطنين التضحية بالمال والدم للدفاع عن بلاد آبائهم وأجدادهم فتفاعلوا بحماس مع مناشداته فعاد إلى سان بطرسبرج وقد امتلا شجاعة.

وفي ٢٧ يونيو بدأ نابليون وجيشه الرئيسي مسيرة طويلة - ٥٠٠ ميل - من كوفنو إلى موسكو. وحتى هذه الأيام الأولى في روسيا كانت مخنة؛ إذ بليل المطر الشقيل كل شيء ونقعه في الماء. وكان كل جندي يحمل معه طعاماً يكفيه لخمسة أيام لكنهم راحوا ينهبون

الحقول وأكواخ القرى دون مراعاة لا وامر الإمبراطور بالكف عن السلب والنهب، وكان هذا رغبة منهم في زيادة كميات الطعام لديهم أو تعزيزها بأنواع أخرى. ووصل الجيش إلى فيلنا Vilna في ٢٨ يونيو ونهبها بقدر ما يستطيع قبل وصول نابليون، وأتى (أي نابليون) وهو يتوقع أن يستقبله أهلها كمحرر، وحياه بعض اللتوانيين والبولنديين لكن آخرين قابلوه بصمت مُتجهم مُمتعضين مما قام به جيشه من سلب ونهب^(٢٩) وأتته وفود طالبة منه أن يضمن عودة العرش البولندي، ولم يستطع أن يُلزِم نفسه خوفاً من تحويل البروس والنساويين في حكومته عنه أو تمرد الجنود البروس والنساويين في جيشه عليه، وطلب من الوفود تأجيل هذا الطلب إلى حين عودته منتصراً من موسكو.

وكان نابليون يأمل أن يُفاجئ في فيلنا Vilna أحد جيوش القيصر ويدمره، لكن باركلي وجنوده كانوا قد هربوا (انسحبوا) إلى فيتبيسك Vitebsk وكانت قوات نابليون تخشى ملاحقة خشية شديدة، واستمر نابليون طوال أسبوعين يستعيد النظام ويرفع الروح المعنوية للجنود، وتعكر مزاج الإمبراطور لاحادث متواتية غير مواتية، فقد كان قد أرسل أخاه جيروم Jérôme بجيشه مهم ملاحقة بجراتيون Bagration في الجنوب، وفشل جيروم في الإيقاع بفريسته فعاد إلى الجيش الفرنسي الرئيسي فوَبَخَه نابليون لإجراءاته البطيئة وقيادته المترافية فسلم القيادة وانسحب إلى بلاطه في وستفاليا^(٣٠).

وفي ١٦ يوليو قاد نابليون جيشه الذي أعيد إنشائه وتموبله خارج فيلنا Vilna في مسيرة بلغ طولها ٢٥٠ ميلاً إلى فيتبيسك Vitebsk . وكان يخطط أن يلحق هناك بجيشه باركلي دي تولي Barclay de Tolly لكن الإسكتلندي (المقصود: ذو الأصول الإسكتلندية) البارع كان بالفعل قد تقدم في الطريق إلى سмолينسك Smolensic ولم يستطع نابليون ملاحقة إلَى أبعد من فيتبيسك لأنَّه (أي نابليون) كان قد أمر بإرسال دعم ومؤن لجيشه في فيتبيسك، فلا شيء يمكن به إجبار إسكندر على الإذعان لشروطه (شروط نابليون) سوى الاستيلاء على عاصمة روسيا المقدسة والعربيَّة.

وبعد أن قضى نابليون خمسة عشر يوماً في فيتبيسك قاد جيشه في ١٣ أغسطس آملاً أن يلحق بجيشه باركلي Barclay في سмолينسك التي كانت مركزاً مزدحماً بالسكان وكانت

المناطق المحيطة بها ذات تربة خصبة وتقع على نهر الدnieper فاز دهرت تجاراتها وصناعتها وكانت محسنة بشكل جيد حتى إن باركلي Barclay وباجراتيون Bagration بعد أن وحّدا جيشيهما قررا مواجهة نابليون فيها أو على الأقل إيقاف تقدمه.

ووصل الفرنسيون في ١٦ أغسطس مُنهكين بسبب مسیرتهم الطويلة وقل عددهم بسبب من مات منهم وبسبب فرار الجنود إذ بلغ عدد من مات أو فر ١٦٠,٠٠٠ رجل^(٣١). ومع هذا كان الهجوم الفرنسي عنيفاً وفعلاً، وفي ليل ١٧ أغسطس اشتعلت المدينة بالنار سواء بسبب المدفعية الفرنسية، أو بفعل الروس أنفسهم يأساً منهم، وكان هذا مبعث بهجة نابليون ولذوقه الجمالي إذ قال متسللاً لمسؤول خيوله (كولينكور): «ألا ترى هذا المشهد بهيجاً؟» فأجابه: «هذا مرعب يا سيدي» فقال له نابليون: «ياه!! تذكر ما قاله إمبراطور روماني: «رائحة جثة العدو رائحة زكية دائمًا»^(٣٢). وفي ١٨ أغسطس أرسل إمبراطور Moret وزير الشئون الخارجية تقريراً لرفع الروح المعنوية في باريس: «لقد استولينا على Smolensk سмолنسك ودون أن نخسر رجلاً واحداً»^(٣٣) لكن تقريراً آخر لمُؤرخ إنجليزي ذكر أن الفرنسيين خسروا في هذه المعركة ما بين ٨٠٠٠ و ٩٠٠٠ رجل أما الروس فخسروا ٦٠٠٠^(٣٤). وكان من الحال تعويض الخسارة الفرنسية (بقوات أخرى)، وتراجعت الجيوش الروسية إلى المدن. ومناطق تجمع المياه Pools المولالية للجيش الروسي حيث يمكن تجنيد مزيد من الرجال.

وفي ٢٠ يوليو - بعد أن استاء القيسar من خلافات جنرالاته وتكلّماتهم - قرر أن قواته المسلحة في حاجة إلى قيادة واحدة، فعين في منصب القائد العام ميخائيل إلارينوفيتش كوتوزوف Mikhail Ilarionovich Kutuzov (١٧٤٥ - ١٨١٣) الذي كان قد حقّق شهرة بسبب قيادته الناجحة في كثير من المعارك. لقد كان قد بلغ الثالثة والستين من عمره كسولاً قعيداً سميناً لدرجة أنه كان يتبع نقله إلى المعسكر أو ميدان المعركة في عربة، وكان قد فقد إحدى عينيه وكانت الأخرى معتلة وكان - شيئاً ما - داعراً، دبّاً مع النساء، لكنه كان قد تعلم في الحرب خلال خمسين عاماً من الممارسة الفعلية، واستاءت كل روسيا لهذا التعيين. لقد استاء كل الناس تقريباً من فيهم نابليون بسبب تجنبه المواجهة العسكرية وأمره

بمزيد من الانسحاب (أمره بالانسحاب إلى مناطق داخلية أبعد)

وعالج نابليون التوقف عن المطاردة بأن جعل من Smolensk مركزاً حصيناً في وسط روسيا وقضى الشتاء هناك وحافظ على خطوط مواصلات - تحييها قواته - مع غرب أوروبا، لكنه الآن قد وجد نفسه في موقف غير متوقع بالمرة: جيشه غير منضبط بسبب الانقسامات العرقية (لم يكن جميع أفراده من الفرنسيين). وانهيار النظام فيه حتى أنه - أي نابليون - وجد أكثر أماناً أن يواصل المسيرة حيث يؤدي الخوف من هجوم العدو إلى تماستك جيشه. لقد قال للجنرال سيباستيانi Sébastiani: «هذا الجيش لا يمكن أن يتوقف الآن.. فالحركة وحدها هي التي تجعله على قلب رجل واحد. إن المرء يمكنه أن يتقدم على رأسه، لكن دون توقف أو تراجع»^(٣٥) وعلى هذا فبعد منتصف ليلة ٢٥ أغسطس بقليل - أي بعد أسبوع واحد من الاستيلاء على المدينة - غادرها بجنوده في طريق حار ومترب إلى فيازما Viazma وجازهاتسك Gazhatsk... وموسكو - التي تبعد مسيرة ثلاثة أسابيع. وكان مورا Murat على رأس قوات الخيالة (الفرسان) قد راح يرفع الروح المعنوية لقواته بطيش مرح بأن راح - وقواته - يحاربون للخلف (يتراجعون) لمواجهة أي هجوم من مؤخرة الجيش الروسي المنسحب. وقد وصفه نابليون في وقت لاحق:

«إنه لا يكون شجاعاً إلا في حضور العدو، وفي هذه الحال تجده أشجع رجل في العالم. لقد أدت به شجاعته الطائشة (المتهورة) إلى وضع نفسه وسط الأخطار. لقد كان وقتها مُثقلًا بالذهب والريش فوق رأسه فبدأ كبرج الكنيسة. لقد نجا باستمرار - كما لو كان ذلك بفعل معجزة - لأنه كان معروفاً بلباسه. لقد كان هدفاً دائماً للعدو، واعتاد القوزاق الإعجاب به بسبب شجاعته المدهشة»^(٣٦).

وفي الخامس من سبتمبر، وبينما كان الجيش الفرنسي يقترب من بورودينو Borodino (لما زال هناك خمسة وسبعون ميلاً للوصول إلى موسكو) وصلت طليعة الجيش إلى قمة تل فرأوا في السهل أمامهم منظراً أبهجهم وأحزنهم: مئات من المخارق والخواجز الدفاعية المكتملة يمكن أن تختفي وراءها المدافع، وإلى الأبعد من السهل حيث يلتقي نهر كالاشا Kalacha وموسكفا Moskva آلاف الجنود. من الظاهر أن كوتوزوف Kutuzov قرر المواجهة.

وطوال السادس من سبتمبر ظل الجيشان يستعدان للمعركة. وفي هذا الليل البارد الرطب كان من الصعب أن ينام أحد. وفي الثانية صباحاً أرسل نابليون بياناً ليقرأ على جنوده، مصحوباً بترجمة إلى اللغات التي يتحدث بها جنوده غير الفرنسيين: «أيها الجنود! ها هي المعركة التي طال انتظاركم لها. الآن، النصر يعتمد عليكم إنه آتٍ لا ريب. إنه سيتيح لنا رخاء ومنتجعاً شتوياً طيباً وعودة باكرة إلى بلاد آبائنا وأجدادنا» (٣٧) وفي هذه الليلة – وبناء على أوامر كوتوزوف Kutuzov – حمل القسّيسُ المصاحبون للجيش الروسي أيقونة «العذراء السوداء Black Virgin» وطافوا بها في المعسكرات وكانت هذه الأيقونة قد تم إنقاذهما من حريق سمولنسك (الآن ذكره) وركع الجنود ورسموا شارة الصليب وتجاوبرا مع القسّيس وراحوا يدعون «الله رحيم» وانحنى كوتوزوف ليقبل الأيقونة (٣٨) .

وفي نحو هذا الوقت أتى حامل الرسائل لنابليون بخطاب من ماري لوبيز مع صورة جانبية حديثة لابنها البالغ من العمر عاماً واحداً، كما وصلت إليه أخبار مفادها أن جيشه عانى هزيمة عصيبة على يد ويلنجتون Wellington في سالامانكا Salamanca، وقضى نابليون جانباً كبيراً من الليل يصدر التوجيهات لضباطه فيما يتعلق بمتكتبات الصباح. ولابد أنه كان من الصعب عليه أن ينام لأن عسر البول كان يسبب له آلاماً، وكان لون بوله متغيراً بشكل ينذر بالخطر وكانت ساقاه متورمتين مع استسقاء وكان نبضه ضعيفاً غير محسوس بشكل متتابع (٣٩) .

ورغم هذا فقد أرهق ثلاثة خيول في اليوم الأول من المعركة إذ راح يتنقل من جانب إلى آخر في جيشه (٤٠) .

لقد كان نابليون يقود ١٣٠,٠٠٠ رجل مرهق، أما كوتوزوف فكان على رأس ١٢٠,٠٠٠، وكان مع الجيش الفرنسي ٥٨٧ مدفعاً بينما كان مع الروس ٦٤٠ . وطوال السابع من سبتمبر راحت هذه الألوف المؤلفة من الجيش تحارب بعناد وبطولة، يقتلون ويُقتلون وقد شملهم الخوف والكراهية، وكان كلاً الطرفين يحاربان ببطولة وكأنما كانوا يشعران أن مصير أوروبا سيتحدد بنتيجة المعركة. وضحى باجراتيون Bagration ب حياته، وفقد كولينكور في هذه الحرب التي سبق له أن عمل لمنعها أخيه الحبيب، وواجه يوجين

ودافو Davaut ومورا الموت مئات المرات، وفاز نَي Ney في ميدان المعركة من نابليون بلقب أمير موسكو Moskva هذا اللقب الأثير المغربي، لقد كان النصر عواناً بين الجانبين المتقاتلين وعندما حل الليل انسحب الروس بهدوء وظل الفرنسيون سادة الميدان لكن نابليون اعتبر النصر أبعد ما يكون عن أن يكون أكيداً. وأرسل كوتوزوف إلى إسكندر تقريراً فخوراً حتى إن كاتدرائيات سان بطرسبرج وموسكو قدّمت ابتهالات الشكر للرب. لقد فقد الفرنسيون ٣٠,٠٠٠ ما بين قتيل وجريح أما الروس فقدوا ٥٠,٠٠٠^(٤١).

وفي البداية، في ٨ سبتمبر فكر كوتوزوف في تجديد المعركة لكن عندما علم بعدد قتلاه وجرحاه شعر أنه لا يستطيع تعریض جنوده الباقين لمذبحة مماثلة ليوم آخر، فواصل سياسة التراجع ومن الآن فصاعداً سيواصل هذه السياسة حتى النهاية. وفي ١٣ سبتمبر أمر بإخلاء موسكو، وفي ١٤ من الشهر نفسه انطلق مهزوناً إلى حيث لا يدرى الخطوة التالية.

وفي هذا اليوم وصل نابليون ومن تبقى معه (٩٥,٠٠٠ مقاتل)^(٤٢) إلى بوابات موسكو بعد مسيرة ثلاثة وثمانين يوماً من كوفنو Kovno ووصلته رسالة من الجنرال ميلورادوفعش Miloradovich قائد حامية موسكو بوقف إطلاق النار في أثناء خروجه ورجاله من المدينة فوافق نابليون، وانتظر نابليون قدوم ذوي الحি�ثية في المدينة ليقدموا أنفسهم له ويطلبوا منه الحماية لكن أحداً منهم لم يأت. وعندما دخل المدينة (موسكو) لاحظ أن أحداً من ساكنيها لم يبق فيها «خلالآلاف قليلة من الطبقات الدنيا»^(٤٣). لقد بقي بعض البغایا طمعاً في الفرنکات وكن مستعدات لتقديم المطلوب مقابل المأوى والغذاء. وكان نابليون قد أحضر معه حملأً من أوراق البنکونت الروسية المزيفة ورفضها الروس فأحرقها نابليون^(٤٤). وحال المنتصرون في المدينة ونهبوا القصور ومزارع الريف المحيطة بالمدينة وحملوا النبيذ والأمتعة (خاصة الأعمال الفنية).

وكان مقدراً لهذه الأعمال الفنية أن تُفقد (بالبيع أو خلافه) عملاً إثر عمل، في أثناء طريق العودة.

وفي ١٥ سبتمبر تحرك نابليون إلى الكرملين وراح ينتظر أن يطلب إسكندر السلام. وفي المساء بدأت موسكو تخترق.

لقد «أعجب نابليون بجمال المدينة المهجورة إذ أخبر لاكاس Las Cases: «إنها من كل الزوايا يمكن مقارنتها بأي عاصمة أوروبية بل إنها تفوق في جمالها معظم هذه العواصم»^(٤٥). إنها أضخم مدن روسيا. إنها المدينة المقدسة أو العاصمة الروحية للروس، وبها ٣٤٠ كنيسة تزين السماء بقبابها الكبيرة. وقد نجت معظم هذه الكنائس من الحريق لأنها كانت مشيدة بالحجارة، أما المساكن فكان معظمها من الخشب. لقد دمرت النيران ١١,٠٠٠ منزل كان بعضها (٦,٠٠٠ منزل) من مواد مقاومة للنيران.

وقد شاهد الفرنسيون الداخلون للمدينة بعض هذه النيران فهربوا لإطفائها، لكن نيراناً أخرى سرعان ما كانت تشتعل، وانتشرت النيران بسرعة حتى أحالت ليل ١٥ سبتمبر إلى نهار ونبهت النيران خدم نابليون الذين كانوا يحرسونه في أثناء نومه، فأيقظوه، فأمر فرقة الإطفاء في جيشه بالعمل على إخمادها ثم عاد إلى سريره، وفي صباح ١٦ سبتمبر طلب يوجين مورا من نابليون مغادرة المدينة مخافة أن تُشتعل إحدى شارات الحريق مخازن البارود التي أقامها الجيش في الكرملين Kremlin فقاوم طلبهم كثيراً، لكنه رضخأخيراً وركب معهم خارجاً من المدينة تتبعه عربات محملة بالسجلات والمواد. وخدمت النيران في ١٨ سبتمبر بعد أن دمرت ثلثي موسكو، فعاد نابليون إلى الكرملين.

من كان مسؤولاً عن هذا الحريق؟ لقد كانت سلطات المدينة قبل مغادرتها قد أطلقت سراح المسجونين^(٤٦) وقد يكون هؤلاء هم الذين أشعلوا النيران في المدينة في أثناء نهبيهم لها، وربما كان بعض الفرنسيين غير مبالين في أثناء السلب والنهب مثلهم مثل السجناء المطلق سراحهم والأنف ذكرهم، فتنسبوا لهم أيضاً في إحداث حريق^(٤٧). ووصلت تقارير كثيرة لنابليون في ١٦ سبتمبر تُفيد أن حملة مشاعل كانوا منتشرين في موسكو وكانوا يُشعلون النار عمداً، فأمر بان من يُقبض عليه من هؤلاء المحرقين عمداً لابد من إطلاق النار عليه أو شنقه، وتم تنفيذ هذه الأوامر بالفعل. وتم القبض على أحد هؤلاء المحرقين - وكان رجلاً من الشرطة العسكرية الروسية - وهو يشعل النيران في برج الكرملين فدافع عن نفسه بأنه كان ينفذ الأوامر، فتم تحويله لمقابلة نابليون، وتم بعد ذلك قتله في الساحة^(٤٨). ودافع عدد

من الروس المقبوض عليهم بتهمة الإحراء عن أنفسهم بأنهم تلقوا أوامر بذلك من حاكم موسكو الذي غادرها، الكونت ر OSTOPCHIN (روستوبشين)^{٤٩}. وفي ٢٠ سبتمبر كتب نابليون إسكندر:

«لم يعد لمدينة موسكو الفخورة الجميلة وجود. لقد تسبب رOSTOPCHIN في إحراقها. لقد تم القبض على أربعينات من المحرقين عمداً وقد أقرروا جميعاً بأنهم تلقوا أوامر بذلك من الحاكم مدير الشرطة. وقد تم إطلاق النار عليهم. لقد دمرت ثلاثة أربع منازل. إنه عمل لا جدوى منه كما أنه عمل آثم شرير. هل المقصود حرماننا من المؤمن؟ إنها في مخازن لم تطلها النار. يال له من هدف تافه، أندمر من أجل هذا جهود قرون خلت وإحدى أجمل المدن في العالم! لا يمكنني أن أصدق هذا. وهذا يتفق مع مبادئكم ومشاعركم وأفكاركم عمما هو حق؟! وهذا الأسف جدير بحاكم عادل وأمة عظيمة؟».

لقد قمتُ بشن الحرب على عظمتكم دون أية مشاعر عدائية. لقد كان خطاب واحد منكم قبل هذه المعركة الأخيرة أو بعدها كفيل بإيقاف أي تقدم للجيش الفرنسي، بل لقد كنت قد تخليتُ راغباً عن احتلال موسكو، لو كنت عظمتكم مازلت تحظرون لي ببعض المشاعر التي كنت تكنونها لي سابقاً، لفسرتم هذا الخطاب تفسيراً حسناً. وعلى أية حال فإنه لا يمكنكم إلا الموافقة على أن ما ذكرته عن حرق موسكو صحيح»^{٥٠}.

ولم يحبه إسكندر، لكنه أجاب الضابط الروسي المكلف بإبلاغه خبر حرق موسكو إذ سأله عما إذا كان هذا الحدث (حرق موسكو) قد أثر في معنويات جيش كوتوزوف Kutuzov فكانت إجابة الضابط هو أن أخشى ما يخسونه أن يعقد القيسن اتفاق سلام مع نابليون. وقيل إن إسكندر أجابه قائلاً: «قل لرجالي الشجعان أنه عندما لا يبقى لدى إلا جندي واحد فسأضع نفسي على رأس نبلائي وفلادي لأقاتلهم. وإذا قدر القدر أن ينتهي حكم أسرتي فسأترك لحيتي تنمو حتى صدرني وسأتجه إلى سiberia لـأكل البطاطس، فهذا أفضل من إلحاد العار بوطني ورعايا الطيبين»^{٥١}.

ورحب الشعب الروسي بقراره لأن الاستيلاء على موسكو، وحرقها قد صدمهم وليس أعمق أعمق مشاعرهم الدينية. لقد كانوا يوقرون موسكو كحصن لعقيدتهم الدينية،

وكانوا ينظرون إلى نابليون كملحد عديم الضمير، واعتقدوا أن همجيته الوفادة هي التي أحرقت المدينة المقدسة. لقد اعتبروا إسكندر مذنباً لأنه قبل في وقت من الأوقات صدقة مثل هذا الرجل (نابليون)، وفي بعض الأوقات كانوا يخشون أن يستولي هذا الشيطان على سان بطرسبرج أيضاً ليذبح ملايين من الروس. وكان بعض البلاء يفضلون إبرام تسوية مع نابليون لإخراجه من روسيا مخافة أن يشير الأقنان (عبد الأرض) ويحرّرهم في أي وقت، لكن معظم المحيطين بإسكندر كانوا يحتّونه على المقاومة. وكان الأجانب المحيطون: ستاين Arndt، مدام دي ستيل De Stael، أرندت Stein ترکوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية – كانوا يرددون معه أنه مع تطور المعركة سيجد نفسه (أي إسكندر) ليس قائداً لبلاده فقط وإنما أيضاً زعيمًا لأوروبا والمسيحية والحضارة. ورفض إسكندر الإجابة عن ثلاث رسائل أرسلها له نابليون من موسكو عارضاً عليه السلام. ولما وجدت الأرستقراطية الروسية أن الأسابيع تمضي أسبوعاً بعد أسبوع دون أن يحرك نابليون ساكناً ودون مزيد من العمليات، بدأوا يفهمون حكمة كوتوزف Kutuzov في عدم التحرك، ووطّنوا أنفسهم على حرب طويلة، ومرةً أخرى راحت قصور العاصمة تتالق بالكونتيّسات اللاتي تزيّن ملابسهن المحوّرات، وبالضيّاط بحللهم الرسميّة الفخورة يتحرّكون بثقة راقصين على أنغام الموسيقا التي لم تشعر أبداً بالثورة.

وبعد أن خمدت النيران في موسكو أمر نابليون رجاله بالعناية بالجرحى أو المعدمين (الذين لا يجدون قوتاً) بصرف النظر عن أعراقهم^(٥٢)، واتخذ الترتيبات لخزن المؤن التي تركها المواطنون الروس أو استهلاكها على وفق نظام خاص. وكان نابليون يجib عن الرسائل والاستفسارات التي يحضرها حاملو الرسائل من بلاد رعایا، وقد راح يفخر في وقت لاحق بأنه طوال إقامته في موسكو لم يقع واحد من حاملي الرسائل – كانوا يصلون إليه يومياً – في أيدي الأعداء طوال مراحل الطريق^(٥٣). وأعاد نابليون تنظيم جيشه كما أعاد تجهيزه باللازم، وحاول أن يجعل جنوده في حالة قتالية جيدة بالمدامنة على التدريبات. لكن جنود الجيش الفرنسي ملأوا هذه العروض. لقد كانت الحفلات الموسيقية والمسرحيات يقدمها الموسيقيون الفرنسيون الذين كانوا مستقرين في موسكو (قبل الغزو الفرنسي)^(٥٤)،

ووجد نابليون الوقت الذي يجعله يصدر أمراً مفصلاً بإعادة تنظيم مسرح الكوميدي فرنسيز Comédie Française في باريس.

ومضى شهر ولم تصل لنابليون كلمة واحدة من إسكندر. وتذمر نابليون قائلاً: «إنني أضرب (أهزم) الروس كل يوم، لكن هذا لم يحدث لي في أي مكان»^(٥٥) سبتمبر بارد ويأتي بعده أكتوبر وسرعان ما يحل الشتاء الروسي. وأخيراً وبعد أن يغس من رد يأتيه من القيسير، أو تحد من كوتوزوف Kutuzov، وبعد أن تتحقق من أن كل يوم يمضي يكون موقفه فيه أسوأ - استسلم لقرار أشد مرارة: أن يعود بخفى حنين (خاوي الوفاض) أو ببعض الأشياء التذكارية القليلة.. لقد قرر العودة إلى سмолننسك، فثيلنا Vilna فوارسو (فرساها) ... وأخيراً ليصل إلى باريس. أي نصر هذا؟ أيمكن لمثل هذا النصر أن يُزيل عار الهزيمة؟!

٤- طريق العودة: ١٩ أكتوبر - ٢٨ نوفمبر ١٨١٢

لم يبق إلا أمل واحد. لقد كان كوتوزوف Kutuzov قد جمع مؤناً في كالوجا Kaluga إلى الجنوب الغربي من موسكو بتسعين ميلاً. وفك نابليون في التوجه إلى هناك وأن يجبر الجنرال الماكر للدفاع عن هذه المخازن، فإن انتصر الفرنسيون نصراً حاسماً فقد يُجبر النبلاء الروس القيسير إسكندر على التوصل لاتفاق سلام. وأكثر من هذا فإن كالوجا Kaluga كانت على طريق آخر مأود إلى سмолننسك غير الطريق الذي كان الغزاة قد أتوا منه، وفي اتخاذ هذا الطريق تجنب للذكريات الأليمة عند المرور ببورودينو Borodino حيث كان قد مات كثير من رفاق الحرب. وصدرت الأوامر بالاستعداد لإخلاء موسكو.

وعلى هذا ففي ١٩ أكتوبر بدأ جيش نابليون (٥٠,٠٠٠ جندي و ٥٠,٠٠٠ من غير المقاتلين) في الخروج من موسكو. وكانت عربات التحميل تحوي مؤناً لعشرين يوماً، وهو وقت يكفي للوصول إلى سмолننسك حيث صدرت الأوامر بتجهيز مؤن طازجة لهم فيها^(٥٦). وكانت هناك عربات أخرى تضم المرضى أو المجرحى وبعض الأشياء التذكارية الثقيلة وذهب نابليون المتناقص.

وفي مالورياروسلافتش Maloyarosalvets – على بعد خمسة وعشرين ميلاً من كالوجا Kaluga اتصل الفرنسيون اتصالاً مباشراً بجيش كوتوزوف، وأعقب ذلك حركة (عملية) حادة (٢٤ أكتوبر) مما أجبر الروس على الانسحاب خلف دفاعاتهم في كالوجا Kaluga . وقرر نابليون أن جيشه ليس مجهزاً لحصار طويل، فأمر رجاله – وهو كاره – باتخاذ طريقهم عبر بوروفسك Borovsk وموزهايسك Moshaisk إلى بورودينو Borodino، ولি�تخدوا بعد ذلك الطريق الذي كانوا قد اتباعوه في فصل الصيف حيث كانوا مفعمين بالأمل. وعلى أية حال فإن شيطان كوتوزوف قد جعله الآن يبحث جيشه على المسير في طريق مواز لطريق عدوه مراعياً – بشكل مراوغ – أن يكون بعيداً عن نظره عدوه، لكنه راح بين الحين والآخر يرسل فصائل من الفرسان القوزاق الأشداء لإزعاج جناحى الجيش الفرنسي وراح الفلاحون السعداء يطلقون النار على الفرنسيين المنتشرين في غير نظام والذين غامروا بالابتعاد عن خط سير الجيش البالغ ستين ميلاً^(٥٧) .

وكان نابليون محمياً بشكل جيد اللهم إلا من خطر طارئ.. وكان حاملاً الرسائل يجلبون إليه في أثناء مسيرته أخباراً عن نزاعات شديدة تهدّد حكومته في باريس وثورات في الأراضي (البلاد) التابعة له. وفي ٢٦ أكتوبر بعد خروجه من موسكو بأسبوع سأله كولينكور عما إذا كان يجب عليه (أي يجب على نابليون) أن يتجه مباشرةً إلى باريس ليواجه السخط الناجم عن هزيمته ويسقط عليه، وليقيم جيشاً جديداً للدفاع عن القوات الفرنسية التي تركها في بروسيا والنمسا، فنصحه كولينكور بالذهب^(٥٨) . وفي ٦ نوفمبر وصلت أخبار مفادها أن كلوド – فرانسوا دي ماليه de Malet – وهو جنرال في الجيش الفرنسي – قد أطاح بالحكومة الفرنسية في ٢٢ أكتوبر وأنه لقي دعماً من أشخاص بارزين لكنه خُلع وتم إطلاق النار عليه (٢٩ أكتوبر) فتأكد العزم لدى نابليون بضرورة التوجه إلى باريس .

وكلما أوغل الفرنسيون في طريق العودة كان الطقس يزداد سوءاً. لقد تساقط الثلج في ٢٩ أكتوبر وسرعان ما كونَ غطاء دائماً – جميلاً ومتيناً، وتحول في الليل البارد إلى جليد انزلقت فوقه الخيول التي تجر العربات وسقطت، وكان بعض هذه الخيول منهكًا بدرجة

استحال معها قيامها من جديد وكان لابد من تركها، ومع طول مسافة المسيرة راح الجنود يأكلون مثل هذه الضحايا (الخيول الساقطة أو الناقفة) لكن معظم الضباط حافظوا على حياة خيولهم برعايتها وتغطيتها. وكان الإمبراطور (نابليون) يركب بعض الوقت في عربته مع المارشال بيرثييه Berthier لكنه كان يسير مع الباقيين مرتين أو ثلاثة في اليوم أو أكثر من هذا على وفق رواية مينيفال Méneval^(٥٩).

وفي ١٣ نوفمبر بدأ الجيش الذي تقلص عدده الآن إلى رقم إجمالي هو ٥٠٠٠٠ - في دخول سмолنسك، وانتابهم الرعب عندما وجدوا أن معظم الطعام والكساء الذي كان نابليون قد أمر بتجهيزهما قد فقدا نتيجة غارات القوزاق والاحتلال، ومن ثم تم عرض ألف ثور مخصصة للجيش لبيعها للتجار الذين قاموا بدورهم بعرضها على أي مشترٍ^(٦٠)، وحارب الجنود للحصول على ما تبقى من التموينات واستولوا بالقوة على كل ما وجدوه في الأسواق.

وكان نابليون راغباً في إتاحة فترة راحة طويلة لجنوده في سмолنسك لكن أخباراً وصلته باقتراب كوتوزوف على رأس ٨٠٠٠٠ روسي لم يعودوا راغبين - بعد - في الانسحاب، ولم يكن مع نابليون من الصالحين للقتال سوى ٢٥,٠٠٠^(٦١). وفي ٤ نوفمبر قاد جزءاً من قواته في الطريق إلى كراسنوي Krasnoe مستخدماً طريقاً إلى فيلنا Vilna غير الطريق الذي سبق له استخدامه في الصيف. وكان على دافو Davout أن يتبعه في ١٥ نوفمبر، وني Ney في ١٦ من الشهر نفسه. وكان الطريق جبلياً ومحفظاً بالجليد، ولم تكن الخيول ذات حذوات (جمع حدوة) تتمكنها من التقدم في هذا الشتاء الروسي فانزلجت فوق التلال وفشلت كل الجهد لإقامة مئات منها، وفضلت الموت باعتباره رحمة في ظل هذه الظروف بل إن رجالاً كثيرين فضلوا هذا الحل تخلصاً من المتاعب. وذكر جندي بعد ذلك أنه «طوال الطريق كنا مضطرين للخطو فوق ميت أو محترض»^(٦٢) فعند المنحدرات الجليدية لهذه التلال لم يكن أحد يجرؤ على الركوب أو السير على قدميه، فالجميع من فيهم الإمبراطور (نابليون) كان يتزلج وهو جالس، كما سبق لقلة منهم أن فعلت عند عبور جبال الألب إلى مارنغو Marengo منذ اثنين عشرة سنة خلت. لقد كانت أياماً تعادل سنوات من عمر

القائد ورجاله . ويبدو أنه عند هذه النقطة حثّ نابليون الدكتور يفان Yvan على أن يعطيه قيّينة سُم يحتفظ بها معه ليستخدم سُمّها إذا أسره العدو أو لأي سبب آخر يجعله يود إنتهاء حياته .

ووصل الفرنسيون كراسنو Krasnoe في ١٥ نوفمبر لكنهم لم يستطعوا أن ينالوا قسطاً من الراحة ، فقد كان كوتوزوف Kutuzov يقترب بقواته يفوق عددها قوات نابليون بشكل كبير ، فأمر نابليون رجاله بمواصلة الطريق إلى أورشا Orsha ، وقاد يوجين المسيرة ليحارب بين الحين والحين العصابات المسلحة التي تعترض الطريق ، وتبعه الإمبراطور (نابليون) ودافر Davout . ووصلوا أورشا Orsha بعد ثلاثة أيام أخرى من المشي على الجليد ، وانتظروا هناك بقلق وصول ني Ney بالجزء الثالث من القوات الفرنسية .

وكان ني Ney هو نجم الجيش المتألق في هذا الوقت ، كما كان في بورودينو Borodino لقد قاد رجاله البالغ عددهم ٧٠٠٠ رجل باعتباره حارساً مؤخراً للجيش الفرنسي ، وخاض اثنيني عشرة معركة لحماية الجيش الفرنسي في أثناء انسحابه من هجوم المغیرين من رجال كوتوزوف ، ودخل هو ورجاله سمولنسك أخيراً في ١٥ نوفمبر وصدموا لاكتشافهم قلة الطعام الذي تركه نابليون وديفو عند مغادرة المدينة ، فاسرع بروجاله رغبة في البقاء على قيد الحياة إلى كراسنو Krasnoe ، فلم يجدوا نابليون كما سبق أن وعدهم وإنما وجدوا كوتوزوف الذي سد طريقهم بنيران مدعيته المهلكة ، وفي جُنح الليل (١٨ - ١٩ نوفمبر) قاد ني Ney جنوده على طول مجاري متجمد إلى نهر دنيبر Dnieper وعبره وتکبد في أثناء عبوره خسارة في بعض رجاله وخاليه وراح يحارب في أثناء مسیرته القوزاق كما حاربهم فوق المستنقعات المتجمدة ليصل إلى أورشا Orsha في ٢٠ نوفمبر ، وهنالك رحب نابليون والجيشان المنتظران بالأبطال الجائعين بالمدحع وبالطعام . وعائق نابليون جنراًه ني Ney وأطلق عليه (اشجع الشجعان) وفي وقت لاحق قال نابليون : «إن لدى أربعين مليون قطعة ذهبية في أقبية التوليري ، ويسعدني أن أعطيها جميعاً لمن يمكنني من رؤية المارشال ني Ney مرة أخرى» (٦٣) .

وليُبعد الفرنسيون عنهم جموع كوتوزوف الأبطال ، أسرعوا طوال أربعة أيام ليواجهوا

العقبة التالية – نهر بيريزينا Berezina. وعندما وصلوه (٢٥ نوفمبر) وجدوا أن الجنرال الروسي شيخاجوف Chichagov كان قد وصل من الجنوب على رأس ٢٤,٠٠٠ مقاتل كما علموا أن قوة روسية أخرى مؤلفة من ٣٤,٠٠٠ من الجنود الأشداء بقيادة المارشال لودفيج ويتجنشتين Wittgenstein كانت تسرع قادمة من الشمال لحصار الفرنسيين بين نارين عندما يكونون – أي الفرنسيون – في حالة فوضى في الأساس قائدتهم من إنقاذهم من الدمار.

لكن الأخبار لم تكن كلها سيئة إذ سرعان ما علم نابليون أن قوتين مواليتين له قد هبتا لنجده. فرقة عسكرية بولندية بقيادة الجنرال جان هنريك دومبروفسكي Dombrowski استطاعت – رغم أن عدد جنودها ثلث قوات شيخاجوف Chichagov – مواجهة هذه القوات وتأخير التقدم الروسي، وفي ٢٣ نوفمبر فاجأت قوات فرنسية من ٨٠٠٠ رجل بقيادة المارشال أودينو Oudinot – الجنرال الروسي شيخاجوف واستولت على إحدى كتائبه وأجبروا الباقين على الفرار عبر جسر على بوريسوف Borisov ناحية الشاطئ الأيمن (الغربي) لنهر بيريزينا Berezina. وعلى أية حال فقد حطم الروس الجسر وهو الجسر الوحيد الذي يمكن بواسطته اجتياز النهر في هذا الموقع.

ووصلت أخبار هذه العمليات إلى نابليون بينما جيشه الخائف يقترب من المجرى الذي يأملون أن يؤخر ملاحقة كوتوزوف Kutuzov لهم (كانت قوات نابليون الآن ٢٥,٠٠٠ جندي و ٢٤,٠٠٠ من غير المقاتلين) كما كان نابليون قد فقد أيضاً عدداً من رجاله هربوا أو مرضوا أو ماتوا. لم يبق معه سوى ٢٧,٠٠٠ من ٩٧,٠٠٠ كانوا معه عند خروجه من كالوجا، والآن بقي أربعون ميلاً خلف مؤخرة جيش نابليون. لازال هناك وقت لعبور النهر إذا كان من الممكن عبوره.

واستعاد نابليون الأمل فأرسل فصيلاً بقيادة المارشال فيكتور Victor للاتجاه شماليًا وإيقاف ويتجنشتين Wittgenstein وفصيلاً آخر بقيادة ني Ney للانضمام إلى أودينو Oudinot في منع شيخاجوف من معاودة عبور النهر. وكان نابليون منذ عبور النيل Niemen قد احتفظ معه بالمهندسين الذين كانوا قد أقاموا الجسور هناك في شهر يونيو، والآن طلب منهم أن يجدوا بقعة على نهر بيريزينا يمكن أن يقيموا عليها جسرين طوافين، فأخبروه

بوجود هذه البعثة المناسبة في ستدنكي Studenki إلى الشمال من بوريسيوف Borisov بمسافة أميال . وراح المهندسون ومساعدوهم يعملون طوال يومين في مياه متجمدة ، وغرق عدد منهم بسب انخداعهم بالجليد الطافي فوق مياه غير متجمدة ، لكن في الساعة الواحدة بعد الظهر في ٢٦ نوفمبر اكتمل إنشاء أحد الجسرين وبدأ الجيش في العبور فوقه ، وبحلول الساعة الرابعة كان الجسر الثاني يحمل فوقه المدفعية والأحمال الثقيلة ، وانتظر نابليون وجنرالاته حتى وصل معظم الجنود للشاطئ الغربي ومن ثم عبروا تاركين قوة بقيادة فيكتور Victor لحماية نحو ٨٠٠٠ من غير المقاتلين سيعبرون بعد ذلك . وقبل تمام نجاح هذه العملية الأخيرة خطط الروس لهجوم على طول جانبي النهر لكن قوات فيكتور وأودينو Oudinot وني Ney تصدت لهم . لقد راح نابليون ينظم العبور والمقاومة في آن واحد وسط آلاف الرجال الذين يناضلون ليبقوا على قيد الحياة . وانكسر الجسر مرتين ، وغرق مئات وفي هذه الأثناء كانت مدفعية ويتجنشتاين تطر قذائف على الآلاف الأخيرة التي تزاحمت للعبور ، وفي ٢٩ نوفمبر أمر نابليون المهندسين العسكريين بتدمير الجسرين ، تاركاً مئات من غير المقاتلين يبحثون عن فرصة للعبور . وكان هدف نابليون من تدمير الجسرين تعويق قوات ويتجنشتاين عن ملاحقة ومنع وصول قوات كوتوزوف . وباختصار كان عبور بيريزينا Berezina هو أكثر ذری البطولة طوال ستة أشهر أساء فيها أحد أعظم الجنرالات في التاريخ – تقدير الأمور على حقيقتها .

واستمرت المأساة طوال مسيرة من بقي على قيد الحياة من الجنود الفرنسيين نحو الغرب ، لقد هبطت درجة الحرارة ثانية إلى ما دون درجة التجمد ، لكن كان لهذا ميزة واحدة إذ سمح بالانتقال فوق المستنقعات المتجمدة فقصر المسافة إلى فيلنا Vilna . ولأن الخوف من القوزاق والفلاحين المعادين قل ، فقد تضاعف عدد الهاربين واحتفى النظام .

ورأى نابليون أن من تبقى معه لم يعودوا في حاجة ماسة له ، فوافق على نصيحة مورا Murat بالعودة إلى باريس مخافة أن تستسلم فرنسا لثورة أخرى ، وعند توقفه في مولودشنو Molodechno وهي محطة التوقف الرئيسية التالية تلقى مزيداً من التفاصيل عن أمور مال Malet . لقد انتهى هذا المغتصب لكن السهولة التي خدع بها المسؤولين دلت على استرخاء

الحكومة التي لم تعد مؤمنة بنابليون الذي غاب غياباً طويلاً وربما انتهت حياته السياسية بل وربما مات. لقد راح اليعاقبة والملكيون، فوشيه وتاليران يتآمرون لخلعه.

وكي يعيده ترسيخ نفسه ويعث اليقين في الشعب الفرنسي من جديد أرسل من سمورجوني Smorgonie في ٥ ديسمبر النشرة رقم ٢٩ التي كانت تختلف عن سابقاتها إذ كان غالباً يحوي حقائق صادقة. تقول النشرة إن الفرنسيين قد انتصروا في كل معركة واستولوا على كل مدينة مروا بها وحكموا موسكو إلا أن قسوة الشتاء الروسي التي لا ترحم قد دمرت هذا المشروع العظيم وألحت الألم والموت بال الفرنسيين المتحضرين الذين اعتادوا العيش في مناخ متحضر. وأشارت النشرة إلى خسارة في الرجال بلغت ٥٠٠٠٠ لكنها أشارت بفخر لقصة تخلص نبي Ney من ملاحقة كوتوزوف وقدّمت عبور نهر بيريزينا من جانبها البطولي لا المأسوي وانتهت النشرة بعبارة ذات مغزى وكأنها تحذير لأعداء نابليون: «إن صحة عظمته لم تكن في يوم من الأيام أفضل مما هي عليه الآن». ومع هذا فقد كان هو متزعجاً. لقد قال لكونينكور «إنني استطيع أن أحكم قبضتي على أوربا من التوليري وحده»^(٦٤) واتفق معه يوجين ومورا Murat وداڤو Davout. ونقل قيادة الجيش المتحرك إلى الملك مورا وأخبره أن يتوقع مؤناً وتعزيزات من فيلنا Vilna. وفي وقت متاخر من مساء الخامس من ديسمبر غادر (أي نابليون) سمورجوني Smorgonie قاصداً باريس.

لقد تقلّصت القافلة إلى ٣٥,٠٠٠ وغادرت في اليوم التالي قاصدة فيلنا التي تبعد ستة وأربعين ميلاً. الآن انخفضت الحرارة إلى ٣٠ درجة فهزمت تحت الصفر وكانت الرياح على حد تعبير جندي يقى على قيد الحياة تمرق اللحم والعظم^(٦٥). وعندما وصلوا إلى فيلنا (٨ ديسمبر) اندفع الجنود الجياع في فوضى لا حد لها نحو المؤن التي تنتظرهم وضاع طعام كثير وسط الفوضى. وواصلوا مسيرتهم وفي ١٣ ديسمبر وعند كوفنو Kovno عبروا نهر النيم نفسه وكان عددهم ٣٠,٠٠٠، بينما شهدتهم النهر وقد بلغ عددهم ٤٠٠,٠٠٠ يعبرون في شهر يوني، هنا وعند تيلسيت وعند بوزن Posen سلم مورا القيادة ليوجين (١٦ يناير ١٨١٣) خائفاً - هو بدوره - على عرشه وأسرع عبر أوربا إلى نابلي. أما يوجين البالغ من العمر ثلاثين عاماً فكان ذا خبرة رغم شبابه، فتولى مسؤولية ما تبقى من الجنود وقادهم

بصير يوماً بعد يوم إلى ضفاف نهر الألب Elbe وراح ينتظر لوامر متبنية (نابليون). ركب نابليون من سمورجوني Smorgonie في أول عربة من عربات ثلاث، وكانت كل عربة منها موضوعة على مركبة جليد يجرها حصانان، وكانت إحدى العربات تحمل أصدقاء الإمبراطور ومساعديه وأخرى تحمل حرساً بولندياً من حملة الرماح. لقد ركب نابليون مع Wonsowicz كولينكور الذي كان ينظم مسألة تبديل الخييل، ومع الجنرال فونسوفيتش المترجم الذي عهد إليه نابليون بمسؤليته قائلاً: «إن حدث خطير حقيقي أقتلني ولا تجعل العدو يأسري»^(٦٦) ومخافة أن يتعرض للاعتيال أو الأسر، تذكر في لباس كولينكور، بينما ارتدى كولينكور ملابس نابليون. وقد تذكر كولينكور في وقت لاحق ما حدث، إذ قال: «في أثناء مرورنا ببولندا، كنت أنا دائماً المسافر المميز، وكان الإمبراطور - ببساطة - هو سكرتير»^(٦٧).

لقد واصل الركب طريقه إلى باريس دون توقف ليلاً أو نهاراً، وكانت أطول فترة توقف فيها نابليون ومن معه هي فترة التوقف في وارسو (فرسافا) حيث أدهش نابليون الممثل الفرنسي في بولندا بقوله الذي صار مثلاً: «بين الذروة والقاع خطوة واحدة»^(٦٨). وأشار أن يقوم بزيارة أخرى للكونتيسة فالفسكا Walewska لكن كولينكور نصحه بالعدول عن هذه الزيارة^(٦٩)، ربما بذكيره أن حماه هو أيضاً إمبراطور. وفي أثناء الركوب من وارسو إلى دريسدن راح الإمبراطور (نابليون) فيما يقول كولينكور «يتدحر الإمبراطورة ماري لويس باستمرار متحدثاً عن حياته الأسرية بمشاعر طيبة وبساطة يسعد المرء بسماعها».

وفي دريسدن أراح نابليون وكولينكور مركبة الجليد والحرس البولندي، وانتقلوا إلى عربة السفير الفرنسي المغلقة. ووصلوا إلى باريس في وقت متأخر من يوم ١٨ ديسمبر بعد ثلاثة عشر يوماً من سفر كاد يكون بلا توقف. وذهب نابليون مباشرة إلى قصر التوليري وعرف حرس القصر بنفسه وأرسل يعلم زوجته بوصوله وقبل منتصف الليل تماماً «اندفع إلى غرفة نوم الإمبراطورة وضمها بين ذراعيه»^(٧٠). وأرسل حامل الرسائل إلى جوزفين يطمئنها أن ابنها بخير وأدفأ قلبه بنظرة إلى ابنه ذي الشعر الجعد الذي كان قد أسماه «ملك روما».

الفهمل (السّادس والثّلثانُوَهُ)

إِلَيْ إِلَيْ

[١٨١٣ - ١٨١٤]

١- إلى برلين

بدت أوروبا كُلُّها متوتّرة تعودُ القَهْقُرِي إِلَى انقسَامَاتِ القرن الثامن عشر، ونابليون يندفعُ فوق ثلوجها وعبر مدنها ليَدْعُم عرشه المهترَّ، فقد أَصْبَحَت كُلُّ التَّخُوم (الحدود) الْقَدِيمَة صدُوعاً في قصرٍ غَيْرِ قَائِمٍ عَلَى أَسَاسٍ وَنَعْنَى بِالْحُكْمِ الْأَجْنبِيِّ. لَقَدْ رَاحَ أَهْلُ مِيلَان يتَفَجَّعُونَ عَلَى أَبْنَائِهِمُ الَّذِينَ اسْتَدَعَاهُمْ نَابِلِيُّونَ لِلْخَدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ فِي جِيشِهِ لِغَزْوِ رُوسِيَا، وَلَمْ يَعُودُوا أَبْدَأُ، فَرَاحُوا (أَيْ أَهْلِ مِيلَان) يَعْمَلُونَ خَلْعَ يَوْجِينِ الْلَّطَيْفِ النَّاثِبِ الْغَائِبِ لِلْمَلِكِ غَائِبٍ. وَأَهْلُ رُومَا الْمُغْرِمُونَ بِالْبَابَا الصَّبُورِ الَّذِي كَانَ لَا يَرَالِ يَتَعَرَّضُ لِلْإِهَانَةِ أَسِيرًا فِي فُونْتَينِيُّبُلُو (Fontainebleau)، رَاحُوا يَدْعُونَ لِعُودَتِهِ إِلَى كَرْسِيِّ الرَّسُولِيِّ (الْمَقْصُودُ الْبَابَاوِيُّ أَيْ كَرْسِيِّ الدُّعَاءِ الْأَوَّلِ لِلْمُسِيَّحِيَّةِ).

وَرَاحَ أَهْلُ نَابِلِيِّ وَأَمْرَأَهَا يَنْتَظِرُونَ الْلَّحْظَةَ الَّتِي يَسْقُطُ فِيهَا مُورَا Murat المُنْكَفِيُّ عَلَى ذَاتِهِ مُخْلِيًّا الطَّرِيقَ أَمَامَ الْبُورِيُّونَ الشَّرِيعِيُّينَ الْمُسَوْحِينَ بِالْبَزِيْتِ (أَيْ الْمَكْرَسِينَ الَّذِينَ اعْتَدَمُتْهُمُ الْكَنْيَسَةُ)؛ أَمَّا النَّمْسَا - وَقَدْ مَزَقَتْهَا الْحَرْبُ - وَتَعَرَّضَتْ لِلْإِهَانَةِ بِسَبِيلِ سَلَامٍ مَفْرُوضٍ عَلَيْهَا - فَرَاحَتْ تَنْتَظِرُ تَوَافِقَ إِلَى مِيتَرِنِيُّخَ كَيْ يَحْرُرَهَا بِشَيْءٍ مِنْ بِرَاعَتِهِ الدِّبْلُومَاسِيَّةِ مِنْ تَحَالُفٍ مَفْرُوضٍ عَلَيْهَا مَعَ عَدُوِّهَا التَّقْلِيْدِيِّ (فَرْنَسَا). أَمَّا دُولَ كُونْفِدِرَالِيَّةِ الرَّأْيَيْنِ عَلَى طَوْلِ نَهْرِ الرَّأْيَيْنِ فَرَاحَتْ تَحْلِمُ بِالْأَزْدَهَارِ الَّذِي لَا يَكُونُ بِتَسْلِيمِ أَبْنَائِهِمُ لِلْعَبْقَرِيِّ الْأَجْنبِيِّ صَعْبَ المَرَاسِ. أَمَّا بِرُوسِيَا فَقَدْ تَمَّ تَجْرِيَدُهَا مِنْ نَصْفِ الْمَنَاطِقِ التَّابِعَةِ لَهَا (جَرِيَ تَقْلِيسِ حَدُودِهَا إِلَى النَّصْفِ) وَمِنْ نَصْفِ مَوَارِدِهَا، وَتَمَّ هَذَا عَلَى يَدِ عَدُوِّهَا الْقَدِيمِ وَالَّتِي أَصْبَحَتْ (أَيْ بِرُوسِيَا) الْآنَ حَلِيفَتِهِ عَلَى غَيْرِ رَغْبَتِهِ. إِنَّهَا الْآنَ تَرَى عَدُوِّهَا (نَاهِبَهَا) وَقَدْ مَزَقَتْهُ كَارَثَةً مَرْوِعَةً: لَقَدْ حَانَتِ الْفَرَصَةُ - أَخْيَرًا - وَالَّتِي طَالَمَا تَمَنُّوهَا. إِنَّهَا الْآنَ تَتَذَكَّرُ دُعَوَةَ فِيشَتِهِ Fichte وَهِيَ الْآنَ تُصْبِغُ السَّمْعَ إِلَى مَنَاسِدَةِ شَتَّاين Stein الْمَنْفِيِّ، لَطْرَدَ هُؤُلَاءِ الْجَنُودِ

الفرنسيين الذي يَعْسُون بينهم وهؤلاء الجامعين لتعويضات الحرب الذين يستنزفونهم، وليهبوا أقوياءً أحراراً كما كانوا في ظل فريدريك ولি�صبحوا حصنًا للحرية الألمانية. وكان يمكن خلف هذا الامتعاض والتمرد ذي الأصول المشتركة، الأخبار المدهشة التي مفادها أنَّ روسيا لم تهزم فحسب جيش هذا الكورسيكي الذي كان من المفترض أنه لا يُهزم، ولم تطرد - فحسب - الجيش الفرنسي من فوق التراب الروسي، وإنما كانت تتعقبه عبر الحدود إلى دوقية وارسو (فرسافا) الكبيرة، وكانت (أي روسيا) تدعى قلب أوروبا لانضمام إليها في حرب مقدسة للإطاحة بالمتّصّب (نابليون) الذي جعل من فرنسا مركزاً لطغيانه في القارة الأوروبية.

وفي ١٨ ديسمبر سنة ١٨١٢ (وهو اليوم الذي وصل فيه نابليون المهزوم إلى باريس) غادر إسكندر سان بطرسبرغ. وفي الثالث والعشرين من الشهر نفسه وصل إلى فيلينا Vilna وشارك كوتوزوف وجيشه الاحتفال بالنصر. لقد كان هذا الجيش قد عانى كثيراً خلال مسيرته لِإِزْعَاجِ الفرنسيين المغادرين لبلاده. لقد مات مائة ألف وجُرِحَ خمسون ألفاً، وهرب أو فُقد خمسون ألفاً^(١). وامتدح إسكندر جنراله علينا، لكنه تشكيك في قيادته في مجالسه الخاصة، لقد قال للسير روبرت ويلسون Robert Wilson (إنْ جاز لنا أن نصدق السير روبرت): «كل ما فعله ضدَّ العدو أنه كان يُقاد (بضم اليماء) بحكم الظروف. لقد انتصر رغم أنفه.. إنني لن أترك الجيش مرة أخرى لأنني لا أريد أن يتعرض لأخطر مثال هذه القيادة»^(٢). ومع هذا فقد منع المقاتل المرهق أعلى الأوسمة العسكرية الروسية: وسام الصليب الكبير لجماعة Order القديس جورج (العسكرية).

وكان إسكندر - بسبب تحقق نبوءته - مقتنعاً بأنه - بشكل أو آخر - ملهم من السماء، فلم يأنس لتردد جنراله، وتولى القيادة العليا لجيوشه المتحدة بنفسه، وأصدر الأوامر لها بالتوجه إلى الحدود الغربية. وتحاشى المرور بكونوفو Konovo (لأنها كانت مواجهة لبولندا التي كانت لا تزال مُعادية)، وواصل طريقه على طول نهر النيم Niemen إلى تورجن Jahann Yorck Von Tauroggen حيث كان الجنرال جوهان (يوهان) يورك فون فارتبورج Wartenburg على رأس قوة بروسية فسمح للروس بعبور النهر إلى بروسيا الشرقية (٣٠

ديسمبر ١٨١٢) وحث شتاين Stein الذي كان مرافقاً لإسكندر منذ خروجه من سان بطرسبورج - حثه على التقدم في المناطق التي يتوقع أن يرحب به فيها شعب بروسيا. وأعلن القيصر العفو العام عن كل البروس الذين سبق أن حاربوه ودعا ملك بروسيا وشعبها للانضمام إليه في حربه المقدسة in his Crusads. وكان فريدرريك وليام الثالث مُرْفَقاً بين التسر Eagle الفرنسي والدب Bear الروسي فرفض امتداح تصرف يورك York وانسحب من برلين إلى بريسلو (بريسلاو Breslau). وتقىد إسكندر عبر بروسيا الشرقية وراح الناس يحيونه صائحين: «إسكندر طوبل العُمر! حياة مديدة للقوزاق»^(٣).

وعندما اقترب من المناطق الحدودية بين بروسيا الشرقية وبولندا، أرسل رسالة للزعيم البولنديين يعدهم بالعفو العام وبدستور وهملكة على رأسها قيسار روسيا. وبناء على تفاهم سري - فيما يبدو - بين روسيا والمسا قام الأمير كارل فيليب فون شفارتسنبرج Von Schwarzenberg قائد الحامية النمساوية في وارسو (فرسافا) بالانسحاب مع جنوده إلى غاليسيا (جاليسيا Galicia)، وأقبل المسؤولون البولنديون للترحيب بإسكندر، وفي ٧ فبراير ١٨١٣ دخل العاصمة دون مقاومة. وهكذا ماتت «دوقيه وارسو الكبيرة» موتاً مبكراً وأصبحت بولندا كلها تابعة لروسيا. وكانت بروسيا تأمل في استعادة جزء بولندا الذي كان ضمن ممتلكاتها في سنة ١٧٩٥، فسارع إسكندر بالتأكيد لفريدرريك وليام أنه سرعان ما ستوجد تسوية مقبولة لنصيبه المفقود (في بولندا)، وفي هذه الأثناء راح إسكندر مرة أخرى يحث ملك بروسيا وشعبها للانضمام إليه ضد نابليون.

وكان البروس قد طال انتظارهم لهذه الدعوة (مواجهة نابليون) فقد كانوا شعباً معتزاً بنفسه لا يزال يتذكر فريدرريك. وما ألق الروح الوطنية لدى البروس وعمقها هذا التوسيع الفرنسي السريع، وقيام إسبانيا بانتفاضة ناجحة. وكانت الطبقات الوسطى متحمسة في الاعراض على الحصار القاري (الذي فرضه نابليون) كما كانت معترضة على الضرائب المرتفعة المفروضة لدفع تعويضات الحرب للفرنسيين. وكان مسيحيو بروسيا مغربين بكل نائسهم غيورين على عقيدتهم، وكانت كل الطوائف المسيحية لا تثق في نابليون وتعتبره ملحداً يحفي إلحاده (المقصود عدم إيمانه باللاهوت المسيحي). وانفقت الفرق

المسيحية جمِيعاً على إدانة معاملته السيئة للبابا. ودعا اتحاد الفضيلة (التورجبوند Tugenbund) كلَّ الالمان أن يهبو جمِيعاً للدفاع عن بلاد آبائهم وأجدادهم Vaterland وسمح الملك البروسي لوزرائه بإعادة بناء الجيش البروسي وزيادة عدده تحت غطاء الدفاع عن بروسيا ضد الغزو الروسي. وكان الروس قد استولوا على ماريينبورج Marienburg في ينابير، وفي 11 مارس توجهوا - دون أن يلقوا مقاومة - إلى برلين.

وأصدر الملك البروسي المحب للسلام قراراً فُرِض عليه من بريسلو (بريسلاو Breslau) : نداء إلى شعبي Volk mein An في 17 مارس ينادهم فيه أن يهبو حاملين أسلحتهم لمواجهة نابليون :

«... يا أهل براندنبورج! أيها البروس، يا أهل سيليزيا، يا أهل بوميرانيا، يا أهل ليتوانيا! أنتم تعلمون ما تحملتموه طوال سبع سنين! أنتم تعلمون القدر التَّعس الذي ينتظركم إذا لم تُنهِ هذه الحرب نهاية مُشرفة. فكروا في أيامكم الخوالي - أيام الناخب الأعظم Great Elector فريدرיך العظيم! تذَكَّروا البركات التي حارب من أجلها آباءكم وأجدادكم تحت قيادتهم والتي بذلوا من أجلها دماءهم - حرية الشعور، والفخر بالوطن والاستقلال والتجارة والصناعة والتعليم. انظروا إلى النموذج العظيم لخلفائنا الأقوياء الروس، انظروا إلى الإسبان والبرتغاليين. اشهدوا السويسري البطل، وشعب الأرضي المنخفضة...».

إنها المعركة النهائية والخاسمة التي يعتمد عليها استقلالنا ورخاؤنا ووجودنا. ليس أمامنا بديل آخر إِما سلام مشرف وإِما نهاية بطولية... إنَّ الرب، وتصميمنا على هدفنا سيكونان عوناً لنا فنتتصر قصيتنا، وبانتصارها يتحقق السلام المؤكَّد العظيم وتعود أيامنا أكثر سعادة».

وهبَّت كل الطبقات استجابةً لدعوة الملك، فأعلن رجال الدين - خاصة البروتستنط - الحرب المقدسة ضد الكافر (نابليون). وصرف المعلمون - ومنهم فيشته وشلير ماشر - طلبتهم قائلين لهم إنَّ الوقت ليس وقت دراسة بل وقت عمل. وظل هيجيل «فوق» المعركة لكن جوته بارك أحد الأفواج العسكرية التي حيَّته في أثناء مرورها⁽⁴⁾. وعبر الشعراء - مثل شنكندروف Schenkendorf وأولاند Uhland - عن مشاعر الملك Ruckert

والشعب بأشعارهم، أو نحوا أقلامهم جانباً وامتشقوا الحسام أو حملوا البنادقيات، ومات بعضهم - مثل ثيودور كورنر Korner - في المعركة. وعاون إرنست موريتز أرندت Ernst Moritz Arndt - الذي عاد من منفاه في روسيا - في رفع الروح المعنوية الألمانية وصياغتها بقصيدة (أتلك ألمانيا أرض الآباء؟!). وفي «حرب التحرير» هذه ولدت ألمانيا جديدة. وعلى أية حال فما من أمة يمكنها أن تعتمد على المتطوعين عندما يكون وجودها في خطر وعلى هذا فقد أمر فريدريك الثالث بالتجنيد الإلزامي لكل الذكور ما بين السابعة عشرة والأربعين، مع عدم قبول أي بديل (بمعنى عدم قبول تطوع شخص بدلأ عن الآخر) وكان هذا في اليوم نفسه الذي ناشد فيه شعبه القتال لتحرير البلاد. وعندما بدأ ربيع سنة ١٨١٣ كان لدى بروسيا ٦٠,٠٠٠ رجل مدرّب ومستعد للخدمة العسكرية. ومن بين الجيوش المختلفة التي كانت قد أتت من روسيا، كان هناك ٥٠,٠٠٠ رجل صالحين للقتال. وبهؤلاء الجنود البالغ عددهم ١١٠,٠٠٠^(١) دخل إسكندر وفريدريك وليم المعركة التي كان عليها أن تقرر مصير نابليون وتكون أوروبا.

وقد تحققا من أن هذا العدد قد لا يكون كافياً فراحوا يبحثان عن حلفاء يمكنهم المساهمة بالرجال والأموال. وظلت التمسا لفترة على إخلاصها لتحالفها مع فرنسا فقد كانت تخشى أن تكون أول من يتعرض لهجوم نابليون إن هي انضمت إلى الحلف الجديد، وتذكر فرنسيس الثاني أن له أختاً في التاج الفرنسي. وكان الأمير بيرنادوت Bernadotte قد وعد إسكندر بتقديم ٣٠,٠٠٠ جندي له^(٢) لكنه شغل معظمهم بفتح النرويج. أما إنجلترا فتعهدت بتقديم مليوني جنيه إسترليني لدعم هذه المعركة الجديدة بنهایة شهر أبريل، وفتحت بروسيا موانئها للبضائع البريطانية وسرعان ما وصلت هذه البضائع بكميات كبيرة إلى الخازن على نهر إلبه Elbe.

ومات كوتوزوف Kutuzov في سيليزيا Silesia في ٢٨ أبريل، وكان لا يزال ينصح الروس بالعودة إلى بلادهم، وأمر إسكندر بأن يتولى باركلي دي تولي Tolly أمر الجيش الروسي بعد موت كوتوزوف، لكن إسكندر احتفظ بالقيادة العليا لنفسه (جعل من نفسه قائداً أعلى للقوات المسلحة). إنه (إسكندر) قد انطلق ليتحقق في تقدمه غريباً كل ما كان يريد نابليون

تحقيقه في تقدمه شرقاً، وأن يغزو بلاد العدو ويهاز جيوشه ويستولي على عاصمته ويجبه على التخلّي عن عرشه، ويجبه على السلام.

٢- إلى بраг

وفي هذه الآثناء كان نابليون يحارب للاحتفاظ بمكانه في فرنسا ولم يعد مفتوناً بانتصاراته. وكاد يعيّن على كل أسرة في فرنسا أن تسلّم ابنها أو أخيها آخر من أبنائها. لقد كانت الطبقة الوسطى قد رحّبت بنابليون كحامي لها، لكنه الآن أصبح ملكياً أكثر من البوربون وحلق حوله الملكيين الذين كانوا قد تآمروا خلّعه. ولم يكن القسّيس يشقون في نابليون، وكان الجنرالات الفرنسيون يتممّون السلام. وكان نابليون نفسه قد تعب من الحرب. لقد تضخم بطيءه (كرشه) وأرهقته الآلام وكسر سنه وبطؤ تفكيره وتذبذب إرادته، ولم يعد أبداً أن يستخلص من جوهر النصر فتنة تدعوه إلى مزيد من المعارك أو تفتح شهيته للحكم. كيف يستطيع هذا الرجل المرهق أن يجد في هذه الأمة المرهقة الموارد البشرية المطلوبة لمواجهة أعداء في ذروة الاندفاع؟

لكن اعتزازه بنفسه وفخره كانا هما آخر قوة يرکن إليها. فهذا القيسير الغادر، هذا الراقص الوسيم الذي يلعب دور الجنرال، وهذا الجيش الذي يصيّب الرعب أمام القوزاق – جيش فريدريك، وهذا المارشال الفرنسي الذي تخلّي عن قضية وطنه والمفترض أنه سيقود الجيش السويسري ضد بلاده (فرنسا) – كل أولئك لن يجدوا الشجاعة والمهارة والسرعة التي تحلى بها الجندي الفرنسي، والتي تتحلى بها أمة قوية متحمّسة لحماية أرقى الحضارات في أوروبا. قال نابليون في ديسمبر سنة ١٨١٢ في دعوة يائسة لاستئناف الفخر العنصري: «من الآن فصاعداً ليس لأوروبا إلا عدو واحد – الصنم الروسي الكبير»^(٧).

ومن ثمّ فرض الضرائب وتفاوض للحصول على القروض، وسحب من رصيده المالي في أقبية التوليري، وأصدر الأوامر باستدعاء دفعـة التجنيد الإجباري لسنة ١٨١٣ للخدمة العسكرية الفعلية، وأن يتم تدريب دفعـة ١٨١٤، كما أمر بإعداد الكتائب العسكرية التي كانت معدة للخدمة داخل فرنسا، لتكون مستعدة للحرب خارجها كما أمر بإبرام عقود

لتمويل جيشه بالذخائر والملابس والأسلحة والخيول والطعام. ونظم أمور التدريب والتقديم والمعركة بمركز الكتائب المدرية في موقع بعينها، وجعلها مستعدة كي ينضم بعضها إلى بعضها الآخر عند صدور الأوامر، لتكون معاً في المكان المحدد والزمان المحدد. وفي منتصف أبريل كان قد نظم جيشاً بلغ تعداده ٢٥٠,٠٠٠ رجل. وعيّن وصيّ regent ماري لويس ليقوم مقامه عند غيابه في الجبهة وجعل من مينيفال Ménéval سكرتيراً لها، وكان مينيفال هو سكرتيره المرهق، وغادر نابليون باريس في ١٥ أبريل لمقابلة جيشه في مين إلبه Elbe (مفهوم أنه نهر إلبا وليس الجزيرة المعروفة).

وسار يوجين جنوباً ومعه البقية الناجية من الفاجعة الروسية (الهزيمة في روسيا) ومعه أيضاً جنود تم استدعاؤهم من مواقعهم في ألمانيا، وأقبل من الجنوب برتران Bertrand وبهؤلاء الرجال الموثوق بهم على رأس ميسرته و Mimeنته تحرك نابليون متقدماً بجيشه (جيشه مين Main)، وفي ٢ مايو قابل من ليترن Lutzen بالقرب من ليبيتسج (ليبزج Leipzig) حيث متحالفاً بقيادة الجنرال الروسي ويتجنسن Wittgenstein وبرعاية القيسير والملك. عدد الجنود الفرنسيين الآن ١٥٠,٠٠٠، وعدد الجنود الروس ٥٨,٠٠٠ أما الجنود البروس فقد دهم ٤٥,٠٠٠. وربما ليشجع الإمبراطور جنوده ويزيد من حماسهم راح يخاطر بنفسه في مقدمة الجيش، فقد كتب المارشال مارمون Marshal Marmont : «ربما كان هذا اليوم قد شهد مخاطرته بنفسه كأشد ما تكون المخاطرة في ميدان المعركة»^(٨). وهُم الحلفاء وتراجعوا لكن بعد أن كبدوا الفرنسيين ٢٠,٠٠٠ رجل (أي بخسارة تزيد بمقدار ٨٠٠٠ عن خسائر أعدائهم)^(٩).

لكن فريدرريك أغسطس الأول ملك سكسونيا قرر ضم جيشه البالغ عدده ١٠,٠٠٠ جندي إلى القوات الفرنسية خوفاً من جارته النهضة بروسيا، فكان في ذلك - إلى حد ما - عزاء لنابليون. وفي ٩ مايو أصبحت دريسدن عاصمة فريدرريك أغسطس قاعدة لنابليون يقود منها معركتين.

ومخافة أن تنضم النمسا إلى الحلفاء لمحاولة الاستيلاء مرة أخرى على شمال إيطاليا، أرسل نابليون قائده يوجين إلى ميلان Milan لإعادة بناء جيشه هناك ومراقبة الثوريين

الإيطاليين. وغادر نابليون – نفسه – دريسدن في ١٨ مايو آملاً أن يحقق نصراً أكثر حسماً على المتحالفين ضده الذين أعادوا تنظيم أنفسهم في بوتسن Bautzen إلى الشرق من دريسدن بثلاثين ميلاً، فارسل قائده ني Ney ليتقدم في نصف دائرة ملتفاً حول العدو مهاجماً إياه من المؤخرة، بينما هو نفسه (نابليون) يقود الجيش الرئيسي ليشن هجوماً على مقدمة العدو، وتأخر ني Ney فلم يستطع منع الحلفاء الذين هزمهم نابليون من التراجع إلى سيليزيا Silesia بعد أن فقدوا ١٥,٠٠٠ مقاتل. وتقدم نابليون إلى الأودر Oder وضم جنود الحامية الفرنسية في جلوجاوا Glogau إلى جيشه. لقد كتب أحد المهاجرين الفرنسيين Roger de Damas (الذين تركوا فرنسا عقب أحداث الثورة الفرنسية) واسمه روجر دي داماس

عبرأً عن غضبه: «إن الإمبراطورية الفرنسية قد حلّت بها نكبة ومع هذا فقد خرجت منتصرة»^(١٠).

وفي هذه اللحظة وبينما كان نابليون يتحرك على طول الأودر Oder ويضم حاميات فرنسية أخرى إلى جيشه، استمع نابليون إلى عرض ميتزنيخ بتوسيط النمسا لترتيب سلام بين القوى المتحاربة. وحثّه بيرثييه Berthier باسم الجنرالات، وكولينكور Caulaincourt باسم الدبلوماسيين على القبول خوفاً من حرب طويلة مع حلفاء متحددين لهم موارد لا تنفد، بينما فرنسا منقسمة مستنزفة، وأحس نابليون بمؤامرة (فح) لكنه كان يأمل في أن عقد هدنة سيتيح له وقتاً لتجنيد مزيد من الجنود وتعزيز سلاح الفرسان في جيشه، كما خشي من أن رفضه عرض ميتزنيخ قد يؤدي إلى انضمام النمسا إلى المتحالفين ضده. وتم ترتيب أمور الهدنة في بلايسفيتز (بلايسفيتis Pleisswitz) (٤ يونيو) وكانت هذه الهدنة لمدة شهرين ثم مُدّت في وقت لاحق إلى ١٠ أغسطس. وسحب نابليون قواته إلى دريسدن وأصدر توجيهاته باستكمال كتائبه واتجه إلى مينز (مينتس Mainz) ليقضي بعض الوقت مع ماري لويس فريرا تستطيع أن تحدث أباها على مواصلة تحالفه مع فرنسا، ذلك التحالف الذي كانت هي ضمانه. وفي هذه الائتاء راح ميتزنيخ يزيد عدد الجيش النمساوي ويقوّيه بالمعدات الالزامية متظاهراً بأن ذلك العمل موجه ضد أعداء نابليون (المتحالفين).

واستفاد المتحالفون ضد نابليون من الهدنة. لقد رحبوا ببيرنادوت Bernadotte الذي

جعل الآن جيشه المكون من ٢٥,٠٠٠ مقاتل في خدمة قضيتهم. وأتى معه مورو Moreau الذي كان قد أتَهُم بارتباطه بمتآمرين لقتل نابليون وسُمِح له بالهجرة إلى أمريكا. لقد عاد الآن ليعرض خدماته على الحلفاء باعتباره يعرف أسرار استراتيجية نابليون. لقد ركَّز على قاعدة واحدة: تجنِّبوا المعركة إذا كان نابليون يقودها، واسعوا إليها (المعركة) عندما يكون بعيداً. وكان الحلفاء أكثر سعادة بلورد كاثكار Cathcart الذي قدم لهم في ١٥ يونيو إعانة مالية مقدارها أربعة ملايين جنيه على الأَلْ يعقدوا سلاماً مع نابليون دون موافقة إنجلترا^(١١).

وفي ٢٧ يونيو قبل التحالفون ضد نابليون وساطة النمسا واتفقوا على أن يرسل الأطراف الثلاثة مفاوضين إلى بраг لترتيب شروط السلام. وأرسل نابليون كلا من ناربون Narbonne وكولينكور Caulaincourt على أمل أن يكون اطمئنان إسكندر إلى كولينكور (الذي جعل نابليون معه ناربون لمراقبته) سبباً للوصول إلى نتائج مواتية. وعلى كل حال فإن الشروط التي قُدمت لنابليون من خلال كولينكور وميترينيخ كانت راجعة في رأيه إلى هزيمته (السابقة) في روسيا وبولندا وإلى الثورة البروسية ضده. لقد طُلب منه أن يُسلم المناطق التي استولى عليها من بروسيا، وأن يترك كل دعاوته في دوقية وارسو (فرسافا)، والدول - المدن الهانسياتية Hanseatic وبوميرانيا وهانوفر وإيليريا Illyria وكونفدرالية الرَّايِن. وأنه يمكنه العودة إلى فرنسا ليحتفظ بحدودها الطبيعية وبعرشه وبأسرته الحاكمة لا يتحداها أحد. لكن كان هناك عيب خطير في هذه الاقتراحات: إنجلترا الحق في إضافة مطالب أخرى، وأن التحالفين ضد نابليون لن يُوقعوا سلاماً مع نابليون دون موافقة إنجلترا.

وأرسل نابليون إلى بраг طالباً تأكيداً رسمياً لهذه الشروط، فلم يصله هذا التأكيد إلا في ٩ أغسطس مع تحذير من ميترينيخ أن الهدنة ستنتهي في منتصف ليلة العاشر من أغسطس، وسينخفض مؤتمر الحلفاء في هذا الوقت أيضاً ولابد أن تصل موافقة نابليون قبل هذا التاريخ. وأرسل نابليون موافقة مشروطة لم تصل إلى بраг حتى إعلان ميترينيخ انتهاء الهدنة وفض المؤتمر. وفي ١١ أغسطس انضمت النمسا إلى الحلف المضاد لفرنسا، واستؤنفت الحرب.

لقد زادت قوات الحلفاء عدداً وتمويلًا. لقد أصبحت الآن نحو ٤٩٢,٠٠٠ مقاتل و ١٣٨٣ مدفعاً، واستقبل نابليون فرقة عسكرية من الدنمارك، ودفعه مجندين كان ينتظروا وأصبح لديه الآن ٤٤٠,٠٠٠ مقاتل و ١٢٠٠ مدفعة. وكانت الحلفاء ثلاثة جيوش: «جيش الشمال» بقيادة بيرنادوت وتركز في برلين، و«جيش سيلزيا» بقيادة بلوخر (Blucher) المندفع الذي لا تنقصه الشجاعة، وتحلق جيشه في تشكيلاته المختلفة حول بريسلو (Breslau) والجيش الثالث وهو أكبرها جميراً. هو «جيش بوهيميا» بقيادة الأمير فون شفارتسنبرج Von Schwarzenberg المتمرد في براغ. وكانت الجيوش الثلاثة نصف دائرة حول نابليون المتمرد في دريسدن. وترك لكل جيش من هذه الجيوش حرية القتال لشق طريقة إلى باريس بشكل مستقل. وفي مواجهة هذه الجيوش أعد نابليون «جيش الميسرة Left» بقيادة أودينو Oudinot لإيقاف بيرنادوت، وجيشه الوسط بقيادة ني Ney لمراقبة بلوخر Blucher «وجيش الميمنة» بقيادة هو نفسه (نابليون) لحراسة الطرق التي قد يُطلق عبرها شفارتسنبرج Schwarzenberg من بوهيميا عدداً كبيراً من قواته لقد كانت هناك عيوب في الموقف الفرنسي لم يكن يمكن كما هو واضح تخفيها؛ لم يكن نابليون ب قادر على استخدام خطته التي استخدمها في إيطاليا بالتركيز بكل قواته على أحد الجيوش، فهذا قد يؤدي إلى فتح الطريق إلى باريس للجيشين الآخرين أو أحدهما، وكان يتعمّن على جيشين من جيشه أن يتحرّكاً بعيداً عن الآخر الخمس الذي كان يتركه وجوده في صحفوّ الجيش، وأدى عدم وجوده إلى حرمان هذين الجيشين من مناورته السريعة وتكلّيكاته البارعة وفي ١٢ أغسطس بدأ بلوخر Blucher معركة خريف ١٨١٣ بالتحرك غرباً من برسلاو (Breslau) لمحاجمة قوات ني Ney من كاتسباخ Katzbach في سكسونيا فأخذهم على غرة وفروا وقد تملّكهم الذعر، فاندفع نابليون من جورليتس Gorlitz بحرسه الإمبراطوري وقوات الفرسان بقيادة مورا Murat لإعادة تنظيم قوات ني Ney، وقادهم إلى نصر كلف قوات بلوخر ٦٠٠٠ قتيل^(١٢).

لكن في الوقت نفسه قاد شفارتسنبرج قواته البالغ عددها ٢٠٠,٠٠٠ شمالاً في هجوم

سرعى للاستيلاء على مقر القيادة الفرنسية في دريسدن. واستدار نابليون وكفَ عن متابعة بلوخر Blucher، وقاد ١٠٠,٠٠٠ رجل مسافة ١٢٠ ميلًا في أربعة أيام، ووجد أن النمساويين يكادون يتحكمون في كل المرتفعات حول العاصمة السكسونية، وفي ٢٦ أغسطس راح الجيش الفرنسي بقيادة الحرس القديم والحرس الجديد يهتف «عاش الإمبراطور» وهو - أي الجيش الفرنسي - يقتتحم صفوف الأعداء ويحاربهم بضراوة شديدة حتى إن مورا Murat قاد سلاح الفرسان التابع له بتهور شديد كما كان يفعل أيام شبابه لدرجة أنه بعد يومين من المعركة، أمر شفارتسنبرج Schwarzenberg قواته بالتراجع مخلفاً ٦٠٠٠ رجاله بين قتيل وجريح وأسير. وكان نابليون نفسه يوجه إطلاق المدافع فأصلى العدو ناراً كثيفة حامية^(١٣).

وكان إسكندر يراقب الصراع من فوق تل مكشوف، وكان معه مورو Moreau الذي كان قد أصبح أثيراً لديه. وأصابت قذيفة مدفع ساقى مورو فأطاحت بهما، ومات بعد أيام قليلة وسط جيش القيصر، لكنه صاح وهو يموت: «أنا مورو! تصيبني طلقة من الجيش الفرنسي وأموت بين أعداء فرنسا!!»^(١٤).

وعقب فاندام Vandamme النمساويين المنسحبين ولم يتبعه نابليون ولم يقدم له دعماً (كان نابليون قد تعرض لآلام حادة في معدته)، ووقع فاندام في شرك نصبه له العدو فاستسلم مع رجاله البالغين ٧٠٠٠ في ٢٨ أغسطس لأحد أقسام جيش شفارتسنبرج، وبعد ذلك سرعان ما فقد ني Ney ١٥,٠٠٠ من رجاله في اشتباكات مع العدو في دنيفتس (٦ سبتمبر)، وحزن نابليون لأن نصره الذي أحرزه في دريسدن سرعان ما ضاع هباء. فأرسل (أي نابليون) إلى السينات Senate لاستدعاء ١٢٠,٠٠٠ مجند إلزامي من دفعه ١٨١٤ (الدفعية التي يحين وقت تجنيدها في سنة ١٨١٤) و ١٦٠,٠٠٠ من دفعه ١٨١٥. وكان هؤلاء المجندون الجدد صغاراً وسيحتاجون لشهور كثيرة لتدريبهم. وفي الوقت نفسه كان ٦٠,٠٠٠ جندي قد أضيقيوا إلى الجيش الروسي، وكانوا ممن تمرسوا على الحرب في معركة في بولندا، وفي ٨ أكتوبر انضم جيش بافاريا Bavaria إلى أعداء نابليون بعد أن كان يقاتل في صفه.

أما وقد أصبح المتحالفون ضد نابليون على هذا القدر من القوّة فقد أصبح هدفهم هو الاستيلاء على ليزج (ليبتسج) وأن يحسموا الحرب بمعركة تستطيع فيها قواتهم الموحدة إحباط أي استراتيجية نابليونية. وفي أكتوبر قاد كلّ من بلوخر Blucher وبنجسن Bennigsen وبيرنادوت Bernadotte وشفارتسنبرج Schwarzenberg ويوجين الفيرتبرجي of Wurttemberg وغيرهم من الجنرالات - قوات من ١٦٠,٠٠٠ رجل حول المدينة. فاستدعي نابليون جيشه من الشمال والوسط والجنوب فبلغ تعدادها ١١٥,٠٠٠ رجل بقيادة مارمون Marmont وإسكندر مكدونالد وأوجيرو Augereau وبرتران Bertrand وكيليرمان Kellermann وفيكتور، ومورا Murat وني Ney والأمير جوزيف بونياتوفسكي Poniatowski. قلما وجدنا مثل هذه العبرية العسكرية وقلما رأينا هذا العدد من الجنسيات تجتمع لتتلاقى في معركة واحدة. إنها معركة الأمم أو كما سماها الألمان (فولكرشلاخت Volkerschlacht) والكلمة تعني حرفيًّا (مذبحة الشعب).

واتخذ نابليون موقعاً مكشوفاً في مؤخرة قواته وراح يُوجه تحركاتها طوال ثلاثة أيام من العمليات (١٦-١٩ أكتوبر ١٨١٣)، على وفق ما قاله^(١٥) (أي نابليون) فقد ظلَّ للفرنسيين اليد العليا حتى ١٨ أكتوبر وعندما تحول الجنود السكسون Saxon troops إلى القوات المتحالفَة ضد نابليون ووجهوا مدافعهم ضدَّ الفرنسيين الذين اعتبرتهم الدهشة وغمرتهم الفوضى فبدأوا يفقدون مواقعهم^(١٦). وفي اليوم التالي تخلَّت كتائب كونفدرالية الراين عن الفرنسيين وانضمت إلى المتحالفين ضدهم. وعندما وجد نابليون أن رجاله بدأت تعوزهم الذخيرة وتعرضوا لخسائر فادحة - أمر بالتراجع (الانسحاب) عبر نهر بليس Pleisse وإلستر Elster. ونجحت معظم القوات الفرنسية في تنفيذ هذا الانسحاب عبر النهرين الآنف ذكرهما لكن مهندساً مهتاجاً نصف جسراً فوق نهر الإلستر Elster بينما كان بعض الفرنسيين يعبرونه، ففرق كثيرون من فيهم بونياتوفسكي الأنيق الذي كان قد حارب في صف نابليون ببراعة حتى إنه (أي نابليون) رقاه في ميدان المعركة إلى رتبة مارشال. ولم يصل من بين ١١٥,٠٠٠ من الجنود الذين حاربوا مع نابليون في ليزج إلى نهر سال Saale إلا ٦٠,٠٠٠، لقد وقع الآلاف أسرى، وتلقى الفرنسيون الذين وصلوا إلى نهر سال غذاء

وكساداً ومؤناً ثم واصلوا طريقهم غرباً إلى المين Main عند هاناو Hanau وهناك حاربوا قوات نمساوية وبافارية وهزموها في ١٢ نوفمبر وصلوا إلى الراين عند مينز (مینتس Mainz) بعد أسبوعين من الفرار، وعبروا النهر إلى فرنسا.

٤ - الانكسار

لقد بدا نابليون وقد لحقه انكسار لا يجبار بعده. فقد كان جيشه (الآن) مكوناً من ٦٠،٠٠٠ مقاتل مهزومين ومحبطين ومستنفدين، يحتشدون على غير هدى على ضفة الراين، أما القوات الفرنسية في المانيا فكانت مجتمدة لا يمكن تعبئتها. لقد كانت قواته البالغة ٦٠،٠٠٠ (الآن ذكرها) والمحتسدة عند ضفة الراين بغير سلاح وبغير ملابس وقد تفشت فيهم التيفوس الذي راحوا يصيبون به كل المناطق التي مرّوا بها^(١٧) وراح الخبر المحبطة تأتي من كل اتجاه. ففي إيطاليا كان يوجين قد استطاع بشق النفس أن يجمع قوة من ٣٦،٠٠٠ رجل لكنه أصبح الآن في مواجهة ٦٠،٠٠٠ جندي نمساوي عبر الأديج Adige. وفي نابلي راح مورا Murat يتآمر لإنقاذ عرشه بالتخلي عن نابليون ومناصرة المتحالفين ضدّه. وفي الأراضي المنخفضة أطاحت ثورة داخلية تدعمها قوات بروسية بقيادة بولو Bulow بالحكم الفرنسي (نوفمبر ١٨١٣) وأحكمت قوات إنجليزية قبضتها على الشيلدت Scheldt وعادت أسرة أورانج orange وهرب جيروم من وستفاليا (فستفاليا). ومن إسبانيا عبر ويلينجتون Wellington المنتصر البيداسوا Bidassoa إلى فرنسا (٧ أكتوبر) وفرض حصاراً على بايون Bayonne في ديسمبر.

وبدت فرنسا نفسها مهزّة، فقد أدى ضياع إسبانيا، واضطهاد الحركة التجارية مع المانيا وإيطاليا إلى أزمة اقتصادية فأفلست البنوك وأغلقت المصانع أبوابها، وأعقب إغلاق بيت جاباش Jabach للتمويل، سلسلة من عمليات الإفلاس. وهبطت البورصة من ٨٠ في شهر يناير إلى ٤٧ من شهر ديسمبر. وراحآلاف المعطلين يتسلّكون في الشوارع أو يخفون فقرهم بالاعتكاف في بيوتهم أو يلتتحقون بالجيش ليأكلوا وتمرد الشعب احتجاجاً على المزيد من التجنيد الإلزامي، واحتاجت الطبقة الوسطى على رفع الضرائب، وطالب الملكيون

بتولى لويس الثامن عشر العرش، لقد راحت كل الطبقات تطالب بالسلام. ووصل نابليون إلى باريس في 9 نوفمبر فرّحت به مليكته غير السعيدة وابنه المرح، وراح يعمل على إقامة جيش جديد من ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل كضرورة أولى للحرب أو السلام. لقد أرسل المهندسين لإصلاح الطرق لجبهات جديدة وإعادة الأسوار إلى المدن وبناء الحصون، وللاستعداد لحفر الخنادق وتدمير الجسور عند الضرورة لإعاقة تقدم الغزاة. وصادر الخيول لسلاح المفرسان وأمر بإعداد المدافع من السبائك كما أمر بإعداد الأسلحة والذخائر للم المشاة وراح يسحب المزيد من الأموال التي ادخرها من أقبية التوليري، وراحـتـ الـأـمـةـ تـنـظـرـ إـلـيـهـ باستغراب وخوف معجـبةـ بـقـدـرـتـهـ عـلـىـ اـسـتـعـادـةـ رـبـاطـةـ جـاـشـهـ وـطـاقـهـ التـيـ لـاـ تـنـفـدـ كـمـاـ أـصـابـهـاـ الرـعـبـ مـخـافـةـ عـامـ جـدـيدـ مـلـيـءـ بـالـحـرـوبـ.

أما الحلفاء (القوى المتحالفة ضد نابليون) فقد ترددوا أمام الراين وبسبب حلول الشتاء، فأرسلوا له من فرانكفورت في 9 نوفمبر عرضاً غير رسمي وغير موقع لإحلال السلام: أن تتحفظ فرنسا بحدودها الطبيعية - الراين، والألب، والبرانس، وأن تتخلى عن دعاويها كلها فيما وراء ذلك^(١٨). وفي الثاني من شهر ديسمبر أجاب نابليون من خلال وزير الشؤون الخارجية (كولينكور) بالموافقة. وعلى أية حال فإن ثورة هولندا أنهت السيطرة الفرنسية على مصاب الراين. وساعد الحلفاء هذه الثورة وسحبوا موافقتهم على مبدأ الحدود الطبيعية لفرنسا^(١٩).

بل لقد أصدروا في ٥ ديسمبر «إعلان فرانكفورت»: «إن القوى المتحالفة لا تشن الحرب على فرنسا. فملوك وحكام أوروبا يريدون أن تكون فرنسا عظيمة قوية سعيدة.. فالقوى المتحالفة تؤيد الإمبراطورية الفرنسية في امتلاك مناطق لم يحدث أبداً أن كانت تحت حكم ملوكها»^(٢٠).

لم تكن المسألة في حاجة إلى مزيد من الجهد لإبعاد الشعب عن إمبراطوره، فقد كان السينات Senate والهيئة التشريعية معارضين له علناً مطالبين بـدستور يضمن الحرية. وفي ٢١ ديسمبر عبر الحلفاء نهر الراين إلى فرنسا. وفي ٢٩ ديسمبر أرسل السينات إلى نابليون تأييده أنه موالي له. لكن في اليوم نفسه قرأ لينيه Laine - أحد الأعضاء

الملكيّين من بوردو – على المجلس التشريعي تقريراً ينتقد فيه «أخطاء» و«تجاوزات» الإٰدراة الإٰمبراطورية، متداهـاً «الحكم السعيد على أيام البوربون، ومرحباً بالمحالفين ضد نابليون الذين «يرغبون في الإبقاء علينا ضمن نطاق حدود بلادنا، والذين يودون كبح النشاطات الطموحة التي أدت طوال العشرين سنة الماضية إلى إيداء كل شعوب أوروبا»^(٢١). وصوت المجلس التشريعي بواقع ٢٢٣ ضد ٣١ بالسماح بطبع تقرير لينيه Laine. وفي مساء ذلك اليوم أمر نابليون بـإنهاء الدورة التشريعية للمجلس، وأجاب بهياج شديد غاضباً مرهقاً:

«من المؤكـد أنه عندما يكون علينا أن نطرد العدو من بلادنا، فإن هذا الوقت يكون غير ملائم لطلابتي بـدستور. إنكم لستم ممثلي الأمة فأنتم مجرد مندوبيـن أرسلـتـهم الدوـائر (المحافظـات) .. إنـني أنا وحـدي مـمثلـيـنـ لـلـأـمـةـ. وـمـعـ ذـلـكـ، فـمـاـ هوـ العـرـشـ؟ أـهـوـ أـرـبـعـ قـطـعـ منـ الـخـشـبـ الـمـوـهـ بـالـذـهـبـ تـغـطـيـهـ الـقـطـيـفـةـ (الـخـمـلـ)ـ؟ـ لـاـ،ـ إـنـهـ لـيـسـ كـذـلـكـ،ـ إـنـهـ شـاغـلـهـ،ـ وـأـنـاـ شـاغـلـهـ.ـ إـنـنيـ أـنـذـرـكـ أـنـ أـسـتـطـعـ إـنـقـاذـ فـرـنـسـاـ،ـ وـلـيـسـ أـنـتـمـ إـنـنيـ أـنـ أـصـغـيـتـ لـكـمـ لـسـلـمـتـ للـعـدـوـ أـكـثـرـ مـاـ يـطـلـبـ.ـ إـنـكـمـ سـتـحـصـلـونـ عـلـىـ السـلـامـ فـيـ ثـلـاثـةـ أـشـهـرـ أـوـ أـهـلـكـ»^(٢٢).

وبعد أن تخلى عنه المندوبون المصدومون، أرسل (أي نابليون) يستعدي بعض الشيوخ Senators الذين وقع عليهم اختياره وشرح لهم سياسته لإحلال السلام وخطط مفاوضاته، وانتهى باعتراف كسير، كما لو كان يعترف أمام محكمة التاريخ:

«إنـنيـ لـأـخـافـ مـنـ الـاعـتـرـافـ إـنـيـ قـدـ أـطـلـتـ أـمـدـ الـحـرـبـ كـثـيرـاـ.ـ لـقـدـ كـنـتـ مـقـتـنـعاـ بـمـشـرـوـعـاتـ وـاسـعـةـ الـمـدـىـ.ـ لـقـدـ كـنـتـ رـاغـبـاـ فـيـ أـنـ أـؤـمـنـ لـفـرـنـسـاـ إـمـبـرـاطـورـيـةـ الـعـالـمـ (ـحـكـمـ الـعـالـمـ).ـ لـقـدـ كـنـتـ مـخـطـطاـ،ـ فـهـذـهـ الـمـشـرـوـعـاتـ لـمـ تـكـنـ مـنـتـنـاسـيـةـ مـعـ عـدـدـ سـكـانـ فـرـنـسـاـ،ـ لـقـدـ كـنـتـ سـأـجـدـ نـفـسـيـ مـضـطـرـاـ لـتـجـنـيدـ الـشـعـبـ الـفـرـنـسـيـ كـلـهـ،ـ وـإـنـنيـ مـقـتـنـعـ الـآنـ بـأـنـ تـقـدـمـ الـجـمـعـيـةـ الـدـوـلـةـ وـاـزـهـارـهـاـ الـاخـلـاقـيـ وـالـمـعـنـوـيـ لـاـ يـتـقـنـعـ مـعـ تـحـوـيلـ الـشـعـبـ كـلـهـ إـلـىـ أـمـةـ مـنـ الـجـنـوـدـ».

ولـاـ بـدـ أـكـفـرـ عـنـ أـخـطـائـيـ الـيـ اـرـتكـبـتـهـاـ بـرـكـونـيـ كـثـيرـاـ جـداـ إـلـىـ حـظـيـ السـعـيدـ،ـ إـنـنيـ سـأـكـفـرـ عـنـ أـخـطـائـيـ،ـ إـنـنيـ سـأـبـرـمـ اـتـفـاقـ سـلـامـ،ـ عـلـىـ وـفـقـ الـشـرـوـطـ الـتـيـ تـمـلـيـهـاـ الـظـرـوفـ،ـ وـهـذـاـ الـسـلـامـ لـنـ يـكـوـنـ فـيـ خـرـبـ إـلـاـ لـيـ وـحـديـ،ـ فـسـيـكـوـنـ عـلـىـ وـحـديـ أـنـ أـخـدـعـ نـفـسـيـ،ـ وـسـيـجـبـ

عليّ وحدي أن أُعاني، وليس فرنسا. إن فرنسا لم ترتكب أي خطأ، فهي قد بذلت دماءها لي ولم تدخل عليّ بآية تضحيات ..

اذهبوا إذن أيها السادة إلى دوائركم (محافظاتكم) لأنني على وشك إبرام اتفاق سلام، فأننا لن أطلب من الفرنسيين بعد الآن أن يبذلوا دماءهم لمشروعاتي ولـ... لكن فرنسا ولسلامة أراضيها (حدودها). أخبروا مواطنيكم أنني لا أطلب منهم سوى الوسائل التي تعين على طرد العدو الأجنبي من أراضي الوطن. قولوا لهم إن العدو قد غزا الألزاس ونافار وبيارن Bearn وavarre Navarre (٢٣).

وفي ٢١ يناير أمر مندوبيه بإطلاق سراح البابا بيوس السابع من محبسه في فونتينبلو Fontainebleau وترتيب الأمر لعودته إلى إيطاليا. وفي ٢٣ يناير جمع من التوليري ضباط الحرس الوطني وقدم لهم الإمبراطورة (زوجته) وابنه (ملك روما) الذي كان وسيماً ولم يكن قد بلغ الثالثة من عمره بعد وأوصاهما بالاهتمام بالحرس. ومرة أخرى عين ماري لويس وصية على العرش في أثناء غيابه، وفي هذه المرة عين أيضاً أخاه جوزيف ليفتينانت جنرال للإمبراطورية والقائم بالأعمال الإدارية للإمبراطورة. وفي يوم ٢٤ من يناير أحبط علماء مورا Murat قد انحاز إلى الحلفاء (المتحالفين ضد نابليون) وأنه يتقدم من نابلي على رأس ١٨,٠٠٠ مقاتل ليساعد في طرد يوجن من إيطاليا. ومن هذا اليوم نفسه ودّع نابليون زوجته وابنه آخر مرة، فلن يتّأّى له رؤيتهمما بعد ذلك، وغادر باريس لينضم إلى جيشه الذي أُعيد تكوينه ليتحدى غزوة فرنسا.

٥- إلى باريس

لقد راح الحلفاء يتقدّمون في صفوف يقترب بعضها من بعض لتنجتمع في نقطة واحدة، وكانت عيونهم هذه المرة على باريس. لقد «سرق» (بالمعنى الحرفي للكلمة) شفارتسنبرج Schwarzenberg طريقه من الفرنسيين بعبوره نهر الراين عند بازل على رئيس ١٦٠,٠٠٠ رجاله وانتهك الحياد السويسري إذ تغاضت الأوليغاركيات السويسرية بسعادة عن تحركاته، وتحرك بسرعة عبر الكانتونات واستولى على جنيف التي لم تُبد دفاعاً، وظهر من الأراضي

الفرنسية لمسافة أبعد بعشرة ميل مما كان يتوقع الفرنسيون، وأسرع بالاتجاه شمالاً نحو نانسي Nancy على أمل الانضمام إلى قوات بلوخر Blucher أو التنسيق معه هناك. وكان نابليون قد أمر الجيوش الفرنسية أن يفاجئوا العدو بمعارك غير متوقعة في إيطاليا وجنوب شرق فرنسا، ومن ثم يتوجهون شمالاً لاعتراض سبيل شفارتسنبرج أو على الأقل إبطاء مسيرته، لكن النمساويين عطلوا حركة يوجين.

وفي هذه الأثناء عبر بلوخر Blucher بجيشه «جيش سيليزيا» المكون من ٦٠,٠٠٠ مقاتل لازالوا أقوىاء - نهر الراين عند مينز (ميتنس Maiz) ومانهايم Mannheim وكوبلنز (كوبلنتس Coblenz) وراح يتقدم بلا مقاومة تقرباً إلى نانسي Nancy حيث استقبله حكامها وجمهورها مع جنوده البروس كمحظيين من طغيان نابليون^(٢٤). أما بيرنادوت فإنه بعد أن فقد أمله في أن يخلف نابليون كحاكم لفرنسا، وجدناه يتخلى عن الحلفاء بعد ليزيج (ليبسج Leipzig) ليضرب الدنماركيين ليتخلوا عن النرويج للسويد (١٤ يناير ١٨١٤) وبعد أن أتمَّ هذه المهمة انضم بجيشه إلى بلوخر Blucher في الزحف تجاه باريس. ولم تجسر القوات الفرنسية التي تركها نابليون في شرق فرنسا على مواجهة قوات بلوخر أو قوات شفارتسنبرج لقد تراجع ني Ney غرباً من نانسي، وتراجع مورتييه Mortier من لانغر Langers وتراجع مارمون Marmont من مينز Metz وراحوا ينتظرون قدوم نابليون.

لقد أحضر نابليون معه إلى مقر قيادته الجديد في شاللون - سير - مارن - Sur Chalons - Sur Marne (التي لا تبعد عن باريس سوى خمسة وتسعين ميلاً) نحو ٦٠,٠٠٠ مجند ليضافوا إلى ٦٠,٠٠٠ من بقوا أحياء بعد ليزيج (ليبسج) بقيادة ني Ney ومارمون Marmont ومورتييه Mortier وبذلك أصبح تحت قيادته ١٢٠,٠٠٠ كان عليه أن يوقف بهم جنود بلوخر وشفارتسنبرج البالغ عددهم ٢٢٠,٠٠٠.

لقد كان نابليون ملتزماً بسياسة عدم السماح لقوات الحلفاء بالاندماج معه ومنعهم من أن يكُونوا قوة واحدة، مع تجنب مواجهة قوات شفارتسنبرج، وإيقاف أو تأخير تقدمها نحو باريس بإحراز انتصارات سهلة على كتائب الحلفاء البعيدة عن مركز القيادة الرئيسي،

لقد كانت معركة ١٨١٤ إحدى أكثر معارك نابليون براعة من الناحية الإستراتيجية، لكنها أيضاً كانت واحدة من أكثرها خسائر وأخطاء بسبب ندرة التعزيزات العسكرية. وقد وقع بلوخر بدوره في كثيير من الأخطاء، لكنه كاد لا يكون عرضة للهزيمة أو قلة الموارد بسبب كل هؤلاء الجنرالات المعارضين لنابليون الآن أو بعد ذلك. وكان شفارتسنبرج أكثر حذرًا، وكان هذا في جانب منه لطبيعته الخاصة، كما كان في جانب آخر منه لأنه كان يصحب القيصر إسكندر والامبراطور فرانتسيس الثاني.

وأدت بعض الانتصارات الميدانية التي أحرزها نابليون إلى إفراطه في الثقة (ثقة لم تكن في محلها). لقد أسر رجال بلوخر وهم يتناولون طعامهم أو ينعمون بقسط من الراحة في بريين Brienne (٢٩ يناير ١٨١٤) وكانت قواته تأسر بلوخر نفسه. وتراجع قوات بلوخر، لكن نابليون كان حكيمًا فلم يتعقبه لأن جيشه (أي جيش نابليون) كان قد خسر ٤,٠٠٠ مقاتل، كما لم يكن أمامه (أي نابليون) إلا مجال ضيق للهرب: لقد كان البروس يقتربون منه وسيوفهم مصلحته، عندما أقدم الجنرال جورج جورج Gourgeaud على إطلاق النار على تابعه الذي تجاوز حده فأرداه قتيلاً. وحزن نابليون بسبب الدمار الذي أحدثته المعركة في المدينة وفي مدرستها الشهيرة التي تلقى فيها تعليمه وتدربيه العسكري، ووعد بإعادتها (المدينة والمدرسة) إلى ما كانتا عليه بعد طرد الغزاة من فرنسا^(٢٥).

واندفع شفارتسنبرج فلم يكن لديه وقت للتفكير، للدعم بلوخر، فوجد جنود نابليون المنتصرين وهم يكادون يكونون محاصرين بمائة ألف جندي نمساوي وبروسي وروسي في لا روثير La Rothière (أول فبراير) فلم يكن لدى نابليون سوى خيار واحد هو أن يحارب، فقد المعركة بنفسه. وكانت المعركة تكاد تكون متعادلة (لم يتحقق أي من الطرفين انتصاراً حاسماً)، لكن تعادل الفريقين المتقاتلين في الخسائر كان كارثة بالنسبة إلى الفرنسيين الذين قادهم الإمبراطور منسحبًا إلى تروي Troyes، وقرر بلوخر ألا يتبع شفارتسنبرج في حذره، فانفصل عنه بقواته وقرر مواصلة طريقه إلى باريس عبر المارن Marne بينما يتبع النمساويون طريقهم على طول السين Seine. وكانت قوات الحلفاء واثقة من النصر حتى إنها أجرت

الترتيبات للتلاقي عند القصر الملكي في الأسبوع المقبل^(٢٦).

وبعد أن أتاح نابليون لجيشه الجريح أسبوع راحة أسنده جانباً منه إلى قائد فكتور Victor وأودينو Oudinot لإنقاذة تقدم شفارتسنبرج، وتقدم هو نفسه (نابليون) على رأس ٦٠,٠٠٠ مقاتل عبر مستنقعات سان جون St. Gond كطريق مختصر إلى شامبوبيرت Champaubert. وهناك لحقوا بمؤخرة قوات بلوخر، وقاد مارمون Marmont القوات الفرنسية في نصر حاسم (١٠ فبراير)، واندفعت القوات الفرنسية فاللتقت بعد ذلك بيوم بقسم من جيش بلوخر عند مونتميرياي Montmirial، وكان كل من نابليون وبلوخر حاضرين في المعركة، لكن مارمون Marmont أثبت مرة أخرى أنه بطل المواجهة، ففي ١٤ فبراير التحتمت القوتان في معركة أكبر في فوشامب Vouchamps، وقد نابليون جيشه الذي أصبح الآن أكثر ثقة - إلى النصر. لقد فقد بلوخر في غضون أربعة أيام ٣٠,٠٠٠ من رجاله^(٢٧). وأرسل نابليون ٨٠٠٠ أسير ليتم عرضهم في باريس لرفع الروح المعنوية للمواطنين الفرنسيين^(٢٨).

وعلى أية حال فإن شفارتسنبرج كان في هذه الأثناء يلاحق قوات أودينو Oudinot وفيكتور Victor حتى كاد يصل إلى فونتينبلو Fountainbleau. لقد أصبح في إمكان الجيش النمساوي البروسي القيام بهجوم شامل كي يصل مع الإمبراطورين إلى باريس في غضون أربعة أيام. وصل نابليون بهذا التعزيز الذي محق كل انتصاراته فترك مارمون Mormont لمواجهة بلوخر الذي اعتربت قواته الإرهاق (على الأقل)، واندفع جنوباً على رأس ٧٠,٠٠٠ من قواته والتقي بأحد جيوش الحلفاء في مونترو Montereau بقيادة فيتجنشتاين Victor Wittgenstein وهزمه (١٨ فبراير) وتمركز في نانجي Nangis وأرسل كلّاً من فيكتور Oudinot لهاجمة قوات شفارتسنبرج من الجناحين والمؤخرة. ووجد شفارتسنبرج أن قواته في وضع خطير من ثلاثة جهات ففكر هذا القائد النمساوي أن الوقت قد أصبح مناسباً لعرض الهدنة على نابليون، الذي أجاب أنه يستطيع الموافقة على وقف إطلاق النار في حالة واحدة وهي أن يضمن الحلفاء ما عرضوه في فرانكفورت والقاضي بضمان حقوق فرنسا في حدودها الطبيعية.

وتشاور الحلفاء في هذا العرض الذي يعني انسحابهم إلى ما وراء الراين وأنهوا المفاوضات، ولم يضعوا في اعتبارهم عرض نابليون، وأكملوا تحالفهم لمدة عشرين عاماً أخرى في شومون Chaumont في ٩ مارس، وترافق شفارتسنبرج إلى تروي Troyes وكان لا يزال معه ١٠٠,٠٠٠ مقاتل.

وراح نابليون يلاحقه بحذر على رأس ٤٠,٠٠٠ مقاتل. وفي هذه الأثناء علم أنَّ بلوخر أعاد تكوين قواته وتشكيلها وأنه راح - مرة أخرى - يشق طريقه إلى باريس على رأس ٥٠,٠٠٠ مقاتل، فترك (أي نابليون) كلاً من أودينو Oudinot ومكدونالد Macdonald وإيتين - موريس - جيرار Etienne - Maurice Gérard لمناوشة قوات شفارتسنبرج وعاد برجاله من السين إلى المارن Marne، ودمج بين قوات مارمون ومورتييه Mortier على أمل الإيقاع بقوات بلوشر (بوتلر) عند نهر آسن Aisne حيث لا يمكن للقوات البروسية أن تهرب إلا من فوق جسر سويسون Soissons، لكن جيشين آخرين من جيوش الحلفاء (٥٠,٠٠٠ مقاتل) تحركاً من الشمال وانقضوا على جسر سويسون Soissons، وأرها القائد الفرنسي على تسليم الجسر والمدينة، فعبرت قوات بلوخر Blucher الجسر وأحرقته (بعد العبور) وانضمت إلى القوات المنقذة (بكسر القاف) فأصبح إجمالي عدد القوات ١٠٠,٠٠٠، وتعقبهم نابليون على رأس ٥٠,٠٠٥ وقاتلهم بشكل غير حاسم في كرون Craonne ولaci الهزيمة في معركة شرسة استمرت يومين في لون Loan (٩-١٠ مارس).

وترك نابليون كلاً من مارمون، ومورتييه لمواجهة بلوشر (بلوخر) وراح مرة أخرى ينتقل من مواجهة عدو إلى مواجهة عدو آخر، وفي أرسي - سير - أوب Aube - Arcis - Sur - Aube (في ٢٠ مارس) بدأ حرباً عنيفة مجنونة بين يبني معه (٢٠,٠٠٠) مع جيش شفارتسنبرج (٩٠,٠٠٠ من الجنود الأقوياء) وبعد يومين من المذابح وال الحرب البطولية اعترف بالهزيمة وعبر الأوب Aube لإتاحة مكان ملائم لجيشه المستنزف كي يستريح.

لقد أصبح نابليون مرة أخرى على وشك الانتهاء. لقد أصبح حاد المزاج لتوتر أعصابه واعتلال جسده وراح يوبح ضباطه بشكل غاضب مع أنهم خاطروا بحياتهم من أجله في حرب إثر حرب. لقد حذروه ذاكرين أنه لن يتلقى تعزيزات عسكرية أخرى من أمة تعبت

من «العظمة» وتلبستها «اللامبالاة». وراحت الحكومة التي تركها ورائه في باريس - حتى أخوه جوزيف - ترسل له مناشدات لإبرام السلام بأي ثمن. وفي حالة اليأس هذه قرر نابليون أن يخاطر بكل شيء بالقيام بهجوم آخر يتسم باستراتيجية خيالية. سيترك أفضل جنرالاته لإيقاف تقدم قوات الحلفاء على قدر ما يستطيعون، ويتجه هو (أي نابليون) بقوات غير كثيرة العدد إلى ناحية الشرق ويحرر الجنود الفرنسيين المحتجزين في الحصون الألمانية على طول نهر الراين، وبهؤلاء الجنود المتمرسين على القتال بالإضافة لكتيبة (كتيبة نابليون) المزودة بالمدافع يقطع خطوط مواصلات العدو وينزع عنه المؤن، ويهاجم مؤخرة حراساتهم ويحبرهم على عدم متابعة تقدمهم، فيتمكن بذلك أن تستعيد باريس روحها المعنوية العالية بفضل شجاعته فتبني دفاعاتها، وتحدى غزاتها. وفي لحظة أكثر تعقلًا أرسل نابليون تعليمات إلى جوزيف مفادها أنه إذا كان التسليم وشيكة فإن على الحكومة أن تصحب ماري لويس ، و«ملك روما» (ابنه) إلى مكان آمن وراء نهر اللوار حيث يمكن تجميع كل القوات الفرنسية المتاحة لخوض معركةأخيرة.

وبينما كان نابليون يقود قواته المندهشة شرقاً، راح الحلفاء يوماً بعد يوم يحطمون مقاومة بقايا الجيش الفرنسي، ويتحركون ليقتربوا أكثر فأكثر من نهاية رحلتهم الطويلة. وبقي فرانسيس الثاني عند ديجون Dijon غير راغب بالمشاركة في إذلال ابنته، وكان فريدرريك وليم الثالث معتدلاً كالعادة، إذ شعر أنه ثار لمحظيم جيشه وتغريق بلاده وإبعاده منفيًا عن عاصمته، أما إسكندر فقد كان فخوراً متوتراً فلم يعد يجد سعادته في المذاجي اليومية، ونظر إلى نفسه باعتباره قد أنجز ما وعده في فيلنا Vilna من تطهير روسيا من دنس موسكو وحرر أوروبا من جنون القوة ممثلة في هذا الكورسيكي (نابليون).

وفي ٢٥ مارس قام مارمون ومورتييه بمحاولة يائسة لوقف تقدم الحلفاء عند لافير - شامبينواز La fère Champenoise على بعد مائة ميل من باريس، فحارب الفرنسيون بشجاعة منقطعة النظير مع أن قواتهم كانت نصف قوات العدو، حتى أن إسكندر نفسه تقدم إلى ساحة المعركة وأمر بإيقاف هذه المذبحة غير المتكافئة وصاح قائلاً: «أريد إنقاذ هؤلاء

الشجعان "Je veux Sauver ces braves" وبعد انتهاء المعركة أعاد المنتصرون إلى الجنرالات المهزومين خيولهم وسيوفهم^(٢٩). وانسحب مارمون ومورتييه إلى باريس استعداداً للدفاع عن العاصمة.

ووصل بلوخر وشفارتسنبرج إلى ضواحي باريس في ٢٩ مارس، وأصيب المواطنون الباريسيون بالذعر بسبب أصوات قذائف المدفع، وفرار الفلاحين إلى المدينة، وأصاب الذعر أيضاً ١٢,٠٠٠ من أفراد الميليشيا الذين كان معظمهم غير مسلحين سوى بالرماح، وهم مدعاون الآن لمساعدة الجيش الفرنسي المقيم في باريس بشغل حصنون العاصمة والتمرکز فوق تلالها. وكان جوزيف يتسلل إلى الإمبراطورة الوصية على العرش منذ مدة لغادره العاصمة على وفق ما كان نابليون قد وَجَهَ به، وقد امتنعت الإمبراطورة الآن للطلب لكن «ليجلون^(*)» L'Aiglon قاوم إلا أن جلبة المعركة التي أصبحت وشيكة، جعلته يذعن.

وفي ٣٠ مارس بدأ الغزاة البالغ عددهم ٧٠,٠٠٠ هجومهم الأخير، فراح مارمون ومورتييه على رأس ٢٥,٠٠٠ مقاتل يبذلان كل ما في وسعهما من جهد للدفاع عن المدينة التي لم يفكِّر الإمبراطور الفخور (نابليون) أبداً في تحصينها، وانضم إلى القوات المدافعة عدد من المحاربين القدماء وضحايا الحرب وطلبة مدرسة البوليتكنيك والعمال وغيرهم من المتطوعين. وراح جوزيف يراقب المقاومة إلى أن أدرك أنه لا جدوى منها وأنها قد تدفع الغزاة إلى دك المدينة (باريس) بالمدفع، وهي مدينة عزيزة على أثريائها وفقرائها على سواء. ورغم أن إسكندر قد يتصرف تصرف العزي الماسي الحسن، إلا أن الجنود القوزاق قد يستعصون على السيطرة، ولم يكن بلوخر بالرجل الذي يمكن كتائبه البروسية من الأخذ بثأرها كاملاً. لكل هذا فقد خوَّل جوزيف سلطاته إلى المارشالات وغادر المدينة ليلحق بماري لويس والحكومة الفرنسية في بلو^{٣٠} Blois على نهر اللوار. وبعد يوم من المقاومة الدموية وجد مارمون ألا جدوى من استمرارها فوقع وثيقة استسلام المدينة في الساعة الثانية من صباح ٣١ مارس سنة ١٨١٤.

(*) الكلمة تعني فُرخ العُقاب.

وفي وقت لاحق من هذا الصباح دخل إسكندر وفريديريك وليم الثالث وشفارتسنبرج على رأس ٥٠٠٠ جندي رسميأً إلى باريس، فحيّاهم الناس بحقد صامت لكن القيسنر هدأ من روعهم بتكرار التحية وإظهار شيء من المودة^(٣٠). وعندما انتهت المراسم بحث عن تاليران في شارع سان فلورنتين St Florentin وطلب منه النصيحة لإحداث تغيير منظم في الحكومة الفرنسية. واتفقا على ضرورة انعقاد جلسات السينات Senate مرة أخرى، وأن يضع دستوراً وأن يعين حكومة مؤقتة. واجتمع السينات في أول أبريل ووضع دستوراً يضمن الحريات الأساسية وعين حكومة مؤقتة اختار تاليران رئيساً لها، وفي ٢ أبريل أعلن السينات Senate عزل نابليون.

٦- طريق السلام

لقد كان نابليون في سان ديزيه St. Dizier على بعد ١٥٠ ميلً من باريس عندما وصلته الأخبار (٢٧ مارس) بأن الحلفاء يحاصرون باريس، فانطلق بجيشه في الصباح التالي، وبعد ظهر اليوم نفسه تلقى رسالة عاجلة أكثر أهمية: «حضور الإمبراطور أمر ضروري إن كان راغباً في ألا تستسلم عاصمته للعدو. لا يجب تضييع لحظة واحدة». وترك نابليون جيشه عند تروي Troyes وامتطى حصانه طوال معظم الأميال المتبقية رغم آلامه، واقترب من باريس (٣١ مارس) وأرسل كولينكور Caulaincourt إلى باريس على أمل أن يبحث هذا «الروسي» إسكندر على عقد تسوية.. وواصل الإمبراطور (نابليون) طريقه راكباً حصانه إلى فونتينبلو مخافة أن يُقبض عليه إنْ - هو - دخل المدينة (باريس)، وفي مساء اليوم نفسه تلقى رسالة من كولينكور: «لقد خاب مسعاي»^(٣١). وفي ٢ أبريل علم أنه تُحيى عن العرش، ففكَر للحظة كم هو شيء يدعوه إلى السرور أن يترك العرش. لقد قال: «إنني لست معلقاً بالعرش. لقد ولدت جندياً. إنه يمكنني أن أكون مواطناً دون تذمر». لكن وصول جيشه الذي كان عدده ٥٠٠٠٥ مقاتل لمس الورت المناسب في طبيعته^(٣٢)، فامر أن ينصب هذا الجيش خيامه على طول إيسون Essonne (أحد روافد السين) استعداداً لأمر أخرى، وقد مارمون إلى هذا المعسكر ما تبقى من الجنود الذين كانوا يدافعون عن باريس.

وفي ٣ أبريل استعرض نابليون الحرس الإمبراطوري في ساحة ميدان فونتينبلو، وقال لهم: «لقد عرضت على الإمبراطور إسكندر سلاماً لا يتحقق إلا بتضحيات جسام.. لكنه رفض.. إنني في غضون أيام قليلة سأذهب لاهاجمه في باريس. هل أعوّل عليكم؟» وفي البداية لم يجيئه لكن عندما سالمهم: «أأنا على صواب؟» أجابوا: «عاش الإمبراطور! هيا إلى باريس». وراح رماة القنابل ينشدون نشيد ينشد الثورة في أيامها الأولى: نشيد الانطلاق، ونشيد المارسيليز.

وكان الجنرالات متشكّلين. لقد وجدتهم في اجتماع خاص معارضين لعودة البوربون، لكنهم أيضاً كانوا غير متحمسين لبذل محاولة لإخراج الحلفاء من باريس. وفي ٤ أبريل دخل المارشالات (ني Ney وأودينو Oudinot ومونسي Moncey وليفيفر Lefebvre) غرفة نابليون دون دعوة منه وقالوا له إنه ما دام السينات (مجلس الشيوخ) قد عزله فإنهم لا يستطيعون أن يتبعوه في هجوم على القوات المتحالفه والحكومة المؤقتة، فقال لهم إنه سيقود الجيش بدونهم، فرد عليه نَيْ Ney بحسم: «إن الجيش سيطيع قادته» فسألهم نابليون ماذا يريدون منه، فأجاب نَيْ Ney وأودينو Oudinot: «التنازل» فكتب نابليون تنازلاً مسروطاً يترك بمقتضاه العرش لأبنه تحت وصاية ماري لويس. وأرسل كولينكور، ومكدونالد ونَيْ Ney إلى باريس لتقديم هذا العرض. وفي الطريق توقفوا عند معسكر إيسون Essonne لاستشارة مارمون Mormont فراعهم أن وجدوه قد شرع في التفاوض مع شفارتسنبرج حول شروط تسليم المدينة.

وفي تلك الليلة (٤-٥ أبريل) قاد مارمون رجاله البالغ عددهم ١١,٠٠٠ عبر تخوم المدينة بعد أن قبل تماماً شروط شفارتسنبرج المتساهلة. وفي ٥ أبريل أحاط قادة الحلفاء كولينكور علماً بأنهم لن يتعاملوا منذ الآن مع نابليون إلا إذا تنازل عن العرش دون قيد أو شرط وفي هذه الأثناء أرسلوا جنوداً لتطويق فونتينبلو لمنعه من الهرب.

وخفف إسكندر من وطأة هذه الإجراءات القاسية بأن حمى باريس من السلب والنهب، كما قام بزيارات ودية لكل من ماري لويس، وجوزفين، وهورتنس Hortense. لقد كان الروسي هو الأكثر تحضرًا من بين الفاتحين. لقد حثَّ زملاءه على أن يوقعوا معه «معاهدة

فونتينيلو» التي تقدم لنابليون جزيرة في البحر المتوسط كسجن فسيح ينعم فيه بسماء إيطالي «مشمس» ودخل يأتيه من فرنسا. وفيما يلي النص الأساسي لهذه الاتفاقية:

«صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون من ناحية وأصحاب الجلالة إمبراطور النمسا.. وإمبراطور كل روسيا، وملك بروسيا يتعهدون بالأصالة عن أنفسهم وكل حلفائهم..

مادة (١) : يتخلّى صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون بالأصالة عن نفسه وأخلفه وذرته وكل أفراد أسرته عن كل حقوق السيادة في الإمبراطورية الفرنسية.. وفي كل المناطق الأخرى.

مادة (٢) : يحتفظ صاحبها الجلالة: الإمبراطور نابليون والإمبراطورة ماري لويس بالألقابهما ورتبهما طوال فترة حبائهما. ويحتفظ أيضاً كل من: أم الإمبراطور وإخوته وأخواته وأبناء إخوته وأبناء أخواته وبنات إخوته وبنات أخواته - أينما حلوا بالألقاب الملكية.

مادة (٣) : جزيرة إلبا Elba التي اختارها صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون كمقر ستبقى خلال حياته ولاية منفصلة يتملّكها ويكون له فيها حق السيادة الكاملة، وهي ملك له.

وعلاوة على ذلك سيقدم للإمبراطور نابليون عائد سنوي مقداره ٢,٠٠٠,٠٠٠ فرنك كمِلك خالص له من الخزانة الفرنسية يحول منها ١,٠٠٠,٠٠٠ للامبراطورة^(٣٣). (المفهوم أن الحلفاء سيدفعون هذا المبلغ مع إضافته إلى ديون فرنسا).

ووقع نابليون هذا الاتفاق في ١٣ أبريل كما وقع تنازله الأول عن العرش ومن ثم وقّعه الحلفاء. لقد كان نابليون يتطلع إلى كورسيكا لتكون منفي له لكنه علم أنه لن يُسمح له بذلك لأن كورسيكا حاضنة للثورة (مهدّة لها)، فكانت إلبا Elba هي اختياره الثاني^(٣٤). ولم يُسمح ماري لويس باصطحابه إلى إلبا، وكانت قد حاولت اللحاق به في فونتينيلو، لكن الحلفاء حالوا بينها وبين رغبتها كما أن نابليون - بدوره - لم يشجّعها على القدوم إليه^(٣٥). وفي ٢٧ أبريل غادرت مع ابنها رامبوويه Rambouillet قاصدة قينا، وكان هذا على غير رغبتها.

وربما يكون نابليون قد أثناها عن القدوم إليه لاعتزامه الانتحار. لقد لاحظنا فيما سبق أن الدكتور يفا Yvan قد أعطاه قبينة سُمّ عند عودته من روسيا، وفي ليلة ١٢-١٣ أبريل ابتلع محتويات القبينة، ويبدو أن السمّ كان قد فقد مفعوله فعاني نابليون لكنه شفي واعتراه الحجل كثيراً لهذا، فراح يسرّ استمرار وجوده على قيد الحياة بأن اقترح على نفسه كتابة سيرته الذاتية التي تقدم القصة من وجهة نظره والتي تحتفي بأعمال الشجعان الذين قاتلوا معه Mes braves^(٣٦).

وفي ١٦ أبريل كتب وداعاً لجوزفين: «لا تَسْئِي هذا الذي لم ينسَكِ ولن ينساكِ أبداً»^(٣٧) وماتت جوزفين بعد ذلك بشهر (٢٩ مايو)، وفي ١٩ أبريل وداع خادمه الخصوصي كونستانت (قسطنطين) وحارسه الشخصي روستام Roustam (النص مملوكه Mameluke) وفي ٢٠ مايو وداع جنود حرسه القديم الذين كانوا قد بقوا معه إلى النهاية: «أيها الجنود وداعاً، فطوال عشرين عاماً كنا فيها معاً كان تصرفكم مثالياً محققاً لكل رغباتي. لقد كنت أجدكم دوماً على طريق العظمة.. فبكم وبالرجال الشجعان الذين لا زالوا مخلصين كان يمكنني أن أقود حرباً أهلية لكن فرنسا ساعتها لن تكون سعيدة. إذن كونوا مخلصين لملكتكم الجديد، وكونوا مطبيعين لقادتكم الجدد ولا تخلوا عن وطنكم المحبوب».

لا تندبوا حظي، فسأكون سعيداً إذا علمت أنكم سعداء. ربما مت.. لكنني إن كنت قد رضيت بالحياة فليس إلا لاستجلاء مزيد من عظمتكم. سأكتب عن الأمور العظيمة التي حققناها.

لا أستطيع أن أعانقكم واحداً واحداً، لكنني سأعانق جنرالكم تعالى يا جنرالي لاضمك إلى قلبي. أحضر لي العُقاب (النسر) لاعانقه أيضاً (النسر هو شعار الحرس). آه يا عقابي (ناري) العزيز، ربما تجد هذه القبلة التي أقدمها لك - صداتها لدى الأجيال القادمة. وداعاً يا أولادي، سأيتمنّى لكم قلبي دوماً أحسن الأماني. لا تنسوني!»^(٣٨).

واختار أربعينات من الحرث ليصحبوا إلى جزيرة إلبا. ودخل العربية مع الجنرال بييرتران Bertrand الذي سيظل معه إلى النهاية وصحبه أربعة من ضباط الحلفاء للتأكد من غرضه -

روسي وبروسي ونمساوي وإنجليزي، كما صحبته حامية فرنسية صغيرة لحمايته^(٣٩). لقد كان في حاجة إلى حماية في أثناء مروره في بروفنس Provence حيث كان السكان كاثوليكًا متعصبين كما كانوا موالين للملكية على نحو ما فراحوا يوجهون له الإهانة في أثناء مروره. وفي أورجون Orgon بالقرب من آرل Arles رأى تمثاله مشنوقاً، وهدّته الجماهير، وأمرته أن يقول «عاش الملك» فامتنع للأمر تماماً كما سبق للثوار أن أجبروا لويس السادس عشر على الهتاف للثورة. وبعد ذلك تنكر بارتدائه حلّه رسمية وعباءة قد مهما له الضباط النمساويون والروس. وارتفعت روحه المعنوية في ٢٦ أبريل عندما وجد أخته بولين Pauline في انتظاره في لي لوس Le Lus. لقد تركت الريفيرا الفرنسية وتخلت عن دعوة Felice Bacciochي إلى روما، وملكت في بيت ريفي صغير وكتبت إلى فيليبس باكيوشي «إن الإمبراطور سرعان ما سيمر من هنا وأنا راغبة في رؤيته لأعبر له عن عواطفني، فأنا لم أكن أحبه كامبراطور وإنما لأنه أخي»^(٤٠) ورفضت أن تعانقه وهو متذكر، فأزاح عن نفسه ملابس التنكّر وراح ينعم بإخلاصها ووفائها طوال أربع ساعات.

وفي ٢٧ من الشهر نفسه واصل الطريق إلى فريجو Frejus وهناك (في ٢٨ أبريل) حيث السفينة البريطانية (أندونتد Undaunted – ومعناها الشجاع أو الجسور) بإطلاق إحدى وعشرين طلقة من مدافعها، وأبحر قاصداً إليها، وحاول طوال الأشهر التسعة التالية أن يتعامل مع هذا السلام الذي اتسمت شروطه بالسذاجة.

إلى واترلو

[١٨١٤ - ١٨١٥]

١- لويس الثامن عشر

هو لويس ١٨ ابن لويس الدوفين Dauphin (الكلمة تعني الابن البكر)، ابن لويس ١٥ فهو إذن رابع «لويس»، كما كان لويس السادس عشر «هو ثالث لويس». وحتى سنة ١٧٩١ - عندما كان في الثلاثين من عمره - كان قانعاً فيما يظهر بأن يكون كونتاً لبروفنس Provence، وكان وسيماً لطيفاً يتذوق الأدب ويدعم الأدباء ويشترك في المناوشات الرائعة في صالون خليلته^(١). وعندما حاول لويس السادس عشر الهرب من فرنسا (١٧٩١) حاول هو بدوره ونجح وانضم إلى أخيه كونت درتوا d'Artois في بروكسل Brussels، وعندما مات لويس السابع عشر في العاشرة من عمره (١٧٩٥) بعد أن ذُوِي بسبب السجن والأحزان، حمل كونت بروفنس Comte de Provence - باعتباره الوريث الشرعي لعرش فرنسا - اسم لويس الثامن عشر واعتبر نفسه ملك فرنسا طوال سنوات الثورة وطوال فترة حكم نابليون. ولأنَّ نفوذ الثورة ونابليون راحا ينتشران، فقد كان على لويس الثامن عشر أن يغيِّر مقر إقامته فراح ينتقل من مكان إلى مكان - من ألمانيا إلى روسيا إلى بولندا إلى روسيا إلى إنجلترا (١٨١١)، وهناك أيدته الحكومة، واحتفظ هو نفسه باحترام للدستور البريطاني.

وفي ٤ أبريل ١٨١٤ أصدر السينات (مجلس الشيوخ الفرنسي) وعلى رأسه تاليران القرار التالي:

«امتثالاً لاقتراح الحكومة المؤقتة وتقرير لجنة خاصة من سبعة أعضاء، يعهد مجلس الشيوخ (السينات) بحكومة فرنسا المؤقتة، لصاحب الجلالة كونت درتوا d'Artois بمسئَّ ليفتينانت جنرال المملكة حتى يتم استدعاء لويس - ستانيسلاوس زافييه - Stanislaus - Xavier ليشغل عرش فرنسا مع قبول الصيغة الدستورية^(٢)».

ودعا الدستور الذي صاغه مجلس الشيوخ (السينات) إلى عفو عام عن الشوريين الذين على قيد الحياة، كما دعا إلى إلغاء الرسوم الإقطاعية والأعشار الكنسية، وأكَّد صحة حجج الملكية التي يحوزها من اشتروا ممتلكات الدولة (ما صودر من الكنيسة ومن المهاجرين الذين تركوا فرنسا عقب أحداث الثورة الفرنسية) والإبقاء على مجلس النواب ومجلس الشيوخ واحترام الحريات المدنية وسيادة الشعب.

وطلب لويس وقتاً للتفكير وقد أسعده الدعوة لشغل العرش الفرنسي وأزعمجته الشروط المفروضة. وفي ٢٤ أبريل غادر إنجلترا قاصداً فرنسا. ومن سان أون Ouen (في ١٢ مايو) أعلن أنه سيحترم غالب ما ورد في الدستور المقترح لكنه يرفض سيادة الشعب لأنها تتعارض مع الحقوق الوراثية للملك كما منحها الله. واقتصر أن «يمنع» فرنسا ومجلس الشيوخ «ميثاقاً Charter» بدلاً من الدستور. وسيصبح مجلس الشيوخ (السينات) مجلس نبلاء Chamber of Peers ويتم انتخاب أعضائه بواسطة الناخبين الذين يدفع الواحد منهم ثلاثة فرنك أو أكثر كل سنة كضرائب مباشرة، وسيكون على هذين المجلسين إدارة عوائد الحكومة ونفقاتها. وأغرى العرضُ بالسيطرة على أموال فرنسا، المجلسين بقبول الميثاق (عوضاً عن الدستور) وتعهد الملك بالتعاون، وهكذا عاد حكم البوربون (٤ يونيو ١٨١٤).

وفي مجملة هذه التغييرات قُلصت القوى المتحالفَة على وفق «معاهدة باريس الأولى» (٣٠ مايو ١٨١٤) حدود فرنسا إلى ما كانت عليه في سنة ١٧٩٢، وأعطيتها شامبرى Chambery، وأنيسى Annecy وملهوس Mulhouse، ومونتبلييار Montbeliard. وسلمت فرنسا مستعمرات مهمة لإنجلترا وإسبانيا واعترفت بالحكم النمساوي لشمال إيطاليا، ووافقت - مقدماً - على أية قرارات سيتخذها مؤتمر فيينا فيما يتعلق بكل المناطق التي استولت عليها فرنسا منذ سنة ١٧٩٢.

وبعد أن استقر لويس الثامن عشر في التوليري شعر أنَّ من حقه أن يستريح ويسترخي ويُسعد بعودته ملكاً، وراح يتحدث عن عام ١٨١٤ باعتبارها «السنة التاسعة عشرة لحكمي». لقد أصبح عمره الآن ٥٩ سنة وسيماً ودوداً كسولاً بطيئاً سميناً مصاباً بداء

المفاصل، ولم يكن في كل حالاته ملكاً. لقد أسلم نفسه لحكومة دستورية، وكيف نفسه - بكىاسة - مع ناخبي وخطباء ومتنازعين وصحافة أصبحت تنعم بحرية أكثر مما كانت تنعم به في ظل حكومة الإدارة أو نابليون، وانتعشت الصالونات بالمناقشات الأدبية والسياسية. وبعد أن أصبحت مدام دي ستيل منتصرة (معنى أن أغراضها قد تحققت) واصلت اجتماعاتها في باريس واستضافت الملوك.

وكانت النجاحات الاقتصادية التي حققها الحكم الجديد مدعاه لسعادة الشعب بشكل عام. لقد كان لويس ١٨ حيناً سليماً فترك قوانين المدونة القانونية النابليونية دون تغيير وترك - وبدون تغيير أيضاً - نظام نابليون القضائي والإداري، كما أنه (أي لويس) لم يغير البنية الاقتصادية. وكما كان نابليون محظوظاً بأن وجد لوزارة المالية - تلك الوزارة الحيوية - شخصاً على قدر كبير من الكفاءة والاستقامة هو فرانسو موليا François Mollien كذلك وجد لويس الثامن عشر لشغل هذا المنصب نفسه البارون جوزيف - دومينيك لويس Dominique Louis Baron Joseph الذي واجه دون توان متطلبات الخزانة وقاد كل إغراءات الخداع المالي (المعالطات المالية).

وقد أشاد البلاط الملكي بجهوده كرمز لتسهيل الانتقال من نظام حكم إلى نظام حكم آخر (كمراحلة انتقال)، وفي العام الأول من الحكم الجديد، كان هناك قدر قليل من الانتقام من أولئك الذين عملوا مع نابليون. لقد راح المارشالات الامبراطوريون (الذين عملوا مع نابليون) يختلطون بحرية مع الملكيين من ذوي الأنساب في بلاط البوربون ونستثنى من هؤلاء المارشال دافو Davout، أما أفراد النبلاء الدنيا مثل مدام دي ريموزا Remusat والسيد ريموزا الذين كانوا قريبيين من نابليون فراحوا يتبعيدون عند الضريح الذي أعيد ترميمه وصقله (المقصود: راحوا يتقربون للبوربون من جديد)، وسخر تاليران قائلاً: «إن البوربون لم يتعلموا شيئاً ولم ينسوا شيئاً» وقد يكون هذا القول صحيحاً بالنسبة إلى الكونت درتوا Artois' الذي كان متكبراً بغياء رغم طباعه الجيدة ومنظره الحسن، لكن هذا القول لا ينطبق على لويس ١٨، بل إن نابليون نفسه شهد بعد ذلك (في سانت هيلانا) بسرعة قبول معظم الفرنسيين للحكم القديم بعد إلهاق تجديدات به كما لو كانوا قد وقعوا في أسر

العادات القديمة الراسخة منذ زمن بعيد، بحيث لم يكن ممكناً استئصالها تماماً.

ومع هذا كان هناك شيء من الاستياء وعدم الرضا. لقد جحدت الكنيسة الكونكوردات Concordat النابليوني وأصرت على عودة سلطانها كما كان قبل الثورة، خاصة سلطانها على التعليم. وحصلت الكنيسة من الملك على مرسوم بمراعاة الالتزام الديني الصارم في أيام الأحد وأيام الأعياد الدينية، ففي هذه الأيام يتبعن إغلاق كل الحال من الصباح إلى المساء فيما عدا محل الكيماويين (المقصود الصيادلة) والعشابين، ولم يكن مسموحاً في هذه الأيام: (الآحاد والأعياد الدينية) بالقيام بأعمال مدفوعة الأجر أو نقل البضائع لأغراض تجارية^(٣). وأصبح من الصعب عدم الاعتراف بالكاثوليكية. لكن الأكثر مدعاه للإزعاج هو مطالبة الكنيسة بكل الممتلكات الكنيسية التي صادرتها الثورة، وهو طلب بدا معقولاً. لكن تنفيذه لا يمكن إلا أن يواجه بشورة مئات الآلاف من الفلاحين وأفراد الطبقة الوسطى الذين سبق أن اشتروا هذه الممتلكات من الدولة. إن خوف هؤلاء المشردين من نزع ملكياتهم كلها أو جزءاً منها جعلهم يفكرون في الترحيب بعودة نابليون مُبرئاً من داء شن الحرب.

لازالت هناك أقلية نشيطة متعلقة بمبادئ الثورة راحت - على أية حال - تعمل بشكل سري لإنقاذ هذه المبادئ. لقد راح اليعاقبة Jacobins الذين تعرضوا للضغط شديداً على يد الحكم الملكي الجديد - يعملون على أمل أن تصبح عودة نابليون ضرورة وأن يطيح بحكم البوربون، ويصبح مرة أخرى أبداً للثورة. واستطاع اليعاقبة أن يجندوا كثيرين في صفوف الجيش لتحقيق هذا الأمل. وكان المارشالات قد وقعوا أسرى كرم الملك ودماثته ولكن طبقة الضباط كانت تتطلع إلى إحياء الأيام التي كانت فيها هراوة المارشال يمكن أن يحوزها الضباط في ميدان المعركة (المعنى: يمكن أن يتحول الضباط العادي إلى مارشال على وفق بلائه في المعركة). لقد راحت طبقة الضباط تتوق لتلك الأيام خاصة وهم يرون أن طبقة النبلاء راحت تستعيد احتكارها للمناصب العليا: وكان لويس ١٨ - رغبة منه في موازنة الميزانية - قد سرّح ١٨,٠٠٠ ضباط و ٣٠٠,٠٠٠ جندي، وراح كل هؤلاء الرجال المطرودين تقريباً يناضلون ليجدوا لهم مكاناً في ظل النظام الاقتصادي السائد، وراحوا يتذكرون بحسرة أيام الإمبراطور (نابليون) التي بدت في عيونهم مثالية، تلك الأيام التي

بـدا فيها الموت دالاً على العظمة.

وكان سخط الجيش هو الأكثر وضوحاً من بين مظاهر السخط البدائية في القوى الأخرى التي فتحت الباب أمام عودة المبالغات الفاتنة. أضف إلى هذا خوف الفلاحين من نزع ملكياتهم أو عودة الرسوم الإقطاعية، وكان الصناع يعانون من تدفق البضائع البريطانية تدفقاً شديداً. لقد كان الجميع مستائين باستثناء الكاثوليك شديدي التمسك بكاثوليكيتهم والخاضعين لسيطرة الإكليروس خضوعاً شديداً، وكان حل الملك للمجلسين في نهاية سنة ١٨١٤ (لم يُعدوا حتى شهر مايو) مما زاد السخط، وكان الفقراء مستاءين في طوابا نفوسهم لفرنسا النابليونية المشيرة ذات البهاء؛ كل هؤلاء كانوا سهلي الانقياد وكانوا في انتظار ريح مواتية فوصلت أخبارهم إلى إلبا Elba ورفعت الروح المعنوية للمقاتلين السجين (نابليون) الذي اتضح أنه وإن كان قد جُرح فإنه لم يمت.

٢- مؤتمر فيينا: سبتمبر ١٨١٤ - يونيو ١٨١٥

كان هذا المؤتمر أكثر الاجتماعات السياسية تميزاً في التاريخ الأوروبي وكان من الطبيعي أن يكون أعضاؤه البارزون هم المنتصرين الكبار في حرب الأمم: روسيا وبروسيا والمنسما وبريطانيا العظمى، لكن كان هناك أيضاً مندوبون عن السويد والدنمارك وإسبانيا والبرتغال والباباوية وبافاريا وسكسونيا وفيرتبرج Wurttemberg ...، ولأن تاليران المخادع كان يمثل فرنسا المهزومة، فإن هذا وحده كان كافياً لوضعها في الاعتبار. وستوضح إجراءات المؤتمر مبدئين ليسا متناقضين تماماً بالضرورة: أصوات المدافع أقوى وأعلى من الكلمات، كما أن القوة قلماً تُحرز نصراً إذا لم يحكمها العقل.

كانت روسيا ممثلة بشكل أساسي بالقيصر إسكندر الأول ذي الجيش الأكبر والجاذبية الأوضح. لقد اقترح بمساعدة الكونت أندريلاس رازوموفسكي (راعي بيتهوفن) والكونت كارل روبرت نسلرود Nesselrode أن تحصل روسيا على بولندا كلها مكافأةً لها لقيادتها للحلفاء من مرحلة التردد على النيلين Niemen والسبيري Spree إلى النصر على ضفاف السين Seine، وأيد الأمير تشارلوريسكي Czartoryski مثل بولندا (بإذن من إسكندر) هذا

الاقتراح على أمل أن توحيد بولندا يمكن أن يكون خطوة نحو استقلالها.

وكان يمثل بروسيا من الناحية الرسمية الملك فريدرريك وليم الثالث وإن كان الأكثر فعالية في وفدها هو الأمير فون هاردنبرج مع فيلهلم فون همبولدت الذي كان كفيلسوف الحاشية.

لقد طالبوا بمكافأة مناسبة للقيادة العسكرية الباهرة للقائد البروسي بلوخر Blucher ولتضحيه البروس بحياتهم. ووافق إسكندر بشرط أن تسحب بروسيا دعاوتها في المنطقة البولندية التي كانت تابعة لها، وقدم لفريدرريك وليم كل سكسونيا (التي كان ملكها مسجوناً في هذا الوقت في برلين) والذي يستحق عزله من منصبه لأنه كان قد قدم الجيش السكسوني ليكون تحت إمرة نابليون، ووجد الفريهير فوم شتاين Freiherr Vom Stein أن هذا حل لظيف للمسألة.

وادعى النمسا أن دعوتها للتحالف (ضد نابليون) هي التي قررت نتيجة الحرب، ولابد - لهذا - أن تتلقى عوناً كريماً على مائدة المنتصرين. وكان بإياد النمسا عن بولندا أمراً لا يُحتمل كما أنضم سكسونيا إلى بروسيا قد يطبع بتوافر القوى كلية بين الشمال والجنوب، وبذل ميترينج كل جهده وكياسته وحدة ذهنه للحلولة بين المجتمعين وبين أن يجعلوا من النمسا قوة أوروبية (أو كياناً أوروبياً) من الدرجة الثانية. وعاون الإمبراطور فرنسيس الثاني وزير خارجيته في تحقيق هذا الغرض بإغراق ضيوفه بالولائم والحفلات. لقد كانت خزانته بعد الحرب على شفا الإفلاس، فغامر بما بقي فيها بإغراق ضيوفه بالنبيذ والشمبانيا (نوع من الخمور) وإتخاذهم بالوجبات الدسمة Neanderthal Meals، وتالقت صالات القصور الملكية طوال معظم الليل بالحفلات المسرفة، وظهر الممثلون والممثلات والمعنون والمعنونيات والفنانون والفنانات لتحقيق البهجة لأصحاب الجلالة والسعادة والسمو ومن معهم.

وهز بيتھوفن مشاعر المدينة بمقطوعته "Die Schlacht Von Vittaria" وحملت النسوة الجميلات ثروات طائلة في ملابسهن وشعرهن (المقصود الحلي والمجوهرات)، وأبدى العيان كثيراً من زينتهن بقدر ما يسمح احترامهن الرقيق للكاردينال كونسالفي Consalvi،

وأصبحت الخليلات رهن إشارة الباحثين عنهن من ذوي المكانة، وسدّت المظليات والمومسات حاجة أفراد النبلة الدنيا. وسرت الإشاعات في المدينة عن علاقات القيصر الغرامية^(٤).

لقد ربح قيصر النساء لكنه خسر معركته الدبلوماسية. لقد راح ميترينج يبحث عن حلفاء ضده (ضد القيصر) من بين أعضاء وفود القوى الصغرى. لقد دافع عن أن مبدأ الشرعية يمنع سلب ملك (نزعه من ملكه) وهو الاقتراح الذي قدمته كل من روسيا وبروسيا فيما يتعلق بسكسونيا وملكيها. وقد اتفقوا، لكن كيف يستطيعون إقناع روسيا بهذا المبدأ وهي تركز على جبهتها الغربية ٥٠٠,٠٠٠ جندي؟ وناشد ميترينج اللورد كاسلريه Castlereagh المتحدث باسم إنجلترا: ألن تتوقع إنجلترا شرا من روسيا الممتدة عبر بولندا والتحالف مع بروسيا المنتفخة بضم سكسونيا إليها؟ ماذا سيفعل هذا بتوزن القوى شرقاً وغرباً؟ وير كاسلريه موقفه قائلاً إن بريطانيا في حرب مع الولايات المتحدة ولا تستطيع المخاطرة بمواجهة روسيا.

وهنا لجأ ميترينج - كملاذ أخير - إلى تاليران لقد كان ميترينج قد أغضب الرجل الفرنسي (تاليران) باستثناء فرنسا من الاجتماعات الخاصة «لالأربعة الكبار Big Four» كما استثنى معها «القوى الأقل أهمية»، وأجل (أي ميترينج) أول اجتماع شامل لكل الدول التي حضرت المؤتمر إلى أول نوفمبر ١٨١٤. فكون تاليران فكراً عاماً (قضية مشتركة) بين كل أعضاء الوفود الذين لم يحضروا اجتماعات الأربعة الكبار، وسرعان ما وافقوا على أن يكون متخدثاً باسمهم. وبعد أن أصبح موقفه قوياً على هذا النحو بدأ يتحدث عن فرنسا كقوة لازالت من الدرجة الأولى، يمكنها أن تقيم جيشاً من ٣,٠٠٠,٠٠٠ مقاتل وتموّله. ووُجد ميترينج في هذا أملاً (أفكاراً واعدة يمكن استثمارها) مع أنه ربما يكون قد اعتبر هذا تهديداً. وضمن تاليران موافقة لويس ١٨، وكسب الدبلوماسيان (تاليران وميترينج) تأييد كاسلريه Castlereagh الذي عقدت بلاده الآن اتفاق سلام مع أمريكا. وفي ٣ يناير ١٨١٥ كون كل من فرنسا والنمسا وبريطانيا العظمى تحالفًا ثلاثياً Triple Alliance ليؤازر بعضهم بعضاً آخر للحفاظ على توازن القوى. وعندما وُجهت روسيا بهذا التحالف الجديد

سحبت كل دعاً لها في بولندا، ووافقت بروسيا – بعد أن استعادت ثورن Thorn وبوزن Posen – على أن تحصل على **خُمُسٍ سكسونيا** فقط. لقد أصبح من حق تاليران أن يفخر بأنه حُول بدبليوماسيته فرنسا من متسلّل مُهان إلى قوة كبرى مرة أخرى.

وبعد نحو تسعه أشهر من المساومة أعاد أصحاب الجلالة والفخامة والسمو المجتمعون توزيع أراضي أوروبا على وفق المبدأ القديم – تبقى الأسلام^ل للمنتصررين إن كانوا مازالوا أقوىاء قوّة تمكنّهم من الاستيلاء عليها، وظهر هذا واضحاً في «قرارات مؤتمر فيينا» الصادرة في 8 يونيو 1815. واحتفظت مالطا باعتبارها مركز حراسة تابعاً لها في قلب البحر المتوسط، وبسطت حمايتها على الجزء الابوبي كمراكز حراسة تابعة لها في الأدرياتي وشرق البحر المتوسط. وأعادت بعض المستعمرات الفرنسية والهولندية التي كانت قد استولت عليها في أثناء الحرب، لكنها احتفظت لنفسها مستعمرات أخرى لم تردها (خاصة سيلان ورأس الرجاء الصالح) واستعادت سيطرتها على هانوفر ورتب تفاهماً مشتركاً قوياً مع مملكة الأرضي المنخفضة Netherlands الجديدة التي تضم الآن هولندا وبلجيكا وبالتالي تضم بين جنبيها مصبّات نهر الرّاين.

وعانت بولندا من تقسيم جديد مع بعض التحسينات. وتسلّمت بروسيا المناطق الحبيطة بكلٍّ من بوزن Posen ودانزج (دانتسج Danzig)، وتسلّمت النمسا جاليسيا Galicia، وتسلّمت روسيا دوقية وارسو (فرسافا) الكبرى التي أصبح اسمها مملكة بولندا وأصبح القيصر الروسي ملكاً عليها كما أصبح لها دستور ليبرالي.

لقد خرجت بروسيا من الحرب بمكاسب أعدّتها لبسمارك (بمعنى أنها أصبحت تربة صالحة لأفكار بسمارك وجهوده) : فبالإضافة إلى **خُمُسٍ سكسونيا** ضمت إليها بوميرانيا Neuchatel السويدية وريجن Rugen ومعظم وستفاليا Westphalia ونيوشاتل the Rhine في سويسرا، وتأثير سائد غلاب في الكونفدرالية الالمانية German Confederation التي حلّت الآن محل الكيان الذي كان نابليون قد أسماه كونفدرالية الراين Confederation of the Rhine. واحتفظت سكسونيا بثلاثة أخماس أراضيها السابقة واستعادت ملكها. أما النمسا فبالإضافة إلى أراضيها التي كانت في حوزتها قبل مؤتمر فيينا حصلت على سالزبورج.

(سالتسبورج Salzburg) وإليريا، ودللاشيا والتيرول و«المملكة اللومباردية الفينيسية» في الشمال الإيطالي. وعادت الولايات الباباوية إلى البابا، وعادت توسكانيا إلى الحكم الهايسبرجي البوربونى. وأخيراً أدان المؤتمر تجارة الرقيق إذعنانًا لل المسيحية.

وخلال شهري ديسمبر ويناير ١٨١٤-١٨١٥ نظر المؤتمر بجدية إلى اقتراحات باتخاذ المزيد من الإجراءات مع نابليون. لقد كان من رأي بعض أعضاء الوفود أنه من المؤكد أن هذا الرجل المشير (نابليون) لن يستقر راضياً لفترة طويلة وهو حاكم لجزيرة إلبا الصغيرة، وهذه الجزيرة (إلبا) قريبة جداً (بشكل غير مريح) لإيطاليا وفرنسا. فـأي إزعاج سيسببه إن هرب منها؟ وكانت هناك اقتراحات عديدة بإرسال قوة عسكرية إلى إلبا للقبض على نابليون وعزله في مكان آخر أكثر بُعداً، وأكثر أمناً لأوروبا. وكان هذا أيضاً هو رأي تاليران وكاسلريه، ولكن القيصر إسكندر اعترض، فاستقر الأمر على تركه في إلبا^(٥).

وبينما المؤتمر على وشك إنتهاء أعماله وصلته في بكور صباح ٧ مارس رسالة تحمل خاتم «طارئ وعاجل». لقد كانت هذه الرسالة من القنصل النمساوي في جنوه ووجهة إلى الوزير النمساوي ومفادها أن نابليون هرب من إلبا. وعندما أحياطت الوفود علماً وافقت على تأجيل فض المؤتمر وأن يبقوا في فينا حتى يتم الاتفاق على عمل موحد. وفي ١١ مارس وصلت أخبار أخرى مفادها أن نابليون قد نزل بالقرب من أنتيب Antibes، وفي ١٣ مارس أصدر المؤتمر من خلال «لجنة الشمانية» إدانة لنابليون مع اعتباره مُهَدَّر الدم، فكل من يقتله لا يقع تحت طائلة القانون، وكان المؤتمر قد أكمل برنامجه، لكنه رغم تفرق الوفود ظل رسمياً منعقداً حتى ١٩ يونيو عندما وصلت أخبار بهزيمة نابليون في واترلو في اليوم السابق. ساعتها أعلن المؤتمر إنتهاء أعماله رسمياً.

٣- إلبا

وصل نابليون إلى بورتو فِريَاو في ٣ مايو ١٨١٤. ونزل إلى البر في صباح اليوم التالي فاستقبله سكان المدينة بترحيب يفوق الوصف ظناً منهم أنه أحضر معه ملايين الفرنكـات لينفقها (في جزيرتهم) وكانوا قبل ثمانية أيام قد شنقو تمثـالـاً له باعتباره رجلاً مولعاً

بالحرب إلى حد الجنون^(٦). لقد حفّوه حارسين له إلى قصر المحاكم الذي أصبح لابد، الآن، يكتسي بالأبهة الإمبراطورية. وطوال التسعة شهور التالية كان على نابليون أن يكون إمبراطوراً على جزيرة مساحتها ٨٦ ميلاً وسكانها ١٢,٠٠٠ نفس. وأحاط نفسه بكل مظاهر العظمة - ملابس فاخرة وحرس ملكي وحجاب وياورات وخدم وحشم وموسيقيين ومائة حسان وسبع وعشرين عربة، وربما كان هذا في جانب منه لإيمانه بأن المظاهر هي لعبه الحكم^(٧). وفي ٢٦ مايو أتى ٤٠٠ عضو من أعضاء الحرس القديم لخدمته كنواة لجيش مصغر. وأتى نحو مائتي متتطوع من فرنسا كما أتاه متتطوعون آخرون من إيطاليا وكورسيكا فسرعان ما أصبح لديه نحو ١٦٠٠ مقاتل مستعدين للحرب في مواجهة أية محاولة لايذاء إمبراطورهم المحبوب رغم كراهية آخرين له. وليتمتع بمزيد من المناعة حصن الميناء ونظم أسطولاً - سفينة كبيرة بصاريين (السفينة إنكونستانت Inconstant) وأربع سفن صغار، وكانت كلها مسلحة.

كيف أمكنه تمويل كل ذلك، وغير ذلك من الأعمال العامة والمشروعات التي حسن بها أحوال الجزيرة؟ لقد كانت معاهدة فونتيبلو قد ضمنت له مبلغًا سنويًا يأتيه من فرنسا، لكن ذلك لم يحدث، ولم يتلق المبلغ^(٨). لقد كان نابليون على أية حال قد أحضر معه ٣,٤٠٠,٠٠٠ فرنك ذهبًا وفضة، وجمع ٤,٠٠٠ ليرة سنويًا من الضرائب وعوائد أخرى. وبعد انقضاء نصف عام راح يفكر في كيفية مواجهة هذه النفقات إذا مكث في الجزيرة أكثر من عام.

وظل لفترة سعيدًا بشكل معقول، واضعاً في اعتباره أسلوبه الموسعة (المقصود خططه طويلة المدى)، وفي ٩ مايو كتب إلى ماري لويس: «وصلت هنا منذ خمسة عشر يوماً. لقد اتخذت لي محل إقامة جميلاً.. صحتي على ما يرام. المنطقه (الجزيرة) مقبولة. لا ينقصني سوى أخبار منك وتأكيدات بأنك على خير ما يرام.. إلى اللقاء يا حبيبي. قبلة لأبني»^(٩).

وكان ابن آخر مع أمه الكونتيسة المخلصة فالفسكا Walewska من بين أول من زاره، وظن البحارة والمواطنوون أنها إمبراطورة، فرحبوا بها كما يجري الترحيب بإمبراطورة. وانزعج

نابليون فقد كان يأمل أن تلحق به زوجته (ماري لويس) وابنه «ملك روما»، فاستراح ليوم أو يومين بين ذراعي فالفسكا^(١٠) ثم طردها برفق متعللاً بالأحوال. وربما تكون ماري لويس قد سمعت إشاعات مبالغ فيها عما جرى في هذين اليومين^(١١).

وفي أكتوبر أتت أمه وأخته بولين للإقامة معه. وقدّمت له بولين جواهرها والتّمّست منه الأعذار لما ظهر من مورا Murat من عدم ولاء. واهتمت به أمه اهتماماً مفعماً بالعاطفة، وواسته وقدّمت له كل مدّخراتها. وظلت أمه وأخته معه رغم افتقادهما حيوية الحياة الإيطالية.

ويمكّنا أن نتصوّر كم كان يعاني بعد الشهور القليلة الأولى من المجلل الصغير للجزيرة، وضيقها عن إمكاناته الكبيرة وأحلامه العظيمة. وحاول أن يهرب من الملل بالانهماك في النشاط البدني، لكن ما كان يمضى يوم حتى تأتيه أخبار من البر الأوروبي تزيده اضطراباً وتحول بينه وبين الاستقرار. لقد أخبره مينيفال Ménéval الذي كان في خدمة ماري لويس في فيينا عن المناقشات التي جرت في المؤتمر (مؤتمر فيينا) بخصوص إبعاده عن جزيرة إلبا إلى مكان أبعد ضماناً لأمن أوروبا^(١٢) وأضاف قائلاً له إن المؤتمر ربما ينتهي في ٢٠ فبراير. وأخبره آخرون باستياء الجيش الفرنسي، ومخاوف الفلاحين وهياج اليعاقبة وعودة نظم العبادة الكاثوليكية إلى قوتها الأولى. وفي فبراير ١٨١٥ أُرسّل له هوج مار Hugues Maret (دوق باسانو Duc de Bassano) رسالة حملها فلوري دي شابولو Fleury de Chaboulon يؤكد له فيها كل هذه التقارير^(١٣).

واندهش لهذه التقارير التي أُنعشت فيه الآمال بنهاية أكثر نبلًا من الموت بسبب الفراغ والعزلة، فأخبر أمه بنوایاه وطلب منها النصح، فاعتراها القلق من أنها لو تركته الآن يذهب فلن تراه مرة أخرى أبداً، فقالت له: «دعني أنعم بالامومة لفترة وبعدها سأقول لك رأيي» لكنها علمت أنه كان قد قرر بالفعل أن يقوم بعوامته الأخيرة. فقالت له «اذهب يا ولدي إلى قدرك» (النص: اذهب لتنفيذ ما كتبه القدر لك^(١٤)).

لقد شعر أنّ عليه أن يعمل بسرعة. فإن انقضى وقت قصير قد لا يكون لديه الوسائل التي يدفع منها لهؤلاء الفرنسيين البالغين ألمًا الذين خدموه والذين يجب أن تستمر

خدماتهم. إن الظروف قد تطورت بما يسمح له بمحاولة لاستعادة عرشه والدفاع عنه ليورثه ابنه الجميل كأدونيس Adonis بعد تدريبه على فنون الحكم. لقد كان الحلفاء ينهون مؤتمرهم وبسبيل عودتهم إلى بلادهم مصحوبين بجنودهم، وربما يكونون قد أصبحوا مستعدين للاستجابة لدعوته للسلام فرادى. لقد كانت لياليه لا تزال طويلة، وفي جنح الليل يمكن لاسطوله الصغير أن يُفلت من المراقبة ليكون - مرة أخرى - على الأرض الفرنسية.

* *

لقد جهز أموره بسرية قدر الإمكان، لكن من خلال تفكيره العميق ونظره الثاقب كما هو معهتم به. لقد أمر الحرس الإمبراطوري وثمانمائة من رماة القنابل (المجموع ١١٠٠ مقاتل) أن يُعدوا أنفسهم ليكونوا على رصيف الميناء في مساء ٢٦ فبراير للقيام برحلة تستغرق عدة أيام إلى جهة غير محددة، ومع هذا فقد استنتجوا أنهم ذاهبون إلى فرنسا وأسعدهم هذا.

وفي مساء اليوم المحدد عانق أمه وأخته (اللتين كان عليهما أن تتجها حالاً إلى أصدقاء في إيطاليا) وانضم إلى كتيبته الصغيرة وركبوا معه السفينة إنكونستانت والسفن الأربع الصغار وأبحروا بهدوء في جُنح الليل. ولم تكن الريح مواتية فكانت تهمد حيناً فتترك أسطولهم بلا عنون، وأحياناً كانت تقترب بهم إلى الشاطئ، واعتراهم القلق مخافة أن تعرفهم السلطات ويتم إيقافهم فيتعرضون للسجن بشكل مخز. لقد ظلوا طوال ثلاثة أيام يبحرون شمالاً ثم غرباً متتجاوزين جنوا والريفيرا الفرنسية. وفي أثناء الإبحار على هؤلاء الرجال - من يعرفون الكتابة - أن يستنسخوا مئات النسخ من بيان نابليون الذي سيُوزع في فرنسا:

«أيها الفرنسيون

لقد سمعتُ في منفأٍ تفجعكم ودعاءكم. إنكم تتطلعون إلى الحكومة التي تختارونها، فالحكومة التي تختارونها هي وحدها الحكومة الشرعية. لقد عبرتُ البحر، وإنني آتٍ لاسترداد حقوقك التي هي حقوقكم - بالنسبة إلى الجيش: إن ممتلكاتك ورتبك وعظامتك ومجدك، هي ممتلكات أبنائك ورتبهم وعظامتهم ومجدهم، وليس هناك للأبناء

أعداء أشد وطأة من هؤلاء الأمراء الذين فرضهم الأجانب عليكم.... إن النصر سيُسرع الخطى، والنصر (العقاب) والأعلام الوطنية ستتحلق فوق كل أبراج الكنائس من برج كنيسة إلى برج كنيسة آخر، بل حتى على أبراج نوتردام Notre Dame. ستكونون أنتم محرري وطنكم^(١٥).

٤- رحلة لا تصدق: ٢٠ مارس ١٨١٥

ظهر الأسطول الصغير الذي يحمل الإمبراطور وقدره أمام رأس أنتيب Cap d' Antibes في فجر أول مارس، وفي وسط النهار بدأ الجنود البالغ عددهم ١١٠٠ بالنزول إلى البر في جolf جوان Golfe Juan، وقفز بعضهم في المياه الضحلة وخاضوا إلى الساحل. وكان نابليون آخر من هبط، فأمر بإقامة معسكر مؤقت في مزرعة زيتون بين البحر والطريق من أنتيب إلى كان Cannes. وأرسل مجموعة صغيرة إلى كان لشراء خيول ومؤن على أن يدفعوا ثمنها نقداً إذ كان قد أحضر معه من إلبا ٨٠٠,٠٠٠ فرنك ذهباً. وأمر مجموعة أخرى أن تذهب إلى أنتيب لتحث حاميتها على الانضمام إليه، فعنف أمراً الخامدة مبعوثي نابليون وسجنهما ولم يحاول نابليون التوجّه إليه لإطلاق سراح رجاله فقد كان قد قرر الاستيلاء على باريس دون أن يطلق طلقة واحدة.

لم يجد نابليون ترحيباً في أنتيب فلم يكن العابرون يبدون حماساً عندما كان يقال لهم إن الرجل الضئيل الحجم الذي يدرس الخرائط على منضدة في الهواء الطلق هو الإمبراطور. لقد كانت المنطقة قد أصابها الضرر بسبب الحرب والتجنيد الإلزامي والحاصار المزدوج (حاصار بريطانيا للسواحل الفرنسية والحاصار المضاد الذي فرضه نابليون على البضائع البريطانية) وبالتالي لم يكن لدى أهل أنتيب شهية للمزيد من هذا. وأتى محافظ أنتيب (رئيس بلديتها) ليتفحّص أحوال هؤلاء الغزاة (نابليون ورجاله) وقال لنابليون: «لقد كنا قد بدأنا نشعر بالسعادة والسكون. إنك ستفسد كل شيء». وقد تذكر نابليون بعد ذلك وهو في سانت هيلانا هذا القول، فذكر لجورج Gourgoud: «لن أقول لك كيف أثّرت في هذه الملاحظة ولا الألم الذي سببته لي^(١٦)». وأكد له مراسل (جاسوس) عابر أن كل الجيش

والعوام يقفون إلى جانبه - على نحو أو آخر - من باريس إلى كان، «لكن أهل بروفنس Provence يقفون ضده».

وكان نابليون يعرف ذلك جيداً فتذكر تجربة المريدة في أورجون Orgon قبل ذلك بأحد عشر شهراً، والآن فإن هذه الذكريات حددت طريقه إلى باريس. لقد اختار أن يسلك الطريق الجبلي من كان إلى جراس Grasse، ودُني Digne وجريينوبيل Grenoble وليون وكانت المسطقة إلى الجنوب من جريينوبيل غير كثيفة السكان كما كانت الحاميات فيها قليلة العدد، وكانت مناطق معروفة بعدم مواليتها للبوربون. وكانت الجبال التي سيتعين مرورهم فوقها لازالت مغطاة بالجليد، وقد يتذمر من ذلك حرسه القديم ورماة القنابل، لكنهم لن يخلوا عنه.

وهكذا، في نحو منتصف ليلة الأول من مارس انطلق بجنوده البالغين ١١٠٠ في الطريق إلى كان. وكان نحو ستين منهم قد تمكنا من شراء خيول، لكن كان عليهم أن يحفظوا المسافة والألفة بينهم وبين الباقيين، ولهذا ساروا إلى جانب الركائب الحاملة للأمتعة. وعادة ما كان نابليون يركب عربة، وفي وسط الركب كان هناك حرس يحرس ذهب نابليون، كما كان هناك عدد من الكورسيكيين الصارميين يحمون المؤخرة^(١٧).

وفي جراس Grasse تركوا مدفعم لفروط ضيامته لأنه سيسبب مشكلة في طرق جبلية يجللها الجليد. وقطع المغاربون القدماء الذين اعتادوا كسب المارك بسيقانهم (المقصود بسرعة حركتهم) مسافات طيبة، وفي الخامس من مارس وصل الرُّكوب إلى جاب Gap بعد أن كان غالبيهم قد قطع ١٥٠ ميلاً في أربعة أيام. وعند لامور La Mure (٢٠ ميلاً إلى الجنوب من جريينوبيل) واجهوا أول تحدٌ خطير.

لقد كان قائد القسم الخامس في الجيش المتمرد في جريينوبيل قد تلقى أوامر من باريس بالقبض على نابليون فأرسل كتيبة من ٥٠٠ جندي لوقف المتمردين الذين اقتربوا. وعندما اقتربت الكتيبة المعترضة وتقرب أفرادها أمر نابليون رجاله بإلقاء أسلحتهم (تنحيتها جانبًا) وتقدم هو إلى الصدرة وترجّل متقدماً إلى الجنود (المهاجمين) واقترب منهم، وتوقف إزاءهم وخطبهم: «يا جنود القسم الخامس، أنا إمبراطوركم، ألا تعرفونني؟»

وکشف عن معطفه العسكري ثم قال: «إن كان بينكم جندي يريد أن يقتل إمبراطوره، فها أنا ذا» فخفض غالبهم أسلحتهم (نحوها جانبها) وصاحوا «عاش الإمبراطور» وتفرقوا الكتبة وتجمع جنودها حول نابليون سعداء محاولين لمسه، فتحدث إليهم نابليون بعاطفة جيّاشة وعاد إلى جيشه الصغير، وهناك قال «إن الأمور قد استقرّت وسنصبح في غضون عشرة أيام في التوليري^(١٨)».

وفي تلك الليلة اقتربوا من جرينوبول فتجمّهـر مئات الفلاحـين والبروليتارـيا للترحـيب بنابـليـون، وعندـما وجـدوا إـحدـى بـوابـاتـ المـديـنةـ مـغلـقةـ كـسـرـوـهاـ ليـتـمـكـنـ جـيـشـهـ الصـغـيرـ منـ العـبـورـ، وـتـرـكـ رـجـالـهـ المـرهـقـينـ لـيـنـالـواـ قـسـطـاـ طـيـباـ منـ الـرـاحـةـ حـتـىـ ظـهـرـ الـيـوـمـ التـالـيـ، وـذـهـبـ هوـ نـفـسـهـ إـلـىـ فـنـدـقـ تـرـوـاـ دـوـفـينـ Trois Dauphinsـ (الـدـلـافـينـ الـثـلـاثـةـ)، فـرـحـبـ بـهـ رـئـيـسـ الـمـجـلـسـ الـبـلـدـيـ وـمـسـؤـلـوـ الـإـدـارـةـ، بلـ وـجـاءـ الـقـادـةـ الـعـسـكـرـيـوـنـ لـتـحـيـتـهـ. وـفـيـ الصـبـاحـ أـقـبـلـتـ إـلـيـهـ وـفـوـدـ أـكـبـرـ طـالـبـةـ مـنـهـ أـنـ يـتـعـهـدـ بـحـكـوـمـةـ دـسـتـورـيـةـ. لـقـدـ كـانـ يـعـلـمـ أـنـ جـرـيـنـوـبـولـ كـانـتـ فـيـ طـلـيـعـةـ الـشـوـرـةـ وـأـنـهـ لـمـ تـفـقـدـ أـبـدـاـ تـعـطـشـهـاـ لـلـحـرـيـةـ فـحـدـثـهـمـ حـدـيـثـ منـ تـرـكـ أـفـكـارـ تـرـكـ السـلـطـةـ فـيـ يـدـ الـحـاـكـمـ (الـحـاـكـمـ الـاستـبـادـيـ) وـوـعـدـهـمـ بـالـإـلـاصـاحـ. لـقـدـ اـعـتـرـفـ أـنـهـ كـانـ أـسـرـفـ فـيـ اـسـتـخـدـامـ السـلـطـةـ وـأـنـهـ كـانـ قـدـ سـمـعـ لـلـحـرـبـ الـتـيـ كـانـتـ دـفـاعـيـةـ فـيـ الـأـسـاسـ لـتـصـبـحـ مـوـجـةـ لـلـغـزوـ فـاسـتـنـزـفـتـ فـرـنـسـاـ تـقـرـيـباـ، وـوـعـدـ أـنـ يـقـدـمـ لـفـرـنـسـاـ حـكـوـمـةـ نـيـابـيـةـ عـلـىـ وـفـقـ مـبـادـيـ ١٧٨٩ـ وـ ١٧٩٢ـ. وـقـالـ لـهـمـ إـنـ أـعـزـ أـمـانـيـهـ الـآنـ هـوـ أـنـ يـعـدـ اـبـنـهـ لـيـكـونـ زـعـيمـاـ لـبـيـرـالـيـاـ جـدـيـرـاـ بـحـكـمـ فـرـنـسـاـ الـمـتـنـورـةـ^(١٩)ـ».

وبـعـدـ ظـهـرـ هـذـاـ الـيـوـمـ (٨ـ مـارـسـ)ـ أـمـرـ أـتـبـاعـهـ بـمـواـصـلـةـ مـسـيـرـهـمـ لـأـنـهـ سـيـبـقـيـ يـوـمـ آـخـرـ فـيـ جـرـيـنـوـبـولـ لـإـصـارـ تـوـجـيـهـاتـ لـلـمـدـنـ الـتـيـ قـبـلـتـ قـيـادـتـهـ لـكـنـهـ وـعـدـ جـمـاعـتـهـ بـالـانـضـمـامـ إـلـيـهـ ثـانـيـةـ فـيـ الـوـقـتـ الـمـنـاسـبـ لـمـسـاعـدـتـهـمـ فـيـ تـحـقـيقـ اـنـتـصـارـاتـ سـلـمـيـةـ. وـفـيـ الـعـاـشـرـ مـنـ مـارـسـ اـنـضـمـ إـلـيـهـمـ وـقـادـهـمـ إـلـىـ لـيـونـ.

وـقـبـيلـ هـذـاـ الـوـقـتـ، وـصـلـتـ أـخـبـارـ مـغـامـرـةـ نـابـليـونـ إـلـىـ لـوـيـسـ الثـامـنـ عـشـرـ، فـلـمـ يـنـزـعـجـ فـيـ الـبـدـاـيـةـ، وـشـعـرـ بـالـشـفـقـةـ فـيـ أـنـ هـذـاـ الـمـتـهـمـ (نـابـليـونـ)ـ سـرـعـانـ مـاـ سـيـتـمـ إـيـقـافـهـ. لـكـنـ عـنـدـمـاـ اـسـتـمـرـتـ مـسـيـرـةـ نـابـليـونـ وـاقـتـرـبـتـ مـنـ جـرـيـنـوـبـولــ الـمـعـرـوـفـ بـعـدـائـهـاـ لـلـبـورـبـونــ أـصـدـرـ (أـيـ)

لويس) إعلاناً في السابع من مارس يُحُضُّ فيه كل مواطن على المساعدة في القبض على هذا الجرم المزعج (نابليون) لإعدامه بعد محاكمة عسكرية، كما صدر مرسوم بإيقاع العقاب نفسه على كل من ساعده. واستدعي الملك نَيْ Ney من محل تقاعده وطلب منه أن يقود قوة عسكرية ضد نابليون، فوافق، لكن قصّة تعهّده بأن يأتي بنابليون في قفص حديدي، ربما كانت قصّة موضوعه^(٢٠). لقد أسرع نَيْ Ney جنوباً، وتولّ قيادة كتيبة عسكرية في بيسانسو Besançon واستدعي الجنرال دي بورمون de Bourmont والجنرال ليكورب Lecourbe للانضمام إليه بقواتهما عند لون - لي - سونييه Lons - Le - Saunier (شمال غرب جنيف)، وتوجه للستة آلاف مقاتل الذين جُمّعوا على هذا النحو بكلام حماسي شديد لإلهاب شجاعتهم. لقد قال لهم: «حسناً. هذا الرجل القادم من إلبا حاول تنفيذ مشروعه الغبي، وسيكون هذا آخر عمل له^(٢١)» ولم يتجاوز معه رجاله إلا قليلاً.

وفي ذلك اليوم (١٠ مارس) كانت ليون ترحب بنابليون، فقد كان الصناع وأصحاب المصنع هناك قد انتعشت أحوالهم في ظل الحصار القاري الذي فتح كل أوروبا (ما عدا إنجلترا) أمام منتجات ليون ولم يكن أهل ليون يحبون المهاجرين (الذين تركوا فرنسا إثر أحداث الثورة الفرنسية) الذين عادوا الآن إلى المدينة وراحوا يتصرفون كما لو أن الثورة الفرنسية لم تقم في وقت من الأوقات أو بتعبير آخر راحوا يتصرفون كما كانوا يتصرفون قبل الثورة. وفي وسط هذا الاستياء راح أصحاب الأعمال - لأسباب خاصة بهم - يرحبون بنابليون، وكان كثيرون من أهل المدينة يعاقبة متّهمين كما ظهرت الآن على السطح تيارات لم تكن ظاهرة راحت ترحب بنابليون على أمل أن يعود بهم إلى عام ١٧٨٩. وكان الفلاحون في المناطق الداخلية قلقين بشأن أراضيهم، وراحوا يتطلّعون إلى نابليون كمخلص سينهـي لصالـهم معرـكة استـرداد الأراضـي المؤـمـمة أو الأراضـي التي وزـعـتها الثـورـة من مـمتـلكـاتـ الـكـنـيـسـةـ، وـكانـ جـنـودـ حـامـيـةـ ليـونـ تـوـاقـينـ لـوـضـعـ عـقـدـ الشـرـيطـ الأـحـمـرـ عـلـىـ حـرـابـهـ.

لكل هذا فتحت ليون ببواباتها، فهرب المالكيون وابتسم البورجوازيون وابتھج العمال والجنود، بينما كان نابليون يقود كتيبته في المدينة. وأقبل مسؤولو البلدية والقضاء بل

وبعض القادة العسكريين ليقدموا ولاءهم له، فاجابهم بأن وعدهم بحكومة دستورية وبانتهاج سياسة السلام. وانضمت الحامية كلها - فيما عدا الضباط النبلاء - إلى جيشه المتضخم (الذي راح عدده يزداد بالتدرج) وهو يواصل مسيرته إلى باريس. لقد أصبح عدد جيشه الآن ١٢,٠٠٠ كلهم مستعد للحرب بناء على أوامره، لكنه كان لا يزال عاقداً الأمل على إحراز النصر دون إطلاق النار. وكتب إلى ماري لويس واعداً إياها أن يكون في باريس في ٢٠ مارس (الذكرى السنوية الثالثة لميلاد ابنه) وقال لها إنها ستعده سعادة فوق الحد إن استطاعت اللحاق به هناك حالاً. وكتب إلى نوي Ney ملاحظات ودودة كما لو أن صداقتهما لم تشبهها شائبة قط، ودعاه للالتقاء به في شالون Chalons ووعده أن يلقاءه كما لقيه بعد معركة بوروديو Borodio، أي «كامير موسكو Prince of Moskva» وفي ١٤ مارس دعا نوي Ney (وكان لا يزال في لون - لي - سونييه Lons - Le - Saunier) جنوده جميرا وقرأ عليهم الإعلان الذي كلفه حياته بعد ذلك: «أيها الجنود إن قضية البوربون قضية خاسرة وإلى الأبد. فالأسرة الحاكمة الشرعية لفرنسا على وشك أن تعتلي العرش. إن الإمبراطور نابليون هو حاكمنا وهو الذي سيحكم بلدنا العظيم من الآن فصاعداً» فهز الجنود الأرض بصيحاتهم وهتافهم المتكرر «عاش الإمبراطور عاش المارشال نوي»^(٢٢) وعرض عليهم أن يقودهم للانضمام إلى قوات نابليون، فوافقوا، ووجدتهم نابليون في أوكيزير Auxerre في ١٧ مارس. وفي ١٨ مارس استقبل نابليون المارشال نوي Ney وتجددت صداقتهما وبعدها لم يجسر أحد على اعتراض سبيل الزحف إلى باريس.

وفي مساء ١٧ مارس اجتمع الملك لويس ١٨ بالمجلسين في قصر البوربون، مرتديا زيه الملكي كاملاً وأعلن عزمه على مقاومة نابليون. قال: «لقد عملت لسعادة شعبي، أيمكن - وأنا في الستين من عمري - أن أجد نهاية أفضل من الموت دفاعاً عنه؟» وأمر بتبعبئة كل القوى الملكية، وقد استجاب له بعض ممثلي هذه القوى وكان معظمهم - بشكل أساسي - من جنود حرس أسرته، أما الجيش النظامي فكان متواانياً بطيء الاستجابة، ولم يظهر قائده قدير يعرض قيادته لهذا الجيش أو بث الحماس فيه. وشرع الملكيون والموالون للملكية في الهجرة (ترك فرنسا) مرة أخرى.

وغضّ صالون مدام دي ستيل بالإشاعات وراحت هي أيضاً تفكّر في الهرب. وفي ١٩ مارس نشرت جريدة (جورنال دي ديبات *Journal des débats*) (أي: جريدة المناقشات) مقالاً بقلم عشيق مدام دي ستيل غير الدائم - بنيامين كونستانت يعيد فيه تأييده للويس الثامن عشر والحكومة الدستورية، ثم اختفى في مساء اليوم نفسه (أي أخفى نفسه وسترها عن العيون).

أما لويس الثامن عشر نفسه الذي كان دوماً كارها للانتقال فقد أجل رحيله حتى وصلته الأخبار في ١٩ مارس بأن نابليون وصل إلى فونتينبلو، ومن المتوقع أن يصل باريس في اليوم التالي. وفي الساعة الحادية عشرة مساء ركب لويس ١٨ مع أسرته خارجاً من التوليري فاصداً ليل *Lille* تلك المدينة الموالية للملكية بشدة لكن الملك - بلاشك - فكر في آخر له انطلق في رحلة مماثلة في سنة ١٧٩١ فأعاده الشعب سجيناً (إشارة إلى محاولة الهرب التي قام بها لويس ١٦). وفي ٢٠ مارس قام بعض البونابارييّن المتحمّسين - بعد أن علموا أن قصر التوليري قد خلا من الملك وحرسه - بدخول القصر بفرح غير منضبط، وأعدوا الغرف الملكية لاستقبال نابليون. وكان جيش نابليون كلما تقدم لهدفه ازداد عدده. وبقي نابليون نفسه في فونتينبلو حتى الثانية ليلاً. يُملي الرسائل ويصدر التعليمات، ومن المفترض أنه تجول بشغف بالقرب من القصر الذي شهد كثيراً من أحداث التاريخ بما في ذلك تنازله عن العرش للمرة الأولى، ذلك التنازل الذي حان وقت إلغائه والثار من كانوا سبباً فيه. ووصل باريس في نحو الساعة التاسعة صباحاً بصحبة بيرتران *Bertrand* وكولينكور *Caulaincourt*، فساروا ولا يكاد يترفّه أحد حتى وصلوا التوليري، وهناك كان جمع من الأقارب والأصدقاء حيّه بعاطفة جيّاشة وحملوه ليرقوا به الدرجات، وراح ينتهي من عنق أحد هم حتى يعانق الآخر حتى جلس أمامهم منهاكا مذهولاً لكنه كان سعيداً إلى درجة أن الدموع ذرفت من عينيه. وأتت هورنس *Hortense* فوبخها لأنها قبلت تودّد إسكندر إليها، فدافعت عن نفسها، فرق لها وأخذها بين ذراعيه وقال: «أنا أب طيب.. أنت تعرّفين هذا... وأنت حضرت موت جوزفين البائسة. لقد آلم قلبي موتها رغم أنني كنت أعاني من أمور سيئة كثيرة»^(٢٣).

وهكذا انتهت هذه الرحلة التي تفوق الخيال: ٧٢٠ ميلاً من كان إلى باريس في عشرين يوماً، وأنجزها غالب الجنود والرافقين سيراً على الأقدام، وأوفى نابليون وعده بأن تتم إعادة فتح فرنسا دون إطلاق نار. والآن كون حكومة جديدة لإعادة السلام والوحدة في البلاد واستعد لمواجهة ٥٠٠,٠٠٠ جندي تجمعوا من روسيا وبروسيا والنمسا وإنجلترا ليعيدهوه إلى جزيرته الصغيرة أو إلى جزيرة أخرى أبعد أو إطلاق النار عليه.

كل نهاية هي بداية، ففي ٢٠ مارس بدأ نابليون فترة حكم المائة يوم Hundred Days منها.

٥- إعادة البناء

لقد كانت عملية استعادة الحكومة والجيش والإرادة الوطنية عملية صعبة تواجهها عوائق ثلاثة: عدم شرعية موقفه، واتحاد القرى الخارجية المعادية له، وتفرق شعبه.

ها هو مرة أخرى يستولي على السلطة بالقوة، كما حدث في سنة ١٧٩٩ أو على الأقل بالتهديد باستخدام القوة ويزبح حكومة مستقرة تشرعياً. وحقيقة أنه استولى بالقوة على سلطة نُزعَت منه بقوة السلاح، لكنه كان قد تنازل عن العرش كما أن السينات Senate قدم العرش للويس ١٨ فقبله كحق شرعي له، وهو الآن (أي لويس ١٨) لم يتخلّ عنه (أي عن العرش). لقد بدا في نظر الخلفاء وعدد غير قليل من الفرنسيين مغتصباً. لقد زاد اتحاد أعدائه الأجانب ضده عن ذي قبل أي عن أيام معاركهم المشتركة ضده في عامي ١٨١٣ و ١٨١٤. لقد أجمعَت الأمم العديدة التي مُثلَّت في مؤتمر فيينا على أنه خارج على القانون. لقد تعهدَت كل من روسيا وبروسيا والنمسا وإنجلترا بأن تقدم كل منها ١٥٠,٠٠٠ مقاتل لخوض معركة جديدة لإخفائه من فوق مسرح الأحداث، ولم تكن هذه الدول وحدها، فقد قامت فدرالية الراين الجديدة بل وسويسرا الصغيرة بالإسهام في تكوين حاجز بشري ضده وتقديم المال اللازم للانقضاض عليه. وأرسل لهم نابليون عرضاً ذليلاً للمفاوضات دون إرادة دماء فلم يتلقَّ منهم رداً، وناشد والد زوجته (إمبراطور النمسا فرانسيس الثاني) للتدخل لصالحه لدى المتحالفين الآخرين ضده، فلم يتلقَّ منه رداً، وكتب لزوجته (ماري لويس)

يتوصل إليها أن تُلَيْن عَرِيَّكَةَ وَالدَّهَاءَ، وَمِنَ الظَّاهِرِ أَنَّ الرِّسَالَةَ لَمْ تَصُلْ إِلَيْهَا. وَفِي ٢٥ مَارِسَ أَعْلَنَ الْحَلْفَاءُ أَنَّهُمْ لَنْ يَشْنُوا الْحَرْبَ عَلَى فَرْنَسَا وَلَكِنَّهُمْ لَنْ يُبَرِّمُوا أَبْدًا سَلَامًاً مَعَ نَابِلِيُّونَ بُونَابِرْتَ مُخَافَةً أَنْ يَقُودَ فَرْنَسَا ثَانِيَةً - رَاغِبَةً أَوْ غَيْرَ رَاغِبَةً - فِي حَرْبٍ أُخْرَى تَرَعَّزُ مؤسَسَاتُ النَّظَامِ الْأَوْرَبِيِّ.

لَمْ تَكُنْ فَرْنَسَا مُوحَّدَةً بِأَيَّةٍ حَالٍ فِي مُواجِهَةِ حَلْفَاءِ مُتَحَدِّينَ. لَقَدْ ظَلَ فِيهَا آلَافُ الْمَلْكِيِّينَ لِلَّدْفَاعِ عَنْ قَضِيَّةِ الْمَلْكِ الْغَائِبِ (لُوِيْس١٨) وَتَنْظِيمِ دَفَاعَاتِهِمْ وَفِي ٢٢ مَارِسَ رَحِبَّ مَئَاتَ مِنَ الْمَلْكِيِّينَ بِالْمَلْكِ (لُوِيْس١٨) عَنْدَ وَصْوَلِهِ إِلَى لِيلِ Lille هَارِبًا مِنْ بَارِيِّسَ وَحَرَّنُوا عِنْدَمَا تَرَكُوهُمْ مَوَاصِلًا طَرِيقَهُ إِلَى جَنْت Ghent ليَكُونَ مَرَةً أُخْرَى تَحْتَ حُمَّاِيَّةِ الْقُوَّاتِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ - وَفِي الْجَنْوَبِ الْفَرَنْسِيِّ كَانَ الْمَلْكِيُّونَ أَقْوَيَاءَ قَوَّةً تَمَكَّنُوهُمْ مِنْ إِحْكَامِ السُّيُّطَرَةِ عَلَى بُورْدُو Bordeaux وَمَرْسِيلِيَا. وَفِي الْغَرْبِ الْفَرَنْسِيِّ هُبِّ إِقْلِيمِ فَنْدِيِّ الْكَاثُولِيَّكِيِّ شَدِيدَ التَّمْسِكِ بِكَاثُولِيَّكِيَّتِهِ، هُبِّ مَرَةً أُخْرَى حَامِلًا السُّلَاحَ ضَدَّ نَابِلِيُّونَ الَّذِي كَانُوا يَعْتَبِرُونَهُ مَلْحَدًا اضْطَهَدَ بَابَاهِمْ، وَتَحَالَّفَ مَعَ قَاتِلِيِّ الْمَلْكِ^(٢٤)، وَكَانَ حَلِيفًا لِلِّيَعَاكِبَةِ فِي السُّرِّ كَمَا كَانَ مَدَافِعًا عَنِ الْإِسْتِيَّالَةِ عَلَى أَمْوَالِ الْكَنْيَسَةِ. وَفِي مَאיُو سَنَةِ ١٨١٥ أُرْسِلَ نَابِلِيُّونَ ٢٠,٠٠٠ مُقَاتِلَ لِقَعْمَعِ هَذَا الْعَصَيَانِ الْمُسْلِحِ فِي إِقْلِيمِ فَنْدِيِّ، لَكِنَّهُ فِي وَقْتِ لَاحِقِ رَاحَ يَنْدَمُ عَلَى ذَلِكَ فَلَوْ أَنَّ هَذَا الْعَدْدَ مِنَ الْجُنُودِ (٢٠,٠٠٠) قَدْ اَنْضَمَ إِلَيْهِ فِي مَعرِكَةِ وَاتِّرِلُو فَرِيمَا كَانَ قَدْ رَبَحَهَا^(٢٥).

وَفِي مُواجِهَةِ أَعْدَائِهِ دَاهِرَةَ دَاهِرَةِ فَرْنَسَا قَدْ يَجِدُ بَعْضُ عَنَّاصِرِ الدَّعْمِ الْعَامَ لَمْ تَكُنْ كُلُّهَا مُتَمَشِّيَّةً مَعَ آرَائِهِ وَطَبِيعَتِهِ، وَكَانَ الْجَيْشُ هُوَ الْأَكْثَرُ تَوَافُقًا مَعَهُ، ذَلِكَ الْجَيْشُ الَّذِي كَانَ مُخْلِصًا لَهُ (فِيمَا خَلَا الْقُوَّاتِ الْمُوْجَودَةِ فِي بُورْدُو Bordeaux وَفَنْدِيِّ) بِاعتِبَارِهِ مُخْطَطُ النَّصْرِ وَالْمَكَافِئِ عَلَيْهِ. وَكَانَ الشَّرَائِحُ الدُّنْيَا مِنَ الْأَمَّةِ الْفَرَنْسِيَّةِ - الْفَلَاحُونَ وَالْبَرْوُلِيتَارِيَا وَجَمَاهِيرِ الْمَدَنِ - عَلَى اسْتِعْدَادِ لِاتِّبَاعِ قِيَادَتِهِ لَكُنُّهَا - أَيِّ هَذِهِ الشَّرَائِحِ - كَانَتْ تَأْمَلُ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ تَجْنِبِ الْحَرْبِ، كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا يَعْبُدُونَهُ عَبَادَةً تَجْعَلُهُ مُتَكَبِّرًا طَائِشًا. وَلَازَالَ هُنَاكَ كَثِيرٌ مِنَ الْيَعَاكِبَةِ فِي الْمَدَنِ رَاغِبِينَ فِي نَسِيَانِ عَدَاوَتِهِ لَهُمْ إِذَا مَا أُعْلَنَ وَلَاءُهُ لِلثُّورَةِ. وَقَدْ قَبِيلَ تَأْيِيدهِمْ لَهُ لَكِنَّهُ لَمْ يَتَعَهَّدْ بِالانْضِمَامِ إِلَيْهِمْ فِي حَرْبِهِمْ ضَدَّ التَّجَارِ وَرِجَالِ الدِّينِ.

وكان نابليون محل إعجاب الطبقة الوسطى باعتباره واضح أسس النظام الاجتماعي والأخلاقي منذ مذابح سبتمبر، وقد أصبح هذا النظام محور فلسفته السياسية، ولكنها - أي الطبقة الوسطى - لم تقدم له الدعم ولم تقدم له أبناءها. لقد كانت الطبقة الوسطى تقدر حرية التجارة وحرية الصحافة لكنها لم تكن تؤيد حرية الاقتراعات العامة (السرية) أو الحديث العام؛ فقد كانت تخشى الرأي كاليين وترغب في قصر حق الانتخاب على الملأك. لقد كان أفراد الطبقة الوسطى قد انتخبوا مجلس النواب وقرروا حماية حقوق هذا المجلس لمواجهة سلطان الملك (أو الإمبراطور) وسياساته. كما أن ذلك القسم الصاعد من الborjouazie (الصحفيين والمؤلفين والعلماء والفلسفه) قد أوضح بجلاء أنه سيحارب بكل أسلحته أي محاولة يقوم بها نابليون لفرض سلطة إمبراطورية مرة أخرى. أما البطل الذي يواجه التحدي فكان هو نفسه ممزقاً بين الغرض والرغبة. لقد كان مايزال يعمل بجد، يراقب كل شيء ويدون كل شيء، وأحياناً كان يُملي ١٥٠ خطاباً في اليوم^(٢٦). لكن فرط انتباذه وحذره أوْهنه إذْتَبَيَّنَ الآن أنه لا يمكنه - إلا قليلاً - الاعتماد على جنرالاته الجُدد أو مجلسيه أو الأمة بل ولا حتى على نفسه. لقد كانت الأمراض التي تكبت منه طوال المست سنوات التالية قد أضعفته بالفعل، لقد وتره داء البواسير وأذله فلم يعد قادرًا على العمل لمدة طويلة كما كان حاله أيام تألقه في مارينجو، وأوسترليتز (أوسترليتس). لقد كان قد فقد شيئاً من صفاء ذهنه ووضوح غرضه وثقته القديمة في النصر؛ تلك الثقة التي كانت مصحوبة بالتفاؤل والبهجة. لقد كان قد بدأ يشك في «نجمه his star^(٢٧)».

اختار نابليون في المساء نفسه الذي وصل فيه باريس وزارة جديدة، لأنه كان في حاجة إلى عونها تماماً. واعتراه السرور عندما علم أن لازار كارنو Carnot «منظم النصر في أثناء الثورة» مستعد لخدمته لمواجهة أعدائه لكن نابليون وجده كبير السن (٦٢ عاماً) لا يتحمل معركة حربية، لكن نابليون عينه وزيراً للداخلية باعتباره شخصاً يمكن للجميع الوثوق به. ويكاد يكون هذا السبب هو نفسه الذي دعاه لاختيار جوزيف فوشيه Fouché وزيراً للشرطة إذ كان قد بلغ من العمر ستة وخمسين عاماً يخشى الجميع بأسه ويشكّون فيه، وكان يدير شبكة خاصة من الجواسيس وتکاد تكون له علاقات سرية بكل الفرق، وربما أسرع المحاكم

الذي هو في عجلة من أمره (نابليون) للاستعانة به بعرض منصبه (منصب فوشيه) القديم عليه، رغبة منه (نابليون) في إحكام مراقبته والتدقيق في أعماله وتوجهاته بالإضافة إلى أن أحداً ما لا يشكك في قدرات فوشيه Fouché. وظل فوشيه محتفظاً بأوضاع رؤيه كما كان مستمتعاً ببرونة لا حد لها طوال معظم الفترة المعقّدة التالية. لقد كتب في مذكراته: «الإمبراطور في نظري مجرد ممثل احترق، لن يستطيع إعادة ما كان قد أنسجه»^(٢٨). وحتى في أثناء عمله مع نابليون نجده قد تباً في نحو نهاية شهر مارس «أنه - أي نابليون - لن يستطيع البقاء أكثر من ثلاثة أشهر»^(٢٩).

وكانت الخطوة التالية، بعد اختيار الحكومة هي تنظيم جيش. لقد كان لويس ١٨ قد شعر بعدم جدوى الجيش سوى لضبط الأمور الداخلية، وبالتالي فقد ألغى التجنيد الإلزامي وقلص القوات العسكرية إلى ١٦٠,٠٠٠ رجل، فأعاد نابليون التجنيد الإلزامي في شهر يونيو لكن هؤلاء الشباب المحظوظين لم يكونوا قد جُنّدوا عندما أنهت معركة واترلو الحرب. ودعا نابليون الحرس الوطني للاستعداد لأداء خدمات عسكرية كاملة بما في ذلك الحرب ضد الأجانب، فرافق كثيرون منهم، ولم يمثل سوى ١٥٠,٠٠٠. وبهؤلاء وبعض المتطوعين بالإضافة إلى الجيش القائم أصبح في إمكانه أن يحشد في يونيو ٣٠٠,٠٠٠، مركزاً معظمهم في الدوائر (المحافظات) الشمالية وأمرهم بانتظار أوامر أخرى. وفي هذه الأثناء كررَ مرة أخرى أعماله الجليلة كما كان في سنة ١٨١٣ و ١٨١٤ بتدبير المؤن والمواد الازمة للجيش الجديد. واستورد سراً البنادق والمدافع من إنجلترا عدوته الأثيرة^(٣٠). ولم يستطع استخدام كل مارشالاته السابقين لأن بعضهم نذر نفسه لخدمة لويس الثامن عشر، لكن كان لا يزال في خدمته كل من ني Ney ودافو Davout وصول Soult وجروشي Grouchy وفاندام Vandamme. ودرس خرائط الطرق والتضاريس وتقارير تحركات العدو وخطط لكل الجوانب الكبيرة في المعركة القادمة. وفي هذا التخطيط كان في ذروة تأله العقلاني وفي ذروة سعادته. ورغم أنه كان يقبض على زمام الحكم إلا أن مهمته الثالثة ألا وهي كسب الدعم الجماهيري، كانت هي الأصعب من مهامه الثلاث - لقد كانت كل العناصر تقريباً - فيما عدا الملكيين - يطالبون بالتزامه بدستور يحمي حرية الحديث والصحافة و يجعله مسؤولاً

أمام برلمان منتخب . وكان هذا ضد مزاجه على نحو موجع ، لأنه كان قد اعتاد لفترة طويلة على الحكم المطلق ، وشعر أنَّ موجَّهاً (مرشداً) مقتدرًا حسن النوايا مثله أفضل للبلاد من برلمان اللُّغُو والمناقشات ، ومع هذا ففي إيماءة منه للتسوية أُرسَل يستدعي بنiamين كونستانت (٦ أبريل) لصياغة دستور لتهيئة الليبراليين دون أن يَعُلُّ يد العرش . لقد كان نابليون يعرف أنه كتب ضده بعنف لكنه كان يعرف أنه صاحب أسلوب محكم وعقل مَرِن . وأقبل كونستانت - غير واثق من مصيره - فتم استقباله ليجد أن كل ما يطلبه الإمبراطور منه هو أن «يرتُّل» دستوراً يرضي كلاً من نابليون ومدام دي سيتل ، فظل يعمل في هذا المشروع طوال أسبوع ، ويعرض كل يوم ما أنجزه على (صاحب العمل) وفي ١٤ أبريل قدم نتاج عمله لمجلس الدولة . لقد اقتصر ملكية دستورية يكون الملك (بضم الميم) فيها متوازناً وتكون السلطة التنفيذية في يد رئيس الدولة هذا ، لكنه سيكون مسؤولاً أمام مجلس الشيوخ الذي يعين أعضاءه الحاكم (الملك) . ومجلس تشريعي (من ٦٠٠ عضو) يضم ممثلين ينتخبهم الشعب عن طريق جمعيات (لجان) وسطى (أي بين الشعب والحكومة) وألغت مواد معينة رقابة الدولة وضمنت حرية العبادة ، وحرية الصحافة . وبهذه الطريقة التقليدية تماماً وجد الإمبراطور وكاتبه (المقصود كونستانت) أنهما جمعاً بين مزايا الديقراطية والأرستقراطية والملكية .

وبعد أن قبل نابليون كل هذا أصر على تقديم الدستور الجديد للشعب لا باعتباره تبرؤاً من حكمه الماضي وإنما باعتباره «وثيقة إضافية» تشهد بالحرفيات التي كانت موجودة بالفعل في ظل الإمبراطورية (من وجهة نظر نابليون) واعتراض كونستانت ومستشاروه الليبراليون واستسلموا . وفي ٢٣ أبريل طرحت (الوثيقة الجديدة) للاستفتاء العام على كل الناخبين المسجلين ، ورفض الملكيون التصويت وامتنع آخرون كثيرون . وكانت نتيجة التصويت ٤٥,٤٥٢,١ لصالح الدستور واعتراض ٤٨٠٠ ، وأمر نابليون بضرورة اجتماع الشعب في كامب - دي مارس Champ - de Mars لإقامة احتفال جماهيري رسمي احتفاءً بالدستور وببداية حقبة جديدة ولباركة الجنود وداعمهم في أثناء الرحيل . وتم تأجيل هذا الاحتساد إلى أول يونيو حيث شاهدت الجموع نابليون في أبهته الملكية : لقد أقبل مرتدياً ملابسه

الإمبراطورية في عربة تتووجه التي تجرها خيول أربعة يسبقه إخوته كامراء للإمبراطورية. ولم تكن الجموع سعيدة بهذا العبق الآتي من ماضٍ مات. ماذا جرى للدستور الجديد؟ لقد قابلته الأمة ببعض التشكيك وكثير من عدم الاهتمام فقد كان من الجلي أن كثيرين تشكيكوا في إخلاصه وإمكان استمراره، بل إن نابليون نفسه أبدى شواهد متناقضة. لقد شعر فيما يقول لا كاس Las Cases أن الشك في إخلاصه ليس له ما يبرره:

«لقد عُدت من جزيرة إلبا رجلاً جديداً. إنهم لا يستطيعون تصديق هذا. إنهم لا يستطيعون أن يتخيّلوا أنّ المَرء قد يكون لديه من قوّة العُقل والنُّفُس ما يمكنه من تغيير شخصيّته أو ما يمكنه من الانحناء أمام قوّة الظُّرُوف. وعلى أية حال فإنّ لِدِي ما يثبت هذا وهناك آخرون يخضعون للتأثير نفسه. من يجهل أنّي لست رجلاً ناقص التدبير؟ إنه يمكنني أن أكون مخلصاً للملكيّة الدستوريّة والسلام تماماً كما كنت مخلصاً للحكم المطلق والمُشروعات (التوسيعية) الكبّرى»^(٣١). لكن جورج Gourgaud وهو مخلص لنابليون، كما عادة ما يكون محل ثقة (في رواياته) نقل عن نابليون قوله: «لقد كنت مخطئاً في إضاعة وقت ثمين في مسألة الدستور، فلم هذا ما دامت نيتّي قد انعقدت على إزاحتهم جميعاً (النواب) حالماً أحقّ النصر؟»^(٣٢).

لقد كان قد خطط ألا يدعو المجلسين للانعقاد إلاّ بعد المعركة حين قد يأيّتهم مُكَلّلاً بنصرٍ مُقْبِعٍ. لكن لافايت Lafayette الذي كان قد خرج من مكان اعتزازه وقد بلغ الثامنة والخمسين من عمره، ليُلْعِب دوراً في هذه الدراما (الاحداث)، فقد أصرّ على عقد اجتماع مجلس النواب قبل مغادرة نابليون للانضمام إلى جنوده. وأذعن نابليون واجتمع المجلس في ٣ يونيو، وسرعان ما أبدى المجلس ما يشير إلى اتجاهه إذ انتخب لرئاسته الكونت جان - ديني - لانجوانى Denis Languinai Jean - عدو الإمبراطور اللدود. وفي ٧ يونيو ذهب نابليون في زيّ بسيط إلى قصر البوربون، وخطّب المجلسين المجتمعين معاً ويتواضع طالب أن يُقسم كل عضو للالتزام بالدستور والإخلاص للإمبراطور^(٣٣).

وفي ١٢ يونيو، في نحو الساعة الثالثة صباحاً غادر نابليون باريس - وأهلها نياً - قاصداً الجبهة.

كانت خطة نابليون للمعركة القادمة تقوم على المعلومات التي جمعها عن حجم قوات الحلفاء وتقسيمها وقيادتها وموقعها واستراتيجيتها القادمة. لقد كانت قوات الحلفاء قد تباطأ في تقدمها غرباً لإتاحة الوقت اللازم لوصول القوات الروسية واشتراكها في المعركة، لكن تقدم نابليون السريع حسم المسألة قبل وصول القوات الروسية لنهر الراين.

وفي أول يونيو تجمع جيش بروسي قوامه ١٢٠,٠٠٠ مقاتل بالقرب من نامور Namur في بلجيكا بقيادة المارشال بلوخر (بلوشر Blucher) البالغ من العمر ٧٣ سنة. وإلى الأبعد شمالاً كان الدوق ويلنجتون Wellington (كانت مهمته في البرتغال وإسبانيا قد انتهت بالنصر) على رأس ما أسماه «الجيش سبع السمعة» المكون من ٩٣,٠٠٠ مجند بريطاني وهولندي وبلجيكي وألماني، وكان معظمهم لا يعرف الواحد منهم سوى لغة واحدة مما سبب مشكلة للقائد الإنجليزي. وكان على ويلنجتون أن يعوض نقص تدريبهم، بقرارات وحلول يبتدعها من عند نفسه على وفق خبرته. وقد رسم له لورنس صورة شخصية وهو في لحظة تأمل تُظهره في وضع فخور (معتز بنفسه) وملامح وسيمة ونظرة هادئة ثابتة، ومن هذه الصورة يمكن أن نستنتج ما كان يجب على نابليون المرهق والمتعَلَّ كبير السن أن يفعله عند المواجهة في ١٨ يونيو.

وكان نابليون قد ترك جزءاً من جيشه لحماية باريس وخطوط مواصلاته. ولم يكن مع نابليون سوى ١٢٦,٠٠٠ مقاتل مما يسمى بجيش الشمال Armée du Nord لمواجهة Blucher وويلنجتون. وبطبيعة الحال فقد كان يأمل أن يلتقي بوحدة من الجيشين (جيش بلوخر أو جيش ويلنجتون) ويهزمه قبل أن يجتمع شمل الجيشين، ومن ثم يعطي جيشه قسطاً من الراحة ويعيد تنظيم صفوفه قبل خوض معركة مع الجيش الآخر.

لقد كان الطريق بين الجيشين المتحالفين (جيش بلوخر وجيشه ويلنجتون) يمتد من نامور Namur عبر سوميريف Sombreffe إلى كاتر - برا - Quatre Bras (أربعة جيوش) ومن ثم

غريباً (حيث يتسع الطريق عن ذي قبل) من الحدود الفرنسية البلجيكية عند شارلروي Charleroi فشمالاً من واترلو إلى بروكسل. وكان هدف نابليون الأول هو الاستيلاء على كاتر - برا - Bras - Quatre ومن ثم يُوصد الطريق بين الجيшиين الحليفين.

وكان نابليون قد أصدر تعليمات بأن تقارب الكتائب الثلاث من جيشه (جيش الشمال) في ١٤ يونيو عند نهر سامبر Sambre في مواجهة شارلروي Charleroi. وانضم هو إلى واحدة من الكتائب الثلاث وأمر الكتائب الثلاث جميعاً بعبور النهر إلى الأرض البلجيكية نحو الساعة الثالثة من صباح ١٥ يونيو، وتمَّ هذا، فاستولوا بسهولة على شارلروي بعد أن هزموا حاميتها البروسية الصغيرة.

وعلى أية حال، ففي الوقت نفسه انهزم الجنرال لويس دي بورمون Bourmont لصالح الحلفاء وأفضى إلى ضباط بلوخر بخطط نابليون. لكن الحذر (بلوخر) كان قد استنتاج هذه الخطط وبالتالي فقد كان قد أرسل جانباً من جيشه غريباً إلى سومبريف Sombrefe وانضم إليه في نحو الساعة الرابعة من صباح ١٥ يونيو. لقد قسم نابليون الآن جيشه إلى ميمنة بقيادة جروشي Grouchy وميسرة بقيادة ني Ney وقوة احتياطية بقيادة درو دُزلو Drouet d'Erlon بالقرب من شارلروي لتهب لنجدته جروشي أو ني على وفق ما تملية الظروف. وكان على جروشي أن يتقدم شمالاً بشرق نحو سومبريف لمواجهة بلوخر. وكان على ني أن يتوجه شمالي للاستيلاء على كاتر - برا - Bras - Quatre وأن يمنع في كل الأحوال قوات ويلنجتون من الانضمام إلى قوات بلوخر. ولأن نابليون نفسه كان يتوقع صداماً حاداً مع بلوخر، فقد ركب مع جروشي.

وني Ney الذي كان حتى الآن «أشجع الشجعان» راح طوال ١٥ و ١٦ يونيو يتبع سياسة الحذر التي عطلت خطط نابليون بشكل أسيء. لقد توجه شمالاً من شالروا وطرد البروسيين من جوسيل Gosselies ومن ثم توقف مخافة مواجهة قوات ويلنجتون الأكثر عدداً. لقد أرسل فصيلة خيالة (فرسان) لدراسة الموضع عند كاتر - برا - Bras - Quatre - Bras فعادت له بتقرير مفاده أنها خالية من قوات العدو، فقد ٣٠٠٠ من رجاله للاستيلاء عليها اعتقاداً منه أن هذا سيكون كافياً لكن في الوقت الذي رأى فيه كاتر - برا - Bras - Quatre - Bras

كانت قوات الامير بيرنهارد الساكس - فيماري Bernhard of Saxe - Weimar البالغ عددها ٤٠٠٠ مقاتل قد استولت عليها، وكان بيرنهارد يصحب معه أربعة مدافع، فاستدار نَيْ Ney عائداً إلى جوسيل وراح ينتظر هناك تعليمات أخرى. وأرسل بيرنهارد رسالة إلى ويلنجتون طالباً أن يحضر بقواته الرئيسية إلى كاتر - برا Bras - Quatre مخافة أن تأتي قوات نَي Ney سريعاً لحصارها.

وفي الساعة الثالثة صباح ١٥ يونيو تلقى ويلنجتون في بروكسل أخباراً مفادها أن جيش نابليون قد عبر إلى بلجيكا، واحتفظ ويلنجتون بقواته في حالة استعداد قرب العاصمة البلجيكية ظناً منه أن نابليون سينفذ خطته المعتادة بالإسراع للقيام بهجوم جانبي (على جناح العدو). وفي تلك الليلة كان هو وكثيرون من ضباطه «الرجال الشجعان» منهمكين مع النساء الجميلات إذ كانوا في حفل راقص أعدته الدوقة ريشمون Richmond^(٣٤) وفي أثناء الحفل تلقى في منتصف الليل رسالة التي تُفيد أن كاتر - برا Bras - Quatre في خطير، فأصدر أوامره بهدوء لضباطه بالاستعداد للانطلاق في بكور الصباح، أما هو فلم يُعَكِّر صفو الحفل الراقص وظل يرقص حتى الساعة الثالثة صباحاً^(٣٥).

٦/٢: ١٦ يونيو: لِنْي Ligny

في نحو الساعة الثانية من صباح ١٦ يونيو، أرسل المارشال سول (صوَل Soult) رئيس أركان نابليون أوامر نهائية إلى نَي Ney: «كَلَّفْنِي الإِمْپَاطُورُ أَنْ أَحِيطَّكَ عَلَمًا بِأَنَّ الْعُدُوَّ جَمِيعُ جَانِبِهِ مِنْ قَوَاتِهِ بَيْنَ سُومِبِرِيف Sombreffe وبري Brye وَأَنَّهُ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ وَالنَّصْفِ صَبَاحًا سِيَهَا جَمِ بالفَصِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ هَذِهِ الْقَوَاتِ». إن صاحب الجلالة الإمبراطور يريد أن تهاجم أيَّ عدو تواجهه وبعد الضغط عليه بشدة وإجباره على التراجع، عُدَّ إِلَيْنَا لِتَنْضُمَ إِلَى قَوَاتِنَا لِتَطْوِيْقَ الْعُدُوِّ»^(٣٦).

لقد أحضر بلوخر كل رجاله البالغ عددهم ٨٣٠٠٠ لمقاومة الفرنسيين، وبدأت المعركة في نحو الساعة الثالثة بعد الظهر بالقرب من مدينة لِنْي (لينجي Ligny) بهجوم متزامن

(في الوقت نفسه) تقوم به ميمنة جروشي بقيادة فاندام Vandamme وقلب قوات جروشي بقيادة جيرار Gérard، وميسرة جيشه (جيش جروشي) بالإضافة إلى سلاح الفرسان بقيادة جروشي نفسه، بينما يوجه نابليون العمليات الثلاث التي ينفذها ٧٨٠٠ مقاتل. وسرعان ما اتضح أن تحطيم بلوخر المهيوب ليس أمراً سهلاً، وإذا كان لابد أن ينهزم الفرنسيون هنا إذن فقد تنهار معركتهم كلها (يفقدون المعركة الأساسية كلها). وفي الساعة الثالثة والربع أرسل نابليون إلى ني Ney «سيتبدد الجيش البروسي إن حاربت بضراوة. مستقبل فرنسا بين يديك، لذا فلا تتوان للحظة في إنجاز ما أوكل إليك، ثم عد إلى سان

أرمان Armand وبرى Brye لمشاركة في النصر الذي قد يقرر مصيرنا جمِيعاً»^(٣٧).

لكن ني Ney أيضاً كان يواجه صعوبات. فبحلول الساعة الثالثة بعد الظهر كان ويلنجتون قد جلب معظم جيشه إلى كاتر - برا Bras - Quatre. ولم يعلم نابليون بهذا (لأن السيطرة على وسائل الاتصال كانت قد أفلتت من صول)، لذا فقد أرسل الأوامر إلى درو درلو Drouet D'Erlon في شارلروي ليسرع شمالاً بقوات الاحتياط التابعة له ليهاجم ميمنة بلوخر، وتقديم درو بالفعل حتى كاد يصل إلى لني (لجيبي Ligny) حيث وصله طلب عاجل من ني Ney ليندفع مسارعاً إلى نجدة في مواجهة قوات ويلنجتون الأكثر عدداً في كاتر - برا Bras - Quatre، ووجد درو أن طلب ني Ney هو الأكثر إلحاحاً فسارع إليه ليجده - بعد جهود يائسة - قد تخلى عن محاولة طرد ويلنجتون من المدينة (كاتر - برا).

في لني (لجيبي Ligny) استمرت المعركة ست ساعات من المذابح. وتذكر ضابط بروسي - في وقت لاحق - ما حدث، قائلاً: لقد راح الرجال يذبح بعضهم ببعض بكرهية شديدة وكانت الواحد منهم يكن للآخر كرهية شخصية^(٣٨). إن قريتين هادئتين مثل سان أرمان St.Armand ولا هي La Haye كانتا تنتقلان من حوزة فريق إلى حوزة فريق آخر، وال Herb على أشدّها رجلاً إزاء رجل، واحتتعلت التيران في لني (لجيبي Ligny) نفسها، وبينما الليل يرخي سدوله والمطر يهطل، أمر نابليون حرسه القديم بهاجمة قلب Center القوات البروسية، وأصبح المطر مصحوباً ببرودة، فأفسح القلب البروسي الطريق، وسقط بلوخر الذي كان لا يزال يقاوم من فوق حصانه، وكان لابد من حمله بعيداً. وكانت القوات الفرنسية قد

اعترافاً إلهاماً شديداً فلم تحول هزيمة أعدائها إلى هزيمة منكرة لا قيامة بعدها. وانسحبت القوات البروسية شمالاً نحو ويفر Wavre مخلفة وراءها ١٢٠٠٠ قتيل وجريح. وكان نابليون نفسه قد كاد يستنفد كل موارده وأعصابه، فلو أن ويلنجتون كان قد استطاع الوصول هذه اللحظة إلى هنا من كاتر - برا لما كانت هناك حاجة إلى معركة واترلو.

٦ / ١٧٣: المطر ١٧ يونيو:

لقد كان من صالح نابليون أن جعل المطر الغزير المعركة الكبرى مستحيلة في ١٧ يونيو. لقد كانت الأرض غاسقة بالطين فكيف يمكن سحب المدافع وثبتتها فوق أرض مشبعة بالمياه وغير ثابتة بسبب الطين الكثير فوقها؟ ربما كانت هذه الأوضاع واضحة في عقل الإمبراطور عندما وصلته رسالة من ني Ney تفيد أنَّ ويلنجتون قابض على زمام الأمر في كاتر - برا - Bras - Quatre، ولح - أي ني Ney - إلى أنه لا يمكن إخراجه منها إلا بالقوات الفرنسية مجتمعة، فأجابه نابليون بعبارة مبهمة لا بد أنها تركت ني Ney أكثر ارتباكاً من ذي قبل: تمسك بموقعك عند كاتر - برا - Bras .. لكن إن كان هذا مستحيلاً، أرسل حالاً معلومات عن الموقف، وسيتصرف الإمبراطور على وفقها. وإذا ... لم يكن هناك إلا مؤخرة جيش العدو فهاجمها واستول على الموقع^(٣٩). وكان هناك أكثر من المؤخرة، ورفض ني Ney أن يجدد الهجوم. وكان ويلنجتون - بعد أن علم بهزيمة بلوخر - قد سحب جيشه شمالاً إلى هضبة مونت سان جان Mont St. Jean التي يمكن الدفاع منها وتراجع هو إلى مركز قيادته بالقرب من واترلو.

ووجه نابليون جنراله جروشي على رأس ٣٠٠٠٠ لتابعة البروس طوال يوم ١٧ يونيو ولنعتهم في كل الأحوال من الانضمام إلى قوات ويلنجتون. أما هو نفسه (نابليون) فقد رأى ٤٠٠٠ من نجوا من معركة ليني (لجنبي Ligny) لينضم إلى ني Ney عند كاتر - برا - Bras - Quatre، وعندما وصل في الساعة الثامنة مساء ثبتت همة فتفجع صارخاً «ضاعت فرنسا!»^(٤٠) فراح يلاحقه وقاد هو نفسه عملية الملاحقة هذه لكن المطر الكثيف أجبره على إنهاء هذه العملية، وفي التاسعة مساء حيث كانت الرطوبة شديدة ركب هائلاً قاطعاً

ميلا أو ميلين لينام في مخدع في كايو Caillou بينما عسکر جيشه المنهك على أرض رطبة طوال الليل، وكان المطر قد توقف.

٦/٤: الأحد ١٨ يونيو: واترلو

في الثانية صباحاً أرسل بلوخر رسالة إلى ويلنجتون يعده فيها بأن جيشاً بروسييا بقيادة الجنرال فريديريش فيلهيلم فون بولو Friedrich Wilhelm Von Bulow سيغادر ويفر فجراً لينضم بقواته إلى لقتال الفرنسيين، وأن جيشين بروسيين آخرين سرعان ما سيتبعانه. وفي العاشرة صباحاً أرسل نابليون الذي لم يكن يعلم بهذا التدبير تعليمات إلى جروشي لمواصلة ملاحقة بلوخر إلى ويفر Wavre.

لقد كان قد خطط ليبدأ العمليات في التاسعة صباحاً لكن قادة المدفعية حثوه على التأجيل حتى تبدأ التربة في الجفاف. وفي هذه الالثناء ركز ويلنجتون اقواته فوق أرض مرتفعة جنوب تل مونت سان - جان Mont St. Jean لقد كان معه ٧٠٠٠ مقاتل و ١٨٤ مدفعاً، أما نابليون فكان على رأس ٧٤٠٠٠ مقاتل وكان معه ٢٦٦ مدفعاً. وكان مع كل منهما (ويلنجتون ونابليون) جنرالات كان لهم مكانة في التاريخ (أو حققوا في هذه المعركة مكانة) : الأمير فريديريش البرونسفيكي Friedrich of Brunswick (ابن الدوق الذي خسر في فالي وجراح حرجاً ميتاً في أورشتادت Auerstedt) ودورنبرج Dornberg وألتون كمببت Kempt وسومرست Somerset وأكسبردج Uxbridge وهل Hill وبونسونبي Alten وبيكتون Picton، وكان كل هؤلاء مرتبطين بويلنجتون، وكان كل واحد منهم معترضاً بنفسه كدوق. وبالإضافة إلى هؤلاء كان هناك بولوف Bulow وتسيدتن Zieten وبيرخ Pirch (بيرش Ney) تحت قيادة بلوشر (بلوخر)، وبالنسبة إلى الفرنسيين كان هناك ني Lobau وجروشي وفاندام وجيرار وكامبرون وكيلرمان Kellermann وريل Reille ولوبو ونابليون.

لقد كان نابليون قد بدأ يدفع حساب سنواته المزدحمة بالأحداث حيث كان يأكل بعجلة ويضاجع بعجلة ويعاني غاية التوتر وهو فوق العرش أو في ميدان المعركة وأخيراً وجد

سلوah في الأكل بنهم. وبعد ذلك بست سنوات أثبت تشريح أعضائه بعد مماته وجود سلسلة. والآن في واترلو كان عليه أن يظل ممتطياً جواه طوال ساعات بينما هو يعاني من داء البواسير^(٤١)، وكان يعاني من حصوات في المثانة، وكان عُسر البول يتطلب منه محاولة التبول مراراً وغالباً ما يكون ذلك في أوقات غير مناسبة. وربما يكون السرطان الذي أودى بحياته وحياة أبيه قد بدأ فعلاً في التغلغل في بدنـه^(٤٢). هذه المتابعة قد ثبـطـتـ من هـمـتهـ وأثرـتـ فيـ شـجـاعـتـهـ وـصـبـرـهـ وـثـقـتـهـ. «لم أعد أجد في نفسي الإحساس بالنجاح النهائي ... إنـيـ أحـسـ أنـ الـحـظـ قدـ تـخـلـىـ عـنـيـ^(٤٣)» ومعـ هـذـاـ فقدـ أـكـدـ لـجـنـرـالـاتـهـ الـذـينـ اـعـتـراـهـمـ الخـوفـ (ـمـنـ الـمـفـتـرـضـ أـنـ ذـلـكـ لـتـقـوـيـةـ عـزـيمـتـهـمـ)ـ:ـ «ـإـذـاـ تـمـ تـنـفـيـذـ أـوـامـرـيـ بـشـكـلـ جـيـدـ،ـ فـسـنـنـاـمـ الـلـيـلـةـ فـيـ بـرـوـكـسـلـ^(٤٤)ـ»ـ.

لكن جنرالاته كانوا يرون الموقف بشكل أوضح. لقد نصحه صول Soult أن يأمر جروشي Grouchy بالاتجاه بقواته البالغ عددهـاـ ٣٠،٠٠٠ـ غـرـبـاـ بالـسـرـعـةـ المـمـكـنـةـ لـيـنـضـمـ إـلـىـ الـهـجـومـ،ـ لكنـ بـدـلـاـًـ منـ ذـلـكـ سـمـحـ نـابـلـيـوـنـ لـهـمـ أـنـ يـضـيـعـواـ الـوقـتـ وـأـنـفـسـهـمـ فيـ مـطـارـدـةـ قـوـاتـ بـلـوـخـ شـمـالـاـًـ حتـىـ وـيـفـرـ Wavreـ،ـ وـمـنـ الـمـفـتـرـضـ أـنـ كـانـ يـأـمـلـ أـنـ إـذـاـ اـتـجـهـ الـبـرـوـسـ غـرـبـاـ لـمـسـاعـدـةـ وـيـلـنـجـتـونـ لـاـسـتـطـاعـ جـرـوـشـيـ مـهـاجـمـةـ الـمـؤـخـرـةــ.ـ وـقـدـ اـرـتـكـبـ وـيـلـنـجـتـونـ عـلـىـ وـفـقـ ماـ وـرـدـ فـيـ تـحـلـيلـ لـاحـقـ سـلـسـلـةـ مـنـ الـأـخـطـاءـ الـمـمـاثـلـةـ بـتـرـكـهـ ١٧،٠٠٠ـ مـنـ رـجـالـهـ بـالـقـرـبـ مـنـ بـرـوـكـسـلـ لـمـواجهـهـ هـجـومـ فـرـنـسـيـ جـانـبـيـ عـلـىـ طـرـقـ الـمـهـمـةـ وـالـحـيـوـيـةـ الـمـؤـدـيـةـ إـلـىـ الـبـحـرـ.

وـأـمـرـ نـابـلـيـوـنـ فـيـ السـاعـةـ الـخـادـيـةـ عـشـرـةـ صـبـاحـاـ جـيـشـهـ بـبـدـءـ الـهـجـومـ عـلـىـ قـلـبـ (ـمـرـكـزـ أـوـ وـسـطـ)ـ الـعـدـوـ حـيـثـ كـانـ الـمـقـاتـلـوـنـ مـنـ إـسـكـتـلـنـدـيـنـ الـأـشـدـاءــ.ـ وـقـادـ نـيـ Neyـ قـوـاتـهـ بـاـنـدـفـاعـهـ وـبـسـالـتـهـ الـمـعـرـوفـ لـكـنـ الـبـرـيـطـانـيـنـ ثـبـتوـاـ وـرـاحـوـاـ مـنـ وـرـاءـ تـلـ بـعـدـ تـلـ يـنـشـرـوـنـ الـمـوـتـ بـالـجـمـلـةـ بـمـدـافـعـهـ (ـالـتـيـ أـخـفـوـهـاـ عـنـ الـأـعـيـنـ)ـ فـيـ صـفـوـفـ الـفـرـنـسـيـنـ الـذـيـنـ اـعـتـراـهـمـ الـهـلـعـ.ـ وـفـيـ نـحوـ السـاعـةـ الـوـاحـدـةـ بـعـدـ الـظـهـرـ رـأـيـ نـابـلـيـوـنـ مـنـ مـوـقـعـ الـمـرـاقـبـةـ جـنـوبـ غـرـبـ الـعـمـلـيـاتـ جـيـشـاـ فـيـ أـقـصـىـ الـشـرـقـ يـتـحـرـكـ صـوـبـ مـيـدانـ الـعـمـلـيـاتـ،ـ فـأـخـبـرـهـ أـسـيرـ الـمـانـيـ أـنـ هـذـهـ الـقـوـاتـ هـيـ طـلـيـعـةـ قـوـاتـ بـولـوـ Bulowـ الـبـرـوـسـيـةـ تـتـقـدـمـ لـمـسـاعـدـةـ وـيـلـنـجـتـونـ.ـ فـأـرـسـلـ نـابـلـيـوـنـ كـتـيـبـةـ بـقـيـادـةـ الـجـنـرـالـ Lobauـ لـوـقـفـ الـقـوـاتـ الـبـرـوـسـيـةـ الـمـتـقـدـمـةـ،ـ وـأـرـسـلـ إـلـىـ جـرـوـشـيـ مـهـاجـمـةـ بـولـوـ (ـبـولـوفـ)

Bulow ثم القدوم لمساعدة الجيش الفرنسي الرئيسي ضد ويلنجتون. وفي نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً توجه جروشي شمالاً بين جمبلو Gemblow وويفر Wavre فسمع صوت إطلاق المدافع قادماً (أي الصوت) من الغرب، فحثّه الجنرال جيرار Gérard ليكفَ عن ملاحقة بلوخر وأن يشق طريقه عبر المنطقة ليضم جنوده البالغ عددهم ٣٠٠٠٠ إلى قوات نابليون، والتقي جروشي بجزء من قوات بلوخر وهزمهما، ودخل ويفر Wavre فاستراح بقواته بعد أن وجد بلوخر قد ابتعد بقواته.

لكن في هذا الوقت (الساعة الرابعة عصراً) كانت معركة واترلو في ذروتها: تلاحم صاحب بين رجال يقتلون ويُقتلون (بضم اليماء) يفقدون ضربات استراتيجية أو يستعيدهنها، يواجهون الخيول المندفعة يتلقّون ضربات السيوف أو يروغون منها، يسقطون ويموتون في الوحل. وفر الآلاف من الجانبيين تاركين ساحة الرغى. وقضى ويلنجتون جانباً من وقته يُرعب الفارين للعودة إلى مواقعهم. وتولى ني Ney مهمة بعد مهمة ومسئولية بعد مسئولية، وماتت تحته أربعة خيول. وفي نحو الساعة التاسعة مساء تلقى أمراً من نابليون بالاستيلاء على لاهي سانت La Haye Sainte – الهولي هيدجر و the Holy Hedgerow. ونجح في مهمته وظن أنه وجد طريقاً (فتحة) إلى مؤخرة ويلنجتون، فأرسل إلى نابليون طالباً مزيداً من الجنود المشاة واندفع متقدماً. واستشاط نابليون غضباً بسبب تقدّمه الطائش إذ لم يكن لدى نابليون الدعم العسكري الكافي الذي يمكن إرساله إليه دون أن يكون ذلك على حساب الخطة العامة (أي دون أن يؤدي هذا إلى إضعاف الموقف العام) لكنه – أي نابليون – شعر أنه لا يجب ترك هذا «البائس» ليهلك ومن معه، فأمر كيلرمان Kellermann بالتوجه لدعمه نَيْ بثلاثة آلاف من الفرسان المدرعين (اللابسين دروعاً). وعندما طلب قائد الخط البريطاني الأخير دعماً من ويلنجتون أجاب الدوق بأنه لا يستطيع تقديم أية تعزيزات. ويُقال إن الضابط أجابه: «حسناً جداً يا سيدى اللورد، إننا سنصمد حتى آخر رجل^(٤٥)». وعندما بدأ هذا الخط الإنجليزي في الانكسار اندفع الفرسان الفرنسيون إلى الأمام للمشاركة في النصر؛ فعلم ضابط إنجليزي هو الكولونيل جولد Gould: «لقد انتهى كل شيء^(٤٦)» وهرت كتيبة هانوفرية عند هذا الحد إلى بروكسل،

وراح أفرادها يصيرون جمِيعاً: «خسروا المعركة، والفرنسيون قادمون»^(٤٧).

وحقيقة الأمر أن البروسين كانوا هم القادمين. لقد كسر بولو (بولوف Bulow) (البروسي) مقاومة لوبو Labau (الفرنسي) وراح يقترب بسرعة من مسرح العمليات الرئيسية، كما كانت قوتان بروسيةان آخرتان تقتربان. ورأى نابليون أنَّ فرصته الأخيرة هو أن يهزم الإنجليز قبل أن يتمكَّن البروسي من التدخل، فدعا حرسه القديم ليتبعه في معركة حاسمة، واتخذ هارب فرنسي طريقه إلى ويلنجتون وحذره «ستصل إليك قوات الحرس الفرنسي في غضون نصف ساعة». وفي نحو هذا الوقت رأى رجل مراقبة بريطاني - نابليون، وقال: «ها هو نابليون يا سيدي أظن أنني أستطيع اصطياده، هل أطلق عليه النار؟» فمنعه الدوق: «لا.. لا.. فالجنرالات الذين يقودون الجيوش، لديهم ما هو أهُم من طلاقهم النار بعضهم على بعضهم الآخر»^(٤٨).

وهنا ظن الفرنسيون أنَّهم الغالبون، لكنهم علموا فجأة بهجوم ٣٠٠٠ جندي بروسي راحوا ينشرون الفزع والغوضى في صفوف الفرنسيين^(٤٩). وعندما شرع ني Ney في مواصلة مهمته تماست القواعد البريطانية بسرعة وتراجع ني Ney، وانتهز ويلنجتون هذه الفرصة فصعد قمة منحدر وراح يلوح بقبعته - كإشارة متافق عليها لتتقدَّم قواته كلها، وواصلت الطبول والأبواق توصيل الرسالة، فتحول ٤٠٠٠ إنجليزي وإسكتلندي وبليجى كى وألمانى من الدفاع إلى الهجوم واندفعوا متقدمين لا يهابون الموت. ووهنت الروح المعنوية للفرنسيين وعهم الانهيار فولوا مُذبِّرين، حتى أفراد الحرس القديم بدأوا يُدبرون رؤوس أخيولهم متراجعين. وصاحت نابليون مُصدراً الأوامر بالتوقف فذهب صوته أدراج الرياح وسط الجلبة، ولم يعد من الممكن تمييزه (التعرف عليه) بسبب دخان المعركة والأتربة المتصاعدة فاستسلم لهذا الاستفتاء العام (يعنى أنه أذعن للتحركات العفوية لقواته) فأمر بالانسحاب في تشكيلات لكن القوات الفرنسية التي كانت تتعرض لهجوم من قوات تفوقها عدداً بكثير، من المقدمة ومن الجانب - لم يكن لديها الوقت لتنظيم نفسها في تشكيلات، فاُنْصَبَّ شعار كل فرد فيها «دع كل فرد يُنْقذ نفسه بقدر ما يستطيع» لقد أصبح هذا هو الشعار السائد سواء نطقوا به أم لا، ذلك أنَّهم لم يعودوا جنوداً بل بُشراً ليس إلا. ووسط

هذه الهزيمة وقف المارشال ني Ney مذهولاً بلا حسان، وقد اسود وجهه بالبارود وتمزقت ثيابه العسكرية، وسيفه مكسور في يده، هذا السيف الذي طالما حقق به النصر. كان هذا هو وضع ني Ney بطل الأبطال في واترلو^(٥٠). لقد انضم هو ونابليون إلى أربعين ألف فرنسي يندفعون في الطرقات والحقول إلى جيناب Gennape وإلى كاتر - برا - Bras وإلى شارلروي Charleroi ومن ثم عبروا بكل وسيلة متحركة نهر سامبر Sambre إلى فرنسا. لقد ترك الفرنسيون في ميدان المعركة ٢٥٠٠٠ رجل ما بين قتيل وجريح و٨٠٠٠ أسير، وقد ويلنجتون ١٥٠٠٠ رجل فقد بلوخر ٧٠٠٠ رجل والتقى المنتصراً (ويلنجتون وبلوخر) في الطريق بالقرب من لا بل الاليانس La Belle Alliance وتبادل القبلات فرحاً بالنصر. وترك ويلنجتون مهمة ملاحقة الفرنسيين للبروس المتحمسين. وبلوخر أيضاً كان كبير السن بدرجة لا تسمع له بالطاردة، فترك هذه المهمة لجنايسناو Gneisenau في جيناب Genappe التي أرسل منها خطاباً لزوجته: «بالتنسيق مع صديقي ويلنجتون أبدنا جيش نابليون». لكنه كتب أيضاً لصديقه كنيزبيك Knesebeck: «لقد اضطررت كل أعضائي، فقد بذلنا جهوداً مُضنية^(٥١)». أما ويلنجتون فقد بسط الأمر أمام لورد أكسبردج Uxbridge بطريقة حماسية: «لقد وجهنا لنابليون ضربة حاسمة فليس أمامه إلا أن يشنق نفسه^(٥٢)». وفي أثناء الانسحاب انضم نابليون إلى كتيبة أكثر انضباطاً من غيرها، وترجل وسار على قدميه مع الآخرين. وبكى لضياع جيشه، وحزن لأنه لم يُلْقِ حتفه^(٥٣).

١- التنازل الثاني عن العرش: ٢٢ يونيو ١٨١٥

وصل نابليون إلى باريس في نحو الساعة الثامنة صباح يوم ٢١ يونيو. وذكر في وقت لاحق «لقد كنت منهاكاً تماماً، لأنني لم أكل شيئاً ولم أنم منذ ثلاثة أيام^(١)» وذهب إلى قصر الإلزيه، وقال لكونكور ملتمساً: «أريد أن أستريح ساعتين^(٢)». وفي هذه الأثناء اجتمع مجلس النواب، وكان الشعور العام يميل بشدة لعزله. ولما علم بهذا الاتجاه، اقترح على أصدقائه أن الأمر يتطلب دكتاتورية مؤقتة نظراً لاضطراب الآراء في البلاد، وال الحاجة إلى عمل موحد للدفاع عن فرنسا وعاصمتها في مواجهة الحلفاء، وذلك لضبط الأمة وحكومتها.

وعندما علم أهل باريس بالنكسة العسكرية تجمع عدد كبير منهم أمام قصر الإلزيه مؤكدين استمرار ثقفهم في نابليون بـ«عاش الإمبراطور» وراحوا يطالبون بالسلاح للدفاع عن مدینتهم. ولما سمعهم نابليون قال لبنيامين كونستانت: «أنت ترى! ليس هؤلاء هم الرجال الذين أغدقوا عليهم التشريف والأموال. بماذا هم مدینون لي؟ إنني أراهم بؤساء، وقد تركتهم بؤساء... إنني لو أردت لانهيت وجود هذا المجلس Chamber المتمرد في ظرف ساعة... لكن حياة شخص واحد لا تستحق هذا الشمن. إنني لا أريد أن أكون ملك الفلاحين *Jacqueries*. إنني لم آت من إلبا لأغرق باريس في الدماء^(٣)».

لقد كان نابليون حتى في أثناء فراره من واترلو يخطط لإقامة جيش جديد من ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل^(٤). وفي الفترة من ٢٢ إلى ٢٤ يونيو كانت بقايا جيشه المهزوم تجتمع في لون *Loan* وكان هناك من يعيد تنظيمها «تقع لون *Loan* على بعد ستة وسبعين ميلاً إلى الشمال الشرقي من باريس»، وهناك - في ٢٦ يونيو - انضم إلى هذه البقايا جروشي على رأس ٣٠,٠٠٠ من رجاله بعد انسحاب عبقرى. وعلى أية حال، ففي هذه الأثناء، كان بلوخر قد جمع قواته المنتصرة وكان يقودها نحو باريس متوجهاً - بعانياً - المرور بلون

Laon . وتردد ويلنجتون الذي أضير جيشه ضرراً شديداً في الانضمام إلى البروسي المتندفع لكنه سرعان ما كان على الطريق نفسه (إلى باريس) متجنباً المرور بلون Loan ، وفي الفترة نفسها (٢٢ - ٢٥ يونيو) كانت جيوش النمسا وبافاريا وفيترغيرج تعبر نهر الراين في طريقها إلى باريس . إن التاريخ يُعيد نفسه .

وقرر مجلس النواب بعد مناقشات حامية أن مقاومة القوات المتحالفه مسألة غير عملية وأن الأعضاء سيصرُون على اعتزال نابليون . وعمل Fouché بأساليبه الحاذقة على ضمان هذا الاعتزال ، وكان فوشيه قد تنبأ قبل واترلو أن «الإمبراطور سيتصر في معركة أو معركتين لكنه سيُهزم في الثالثة وعندها سيبدأ دورنا»^(٥) لكن فوشيه لم ينتظِ طويلاً ، لقد اندفع لوسيان Lucien – أخو نابليون – إلى المجلس Chamber طالباً الترشُّث فعارضه فوشيه وتساءل لأُمّاتِ ألم يستهلك نابليون ما يكفي من الحيوانات؟ (جمع حيّة) . لقد فشل لوسيان Lucien الآن فيما كان قد نجح فيه في سنة ١٧٩٩ ، ولكنَّه نصح نابليون أن يُطِيع بالجلسين بالقوة ، فرفض نابليون . لقد كانت المعركة قد استنفدت قواه ، وكانت الهازنة قد أضفت من إرادته لكنها أثارت بصيرته ، وبينما كانت الجماهير تهتف حول القصر «عاش الإمبراطور ، راح يُملِّي على أخيه لوسيان Lucien صيغة اعتزاله للمرة الثانية موجهاً إِيَّاه للمجلسين :

«لقد عملت على إعادة توحيد كل الجهود .. وموافقة كل الأجهزة في الحكم في بداية الحرب التي كان هدفها تحقيق استقلال الأمة ، لكن الظروف تبدو لي وقد تغيرت ... إنني أقدم نفسي فداء (أضحية) لمواجهة كراهية أعداء فرنسا . زِيما كانوا صادقين في إعلاناتهم من أنهم حقيقة لا يريدون إلا الخلاص مني . اتحدوا جميعاً لتحقيق السلام العامة ومن أجل ما بقي من استقلال إرادتنا .. إنني أعلن تنصيب ابني باسم نابليون الثاني»^(٦) . ووافق كل الوزراء على هذا التنازل ما عدا كارنو Carnot فقد بكى ، أما فوشيه فقد غمرته السعادة .

وقبل الجلستان هذا التنازل متتجاهلين تعيين ابنه ذي الأعوام الأربع (وكان وقتها في فينا) كَخَلَفَ له ، واختار المجلسان خمسة من أعضائها ((فوشيه وكارنو ، وكولينكور ، وجرينييه

(الجترال الغامض) وأونيت Ouinette عضو الجمعية الوطنية الثورية القديمة)، ليكونوا مجلساً تنفيذياً Commission Exécutive وحكومة مؤقتة. وتم اختيار فوشيه Fouché رئيساً للمجلس التنفيذي وشرع مباشرةً في التفاوض مع الـ *الـ خلفاء* نابليون. ومخافة القيام باضطرابات شعبية لصالح نابليون. حيث دافع Davout القائد العسكري في باريس على إقفال نابليون بمعادرة باريس والإقامة في مالميزو Malmaison. وفي ٢٥ يونيو غادر نابليون قاصداً مالميزو بصحبة برتران Bertrand وجورجو Gourgaud وكونت دي لا كاس de Las Cas وكونت دي مونشولو Montholon، فرحب به هورتنس Hortense بدعوه إلى بيت أمها الراحلة. وراح يمشي مع هورتنس في الحديقة ويتحدث برقه عن جوزفين. لقد قال: حقاً لقد كانت أفضل امرأة عرفتها^(٧).

إنه يفكّر الآن في البحث عن اللنجا والأمان في أمريكا. لقد طلب من برتران Bertrand أن يدبر له مجموعة كتب عن الولايات المتحدة^(٨). وكان قد قرأ كتاب إسكندر فون همبولد Humboldt «رحلات إلى القارة الجديدة»، وقد اعتمذ أن يكرّس ما بقي من حياته للعلم. انه يود الآن الذهاب إلى أمريكا لاكتشاف أرضها وغطائها النباتي وحيواناتها من كندا إلى رأس هورن Horn، وفي ٢٦ يوليو أرسل إلى الحكومة المؤقتة طلباً للانتقال إلى روشفور Rochefort ليُبحِر إلى أمريكا^(٩). فأمر فوشيه على الفور وزير البحريـة «بتجهيز فرقاطتين في روشفور لنقل نابليون إلى الولايات المتحدة^(١٠)» وفي اليوم نفسه زار نابليون أخوه جوزيف وأخوه لوسيـا وأخوه جـيرـوم، وكانوا جميعـا قد قرروا مغادرة فـرنسـا، وكان جـوزـيف يـريـدـ الـهـجـرـةـ إـلـىـ أـمـريـكاـ معـ أـخـيهـ نـابـليـونـ. وـرـعـاـ يـكـونـونـ هـمـ الـذـينـ أـخـضـرـواـ لهـ خطـابـاـ مـنـ أـمـهـمـ تـعـرـضـ عـلـيـهـ فـيـهـ «ـكـلـ مـاـ تـمـلـكـ»ـ فـأـرـسـلـ لـهـ شـاـكـرـاـ وـلـمـ يـأـخـذـ مـنـهـ شـيـشـاـ. فـلـازـالـ مـعـهـ قـدـرـ كـبـيرـ مـعـ الـبـنـكـيـ جـالـ لـافـيـتـ Jacques Lafitte الذي أـتـيـ بـنـفـسـهـ إـلـىـ مـالـمـيزـوـ لـيـرـتـبـ أـمـورـ نـابـليـونـ المـالـيـةـ.

وفي ٢٨ يونيو أتـاهـ ضـابـطـ يـحـذـرـهـ مـنـ اـقـتـرـابـ الـبـرـوـسـ مـنـ مـالـمـيزـوـ قـرـبـاـ يـكـفـيـ لـإـرـسـالـهـ فـصـيـلـاـ عـسـكـرـيـاـ لـلـقـبـضـ عـلـيـهـ، وـبـالـفـعـلـ فـقـدـ كـانـ بـلـوـخـرـ قـدـ أـرـسـلـ رـتـلـاـ سـرـيـعاـ آـمـرـاـ إـيـاهـ بـإـحـضـارـ نـابـليـونـ حـيـاـ أوـ مـيـتاـ وـعـبـرـ عـنـ نـيـتـهـ بـإـطـلـاقـ النـارـ عـلـيـهـ كـمـجـرـمـ خـارـجـ عـلـيـهـ

القانون^(١١). وعندما سمع جورجو بهذه النية أقسم لشن رأى الإمبراطور وقد سقط في أيدي البروس لأطلق النار عليه، ومع هذا كان نابليون كارها لمغادرة مالمизو الذي حفلت كل غرفة . ومراته بذكريات سعيدة. وفي ٢٩ يونيو كلف فوشيه الجنرال بكه (بكر Becker) بالتوجه بفرقة من الجنود لإيجار نابليون على الاتجاه إلى روشفور.

ووافق نابليون، وأقنعته هورتنس بقبول قلادتها الألماسية الموضوعة في حزام والتي تساوي ٢٠٠،٠٠٠ فرنك . ووَدَع نابليون الجنود القلائل الذين كانوا في حمايته . وفي الخامسة مساء (٢٩ يونيو) ركب عربة ذات غطاء تجرها أربعة خيول مصحوبا بحرس عسكري قليل العدد وغادر مالمизو، وبعد ساعات قليلة من مغادرته وصلت خيالة بلوخر.

٢- البوربون يستعيدون العرش للمرة الثانية: ٧ يوليو ١٨١٥

راح المجلسان والحكومة المؤقتة يتناقشون هل يحاربون الحلفاء الذين اقتربوا أم يتفاوضون للوصول لأفضل الشروط المتاحة . وعرض دافو Davout أن يقود الميليشيا الموجودة بالمدينة (باريس) ضد ويلنجتون وبلوخر إن أصرّا على إعادة لويس ١٨ إلى العرش . وخفف النواب أن تؤدي المقاومة والهزيمة إلى تمزيق فرنسا وما يعقب ذلك بوقت وجيز، من فضّ المجلسين معاً . ولم تكن بقایا جيش نابليون المعروف بجيشه الشمالي في حالة نفسية تسمح بهزيمة أخرى (واترلو أخرى) بالإضافة إلى نقص المؤن، بينما كانت قوات الأعداء موحّدة بين لون وباريس . Loan

وعندما علم لويس الثامن عشر أن فريقاً من الحلفاء كان يعمل على إحلال لويس فيليب (دوق دورليان Duc d'Orléans) مكانه كملك لفرنسا انتقل وهو في حالة قلق من جنت إلى شاتو كمبريزي Chateau - Cambrésis وأصدر من هناك (في ٢٥ يونيو) بياناً يعد فيه بالترضية (التسوية) ونظام الحكم الليبرالي . وأدى هذا إلى ابتهاج المجلسين، وفي ٣٠ يونيو وقّعت الحكومة الفرنسية المؤقتة والحلفاء شروط تسليم العاصمة . كان على كل القوات الفرنسية أن تنسحب فيما وراء نهر اللوار مع ضمان أمن المواطنين ومتلكاتهم . وفي السابع من يوليو دخل الحلفاء باريس وفي الثامن من يوليو أصبح لويس ١٨ مرة أخرى ملكاً

لفرنسا. واستخدم مدیر شرطة دائرة (محافظة) السين Seine عند الترحيب به عبارة «المائة اليوم Cent Jours» للمرة الأولى ليصف بها الفترة الواقعة بين اغتصاب نابليون الملك للمرة الثانية (٢٠ مارس) واستعادة لويس ١٨ عرشه.

وقبل معظم الفرنسيين وقف المقاومة باعتباره الحال العملي الوحيد للمشاكل الناجمة عن انهيار حكم نابليون المفاجئ. وعلى أية حال فإن بلوخر قد أطلق صيحة احتجاج مؤدّاها أنه سيطلب من مهندسيه نصف جسر بونت دينا Pont d'Iena وذلك الجسر الذي يذكّر بانتصار الفرنسيين على البروس في سنة ١٨٠٦، واقتراح تدمير كل ما يذكّر بناپليون (المقصود الآثار والنصب التذكاري... الخ)، وانضم ويلنجتون مع لويس ١٨ في حث بلوخر على الكف عن كل ذلك، لكنه أصر، غير أن وصول القيصر إسكندر والملك فريديريك وليم والإمبراطور فرancis الثاني على رأس قوات روسية وغمساوية وبيدمونتية أدى إلى إجبار الوطني العجوز (بلوخر) على التهديد من حدة غضبه^(١٢). لقد بلغ إجمالي القوات الأجنبية الآن نحو ٨٠٠,٠٠٠ لابد أن يُطعمها الشعب الفرنسي لقاء حمايتها له policing (أي قيامها بدور رجال الشرطة)، وعلى وفق حساب كاسلريه Castlereagh فإن هذا كان يكلف فرنسا ٧٥٠,٠٠٠ فرنك في اليوم (لإطعام الذين يحتلون بلاده)، وبالإضافة إلى هذا كان على كل ولاية أو منطقة أو محافظة أن تدفع للحلفاء تعويضات حرب، وكانت هذه التعويضات باهظة. وأخبر لويس ١٨ قادة الحلفاء أنهم إذا لم يلتزموا بإعلان ٢٥ مارس واستمروا في معاملة رعاياه كأعداء، فإنه سيترك فرنسا باحثاً عن ملجاً له في إسبانيا. فوافق الحلفاء على تخفيض تعويضات الحرب إلى خمسين مليون فرنك متذريّعين بأنهم راضون تماماً بقوتين الحرب وبالسابق التي رسّخها نابليون عندما غزا بروسيا والنمسا.

ووجدنا أيضاً الملكيّن في بعض المدن الفرنسية منهكين في «إرهاب أبيض White Terror» ثاراً من «الإرهاب الأحمر» الذي أدى إلى مقتل عدد كبير من الملكيّن في عامي ١٧٩٣ - ١٧٩٤. ولم يكن هذا الإرهاب الأبيض دائماً بغیر إعدام عاجل، فعندما تظاهر فريق من الملكيّن في مارسيليا مطالبين بعودتهم لويس الثامن عشر إلى العرش قام بعض جنود الحامية المحلية من لا زالوا موالي نابليون بإطلاق النار عليهم. وسرعان ما أوقف القائد

إطلاق النيران وحاول أن يقود جنوده خارج المدينة المعادية لكن في أثناء خروجهم تعرض مئات منهم لقذائف النيران التي أطلقت عليهم من التوافد ومن فوق الأسطح (٢٥ يونيو) وفي هذا اليوم واليوم الذي تلاه راح الملكيون المسلحون يجرون حول المدينة مطلقي النار على البونابرتين والمعاقبة فسقط منهم مئة ضحية، وكان كثيرون من هؤلاء الضحايا لا يزالون يهتفون حتى وهم يحتضرون «عاش الإمبراطور» وراحت النسوة الملكيات يرقصن حول جثت البونابرتين والمعاقبة^(١٣). وفي أفينيون Avignon سجن الملكيون البونابرتين وقتلوهم. وثمة شخص كان الملكيون يبحثون عنه على نحو خاص، إنه جولوم برونيه Guillaume Brune الذي كان متهمًا بحمل رأس الأمير لامبل Lamballe على سن رمحه في سنة ١٧٩٢ لقد اختبأ في فندق أفينيون وعثرت عليه الجماهير فأطلقت عليه النار وجرت جثته في شوارع المدينة وراحوا يضربون جثته بنشوة حانقة، ثم ألقواها في الرون Rhône وراح الرجال والنساء يرقصون بنشوة وسعادة (٢ أغسطس ١٨١٥). وشهدت مدن نيم Nimes ومونتبلييه Montpellier وتولوز Toulouse مشاهد مماثلة. لقد كان لويس ١٨ رجلاً متسامحاً لا يمكن عزوه هذه البربرية له، لكنه لم يكن قادراً على التسامح مع ني Ney الذي سبق أن تعهد له (تعهد للويس ١٨) بإحضار نابليون حياً أو ميتاً لكنه تخلى عن وعده وانضم إلى نابليون وتسبب في موت كثيرين في واترلو. لقد فرّ ني Ney من باريس في ٦ يوليو وراح يتنقل متخفياً من مدينة إلى أخرى لكن تم التعرف عليه فقبض عليه وقدم إلى محكمة مكونة من ١٦١ عضواً (نبيلا) Peers أصدرت حكمها بأنه متهم بالخيانة فتم إعدامه بإطلاق النار عليه في ٧ ديسمبر سنة ١٨١٥ بعد أن رفض أي خدمات دينية من القسّ (رفض أن يلقيه القسّ أصول المسيحية الكاثوليكية كما رفض الطقوس الكنسية المرتبطة بالموت).

لقد أصبح فوشيه وتاليران الآن في خدمة (وزارة) لويس ١٨ لقد انتصراً لكنهما لم يكونا سعيدين. لقد وصم الملكيون في مجلس الوزراء فوشيه بأنه ضالع في قتل لويس ١٦ ونصحوا الملك بطرده، وسوّى الملك الأمر بتعيينه وزيراً لله (سفيراً) في سكسونيا (١٥ سبتمبر) لكنه استدعاه بعد ثلاثة أشهر ونفاه من فرنسا، فراح فوشيه يتنقل من براً إلى لينز

(لينتس Lins) إلى تريست حيث مات في سنة ١٨٢٠ عن عمر يناهز الواحد والستين عاماً مارس فيها كثيراً جداً من الشرور والسلوك الطائش.

وكان تاليران يضارعه مكراً ودهاءً ويفوقه تحملًا وصمودًا. لقد وصفه لويس ١٨ بسيطرة من كورنيل Corneille: «لقد فعل معي كثيرة من الأمور الطيبة تمنعني من ذكره بشر، وألحق بي كثيرة من الأذى مما يمنعني من ذكره بخير^(١٤)» ويبدو أن تاليران هو الذي قال (في سنة ١٧٩٦) عن البوربون: «إنهم لم يتعلموا شيئاً ولم ينسوا شيئاً^(١٥)». لكن هذا القول لا يكاد ينطبق على لويس الثامن عشر الذي تعلم كيف يتعامل مع المجالس المنتخبة وكيف يُرحب بجنرالات نابليون وكيف يُبقي على كثير من التشريعات النابليونية. وكان الوزراء الملكيون يكرهون تاليران ليس لأنه كان شريكًا في المؤامرة على قتل الملك (لويس ١٦) فحسب وإنما أيضاً باعتباره خائناً لطريقته، وأذعن لويس ١٨ لهم فطرده (٢٤ سبتمبر ١٨١٥)، ولكن تاليران عاد إلى منصبه، وعاش بعد لويس ١٨ بل وعاش بعد تنازل شارل العاشر (١٨٣٠) وتم تعيينه سفيراً لفرنسا لدى بريطانيا العظمى (١٨٣٠ - ١٨٣٤) وهو في السادسة والسبعين من عمره. وعندما انتقد مركز لوندوندري Londonderry السفير تاليران في مجلس اللوردات دافع عنه ويلنجتون الذي كان قد تعامل مع السيد تاليران في موقف كثيرة فوجده على حد تعبير دوق ويلنجتون أكثر من عرف من الرجال حماساً ومهارة في حماية مصالح بلاده (فرنسا) وأكثر من عرف من الرجال استقامة وشرفًا في تعامله مع الدول الأخرى. وعندما قرأ تاليران هذه الكلمات كاد يبكي، فلا شيء أفضل له من هذه الكلمات: «إنني ممتن شديد الامتنان لدوق ويلنجتون فهو رجل الدولة الوحيد في العالم الذي تحدثعني حديثاً طيباً^(١٦)» أما وقد عاون في تنظيم التحالف الرباعي في سنة ١٨٣٤ ومات في سنة ١٨٣٨ عن عمر يناهز الرابعة والثمانين، وفاق الجميع حدة ذهن ودهاء، فإنه كاد يخدع الموت نفسه.

وفي ٢٠ نوفمبر ١٨١٥ وقع لويس الثامن عشر مع الحلفاء معاهدة باريس الثانية التي صاغت العقوبات التي كان على فرنسا أن تتحمّلها لسماحتها لنابليون بمواصلة الحكم (بعد عودته من إلبا) لقد كان على فرنسا أن تتنازل عن السار Saar وسافوي وأربع مدن حدودية

بما في ذلك فيليبفيل MarlenburgPhilippeville ومارينبورج Marlenburg، وأن يعيد الأعمال الفنية التي استولى عليها جنرالاتها الغازون، وأن تدفع تعويضات حرب مقدارها ٧٠٠ مليون فرنك بالإضافة إلى ٢٤٠ مليون فرنك على وفق دعاوى (مطالبات) خاصة، وأن تظل قوات الحلفاء في الأراضي الفرنسية مدة تراوح بين ثلاث سنوات وخمس وأن تدفع فرنسا تكاليف هذه القوات^(١٧). ورفض تاليران توقيع هذه الوثيقة لكن وزير الخارجية الذي خلفه – أرمانت إمانويل دي بلس Duc de Richelieu وقعها محتاجاً (وعلها احتجاجة عليها) وبعدها صاح: «لقد لوثتُ شرفي»^(١٨).

٣- التسلیم: ٤ يوليو - ٨ أغسطس ١٨١٥

لقد ركب نابليون من ماليزه متوجهها جنوباً فلحق به عند نيوت Niort أخوه جوزيف، ورفيقه في السلاح جورجو. ووصلوا إلى روشفور Rochefort (جنوب شرق لا روشيل La Rochelle بثلاثة عشر ميلاً) في وقت متأخر من الثالث من يوليو فوجدوا الفرقاطتين اللتين تقعوا وجدهما (الفرقاطة سال Saale والفرقاطة ميدوز Méduse) في الميناء، لكن خلف هاتين الفرقاطتين كان يوجد أسطول حربي بريطاني صغير يحاصر الميناء وينبع فيما يبدو أي خروج منه دون تصريح.

وفي ٤ يوليو أرسل نابليون استفساراً إلى قبطان الفرقاطة سال Saale – هل تم احتجاز مكان له ولبعض أصدقائه لرحلة إلى أمريكا، وهل يمكن للفرقاطة سال Saale اختراق الحصار؟ فاتته الإجابة بأن الفرقاطة جاهزة ومستعدة للإبحار وستحاول أن تروغ من السفن الحربية (الحاصرة – بكسر الصاد) ليلاً مع احتمال أن ت تعرض للتوقيف أو القصف لكن إن أفلتت فإن سرعتها الفائقة لنتمكن السفن الحربية من اللحاق بها. إن نابليون الآن في محن راح يقلبها فضل تسعه أيام متربدة يقلب الخطط – خطط هربه، وراح يطلب النصيحة من رفيق بعد رفيق، فعرض عليه جوزيف الذي كان يشبهه في المظهر أن يتذكر هو (أي جوزيف) متقمصاً شخصية نابليون وأن يترك نفسه ليحتجزه البريطانيون، بينما قد يُسمح لنابليون بملابس المدنية بمواصلة رحلة تبدو روتينية على متنه إحدى الفرقاطتين، ورفض

نابليون تعرىض أخيه للخطر. وقد أبحر جوزيف نفسه في وقت لاحق على إحدى الفرقاطتين إلى أمريكا. لقد نسي نابليون خمسة عشر عاما من الحرب، وراح الآن يعزم على أنغام الهوى مع إنجلترا مؤملا أنه إذا سلم نفسه لها فقد تعامله كأسير ممیز وتسمع له بقطعة أرض متواضعة ليعيش فيها كمالك - بسلام. وفي ١٠ يوليو أرسل لا كاس Las Cases وسافاري Savary (دوق رو فيجو Rovigo) ليطلب من القبطان فريدرريك ميتلاند Maitland على ظهر السفينة بيلوفون Bellerophon التابعة للناتج البريطاني عما إذا كان قد تلقى أية جوازات سفر (تصاريح سفر) باسم نابليون يتوجه بمقتضاه إلى أمريكا. ولم يكن لدى القبطان بطبيعة الحال مثل هذه الجوازات. عندئذ سأله لا كاس عما إذا سلم نابليون نفسه للبريطانيين فهل يتوقع أن يعامله الإنجليز بالكرم المعروف عنهم، فأجاب ميتلاند أنه يسعده أن يستقبل نابليون ويأخذه إلى إنجلترا لكنه - أي ميتلاند - غير مخول بتقديم أية وعود عن كيفية استقباله هناك.

و قبل هذا الحوار أو في أثنائه أو بعده تلقى القبطان ميتلاند من رئيسه - السير هنري هوتمام Hotham نائب الأدميرال (الذي كان يطوف وقتها إزاء الساحل الشمالي الغربي لفرنسا) رسالة يخبره فيها أن نابليون موجود في روشفور Rochefort أو بالقرب منها وأنه ينوي العبور إلى أمريكا، وأضاف الأدميرال: «عليك أن تبذل قصارى جهدك لمنعه من الإبحار فوق الفرقاطات،... وإن أسعده الحظ بالقبض عليه، ضعه تحت حراسة جيدة وتوجه به بأقصى سرعة إلى ميناء بريطاني^(١٩)».

وفي ١٤ يوليو أو نحو هذا التاريخ تلقى نابليون تحذيرا من أن لويس الثامن عشر كان قد أمر الجنرال بونفور Bonnefours بالتوجه إلى روشفور للقبض عليه (على نابليون)^(٢٠) وتحرك بونفور ببطء. لقد أصبح نابليون الآن ملزما بخيار من خيارات ثلاثة: إما أن يسلم نفسه للويس الثامن عشر الذي لديه كل الأسباب التي تجعله كارها له، أو أن يخاطر بالهرب محاولا الإفلات من الحصار البريطاني أو أن يسلم نفسه للقبطان ميتلاند على أمل أن يحظى بمعاملة كريمة من بريطانيا. واختار نابليون الطريق الثالث، ففي ١٤ يوليو كتب للوصي على العرش الذي كان يحكم بريطانيا آنئذ:

نظرأً للفرقة (الشقاق) التي استنزفت بلادي، واحتلال القوى الكبرى في أوروبا قررت أن أنهى كل عمل لي في مجال السياسة وإنني آت - مثل تيميسوكل Thémistocle - لأقيم في بيت الشعب البريطاني لأنعم بالدفء بينه. إنني أضع نفسي تحت حماية قوانينكم التي أناشد سموكم الملكي باعتباركم أكثر أعدائي قوة وعزمًا وكرماً أن تمنحوني حمايتها.

نابليون (٢١)﴾.

وعَهِد نابليون إلى جورج بتسليم هذا الخطاب وطلب منه أن يحصل على إذن لتوصيل الخطاب في القارب التالي. وقد وافق ميتلاند لكن القارب الذي استقل جورج قد تم احتجازه طويلاً في الحجر الصحي، وليس هناك ما يشير إلى أن هذا الخطاب قد وصل إلى الوصي على العرش.

وفي ٥ يوليو وضع نابليون ورفاقه على متن السفينة البريطانية بيلروفون Bellerophon واستسلما طائعين لبريطانيا العظمى. قال نابليون لميتلاند: «لقد أتيتُ على متن سفينتك لاضع نفسي تحت حماية القوانين الإنجليزية»^(٢٢). وقد استقبلهم القبطان بمودة ووافق على نقلهم إلى إنجلترا ولم يقل لهم شيئاً عن رسالة الأدميرال هوثام Hotham لكنه حذر نابليون من أنه لا يضمن أن يتم استقباله بود في إنجلترا. وفي ١٦ يوليو أبحرت السفينة بيلروفون قاصدة إنجلترا وفي وقت لاحق أبدى ميتلاند ملاحظة طيبة عن أسيره الكبير: «لقد كانت طباعة دمثة تماماً. لقد كان يشارك في كل مناقشة، ويروي كثيراً من التوارد، ويسلك كل السبيل ل يجعل الجوَّ فكِهَا مِرَحاً. وكان مؤلِّفاً بشكل كبير جداً مع كل من معه.. رغم أنهما كانوا يعاملونه بكثير من الاحترام. وكان يملِّك - بشكل مدهش - القدرة على إحداث تأثير محبِّب على من يناقشونه»^(٢٣).

وكان طاقم السفينة مبتهجاً وعامله بأقصى درجات الاحترام. وفي ٤ يوليو وصلت السفينة تيلروفون إلى خليج تور Tor Bay وهو خليج صغير في القناة الإنجليزية على ساحل

(*) أعظم جنرالات أثينا. نفته السلطات الأثينية نحو ٤٧٠ ق.م. وظل ملحاً من مدينة إغريقية إلى أخرى. وأخيراً استقبله الفرس - أعدى أعداء أثينا - وقدموا له الحماية مع أنه كان قد هزم الفرس في سالاميس Salamis في سنة ٤٨٠ ق.م.

ديفونشير Devonshire وسرعان ما تم ركزت فرقة طنان مسلحة عند الجانب الآخر للسفينة. لقد أصبح من الواضح أن نابليون قد غدا أسيرا، وأتى الأدميرال الفيسكونت (النبيل) كيث Viscount Keith فوق سطح السفينة وحياته بحيرة متسمة بالبساطة: وبعد ذلك قال جورج جونابليون إنه لم يستطع تسليم خطابه (خطاب نابليون) للوصي البريطاني على العرش، لكنه كان مضطراً لتسليمها إلى كيث الذي لم يعره اهتماماً^(٢٤). وأمر كيث القبطان ميتلاند أن يتوجه بسفينته إلى بلايموث Plymouth على بعد ثلاثة ميلًا حيث ظلت السفينة هناك حتى الخامس من أغسطس. وفي هذه الفترة أصبحت محطة حب استطلاع البريطانيين. لقد ركب الرجال والنساء من كل أنحاء جنوب إنجلترا إلى بلايموث وازدحموا في القوارب ليروا الغول الإمبراطوري وهو يمشي الفترة المقررة له يومياً فوق متن السفينة.

وأمضت الحكومة البريطانية أياماً لتقرر ما تصنعه معه. وكان الرأي السائد هو معاملته كشخص خارج على القانون على وفق ما سبق للحلفاء أن أعلنوه رسمياً وباعتباره شخصاً خرق اتفاق فونتينبلو المتساهل معه، فاجبر أوربا على حرب أخرى معه كلفتها كثيراً من الأرواح والأموال. من الواضح أنه يستحق الموت، فإن سجن فقط لكان ممتناً، لكن إن كان لا مناص من سجنه فليكن بحيث لا يهرب ليحارب مرة أخرى. وبما كان يستحق بعض الرحمة لتسليم نفسه طوعاً فوق الحلفاء مزيداً من المتابع، لكن هذه الرحمة لا يجب أن تدع له طريقاً للهرب، وعلى هذا أمرت الحكومة البريطانية الأدميرال كيث أن يخبر الأسير (السجين) أنه عليه أن يقيم من الآن فصاعداً في جزيرة سانت هيلانا (هيلانه) على بعد نحو 1200 ميل من غرب إفريقيا. إنها جزيرة بعيدة، لكن كان لابد أن يختاروا له مكاناً بعيداً، كما أن بعدها قد يُريح السجين (نابليون) والمحفظين عليه مما تتطلب المراقبة عن قرب من صرامة. وتناقش حلفاء بريطانيا ووافقو على هذا الحكم مع احتفاظهم بحق إرسال مندوبيهم للجزيرة للمشاركة في الإشراف عليه (مراقبته) وكاد نابليون ينهار عندما علم أنه قد حُكم عليه بما اعتبره موتاً رغم أنه يتنفس، فاعتراض بشدة لكنه استسلم عندما رأى أنه لا جدوى من ذلك. ومنع عدة مزايا، فقد سُمح له باختيار من يرغب من أصدقائه ليصحبواه، فذكر الجنرال بيتران «المارشال الكبير في القصر» والكونت دي مونشلو،

والكونتيسه دي مونشولو Montholon (كان هذا الكونت هو معاونه في معركة واترلو) والجنرال جورجو المدافن الخلص عنه، كما اختار واحدا من اثنين: الكونت دي لا كاس وابنه. وسمحت السلطات لكل واحد منهم (نابليون وصبه) أن يصحب معه خدماً ومبلاع ١٦٠٠ فرنك. لقد أخذ نابليون معه عديداً من الخدم ودبر ليأخذ معه مبلغاً كبيراً من المال، فقد أخفى قلادة هورتنس الالماسية الشهية في حزام لا كاس، وخبأ ٣٥٠،٠٠٠ فرنك في عباءات خدمه. وكان مطلوباً من كل منهم تسليم سيفه، لكن عندما تقدم الأدميرال كيثر ليأخذ سيف نابليون هدد نابليون بسلمه دفاعاً عن نفسه، ولم يصر كيثر^(٢٥). وفي الرابع من أغسطس أبحرت السفينة بيلروفون من بلايموث قاصدة بورتسموث Portsmouth وهناك سلمت أسيرها (نابليون) وحاشيته ومتلقياتهم لسفينة أكبر (النورثمبرلاند Northumberland) التي أبحرت في ٨ أغسطس قاصدة سانت هيلانا.

١- جزيرة سانت هيلانا

لقد كانت رحلة طويلة من إنجلترا - من ٨ أغسطس إلى ١٥ أكتوبر. وكان نابليون معتاداً على السرعة في الحركة والفعل والحدث فاعتراه الملل وتحمّله بشق النفس. وفكّر الأدميرال السير جورج كوكبورن Cockburn في تيسير الأمر بأن راح يدعو يومياً نابليون وأحد رفاقه لتناول الغداء معه ومع بعض الضباط البريطانيين، وعلى أية حال فقد كان البريطانيون يقضون ساعتين ونصف على مائدة الغداء أمّا نابليون فكان يحثّهم على قبول اعتذاره عندما يبدأون في تناول الشراب (الخمور)، وكان يجفل عندما ينادونه «بجنرال» بدلاً من «إمبراطور» لكنه كان معجباً بمودتهم ولطفهم. واقتصر أصدقاءه كوسيلة لقتل الوقت وتهوينه أن يُملّى عليهم ذكرياته في الحكم وال الحرب. لقد بدأ الآن دور الذكريات التي دونها أوميرا O'Meara أو لا كاس أو جورجو، أو مونشلو والتي نشروها بعد وفاته. ولعبت دوراً في أن أصبحت ذكرى نابليون قوّة حيّة في فرنسا طوال القرن. لقد طال مقام الرجال في البحر فلابد أن نابليون نفسه قد اعتراه السرور عندما رأى الساحل الصخري لجزيرة سانت هيلانا. إن نظرة واحدة يمكنها أن تحيط بمعظم أنحاء الجزيرة. لقد كان محيطها عشرين ميلاً فقط، ويُكاد يكون كل سكانها مجتمعين في مينائها جيمستون ذي الشارع الواحد. لقد كان عدد سكان هذه الجزيرة خمسة آلاف نسمة. وكانت الأرض المتضرّسة (الوعرة) غير المستوية ترتفع صُعُداً إلى هضبة عند لونجورود Longwood ومناخها إستوائي حار مطر سديمي، والفصول المنتظمة لا وجود لها وإنما هناك تغييرات غير محسوبة من رطوبة وجفاف. وكانت تربتها غير ودودة (المقصود غير خصبة) تضيق بالطعام عند زراعتها. إنها «بقعة من الأرض» صالحة لعزل «صانع مشاكل» لكنها كتعذيب لرجل كانت حياته عملاً يتطلب قارة تكون مسرحًا له.

لقد ظل هو ومن معه على متن السفينة، بينما راح الأدميرال كوكبورن Cockburn

يبحث لهم عن مقر إقامة مؤقت حتى ينتهي العمل في البيت الكبير الذي كانت الحكومة البريطانية قد اختارته ليقيموا فيه معا. فبالنسبة إلى نابليون ولا كاس Las Cases وابنه وجد الأدميرال مكانا باعثا على المسرة «البريار Briars^(*)» ظن مالكه (وليم بالكومب Balcombe) أن استضافته للإمبراطور (نابليون) ستكون أمراً شائقاً. وكان مالك هذا البيت ابنتان إحداهما في السادسة عشرة والأخرى في الرابعة عشرة، أبهجتا البيت، فقد كانتا تتحددان قليلاً من الفرنسية وتمثلان وتعنيان، وقد شُعفتا بنبليون حتى أن الصغيرة منهما بكت عندما أصبحت عليه أن يغادر إلى البيت المشترك الذي أعدته الحكومة البريطانية لإقامتها ومن معه، وكانت يطلق عليه «بيت لونجورود Longwood».

لقد كان هذا البيت المشترك «لونجورود» بيتاً ريفياً قديماً على بعد نحو ستة أميال من جيمستون. وكانت غرفه الكثيرة بسيطة لكنها مؤثثة بشكل كاف. وعلى وفق الخطة الممتازة التي وضعها لا كاس Las Cases يكون من نصيب نابليون ست غرف: «غرفة انتظار واسعة للزوار وحجرة مؤدية إليها» وردهة وغرفة نوم وغرفة دراسة ومكتبة وغرفة طعام واسعة. وكانت الجدران مغطاة من الداخل بكتانافا مشبعة بالقار، وكانت طريقة تغطيتها أنيقة، وكان هناك نوافذ كثيرة. وقبل نابليون هذا دون شكوى مبدئياً، بل إنه كان سعيداً بالحمام الذي وصفه بأنه «فخم مترف بطريقة لم يسمع عنها في هذه الجزيرة البائسة⁽¹⁾» وقد ذكر لا كاس أن «الإمبراطور» كان راضياً عن كل شيء⁽²⁾. أما الجناح الآخر من الغرف المشيدة فقد هيئت لكل من لا كاس وابنه والكونت دي مونشلو Montholon والكونتيسة دي مونشلو، والجنرال جورجو، والدكتور أوميرا Meara⁽³⁾ طبيب نابليون. وتم إعداد غرف كبيرة عامة لخدم نابليون وخدم الآخرين⁽³⁾. أما الجنرال بيرتران Bertrand وزوجته وخدمهما فقد أقاموا في بيت صغير في الطريق إلى جيمستون.

وكان لنبليون حرية الحركة - على قدميه أو راكباً حصاناً أو في عربته في حدود دائرة نصف قطرها خمسة أميال من البيت الذي يُقيم فيه، لكن كان لابد أن يخضع لمراقبة الجنود الإنجليز إذا ما خرج من هضبة لونجورود (الهضبة التي فيها بيت لونجورود الذي يقيم فيه،

(*) المعنى الحرفي للكلمة هو الورد البري. (المترجم).

والآن ذكره)، وكان حاكم الجزيرة الإنجليزي يرسل يوميا الوجبات الغذائية لنابليون ومن معه، وكان يمكنهم طلب طعامهم في حدود لا يتعدونها^(٤). واعتاد الإمبراطور أن يأكل بمقادير ضئيلة حتى الساعة الثامنة مساء (المعنى: لا يتناول وجبة مرة واحدة) ثم يتناول هو ومن معه عشاءهم بترو ما يجعله - بعد العشاء - مستعدا للنوم. وكان نابليون قد أحضر معه من فرنسا أدوات مائدة مترفة غالبة الثمن، وكان يستخدمها بانتظام بل لقد سمعنا أنه جلب معه سكاكين وملائق وشوكات من ذهب^(٥). أما الأطباق فكان غالبيها من خزف سيفر Porcelain Sèvres (سيفر مدينة فرنسية). وكان الخدم يرتدون ملابسهم الرسمية الخضراء المخلاف بالذهب كاملا. وكان لا كاس مبهورا «بأناقة أدوات المائدة والطريقة الممتازة التي تنظم بها موائد الطعام»^(٦) لقد استمر «الإتيكيت» الذي كان معمولا به في التوليري في لونجوود. وسمع نابليون لأصدقائه المخلصين بالحديث معه بكثير من الصراحة لكنه لم يُزل الكلفة بيته وبينهم، فقد كانوا دوما يشيرون إليه في حديثهم بالإمبراطور، وكانوا يخاطبونه بصاحب العظمة، وكانت الخطابات التي توجه إليه كجنرال لا يتم فضها، وكان على الزوار أن يخاطبوه كإمبراطور أو أن يكتشوا بعيدا عنه (لا يخاطبونه) وكانت هناك بعض الصعوبات ومبنيات السخط، فقد استوطنت الفغران في منزل الإمبراطور، بل وحتى في قبعته، وكانت تجري حول أرجل المائدة وهو يتناول طعامه، ولم تكن البراغيث ولا البق لتميز بين الخادم والإمبراطور. لقد تذمر لا كاس قائلا: «لقد أكلتنا هذه الحشرات بكل معنى الكلمة»^(٧) وكان الضباب المسبب للكآبة يعم المنطقة يوما بعد يوم، وكان الماء يسقط أحيانا وافتقد الإمبراطور حمامه الدافئ. وأدت المراقبة الدائمة - مهما كانت مهذبة أو من بعد - إلى اعتكاف يشبه اعتكاف الرهبان في الدير، وما جعل هذا مقبولا رتابة الحياة في هذا المكان. لكن في أي مكان آخر يُتاح لسجين أن يكون له هذا العدد من الأصدقاء والخدم وحصان وعربة خفيفة وكل الكتب التي يمكنه استخدامها؟ باختصار لقد كان سجنا محتملا أكثر مما يتوقع أي سجين خاصة بعد أن هرب من مكان احتجازه السابق وبعد أن كلف ملايين الجنيهات الإسترلينية والضحايا لإعادة القبض عليه. لقد سارت الأمور بشكل معقول حتى وصل السير هدسون لو Lowe.

وصل إلى جزيرة سانت هيلانا في ١٤ أبريل سنة ١٨١٦ ليحل محل السير جورج كوكبورن، كحاكم للجزيرة. وقد وضعت الحكومة البريطانية في اعتبارها عند اختياره أنه موظف واع ينفذ التعليمات بإخلاص. وكان لابد أن تتم التعليمات التي لديه لتشمل السجين (نابليون) «كل عمل مرتبط بسلامته» لقد بدأ السير هدسون لو مهامه بشكل طيب. لقد أحضر معه نحو ألفي مجلد باللغة الفرنسية وجعلها تحت أمر نابليون ومن معه وأرسل يقول إنه سمع أن المنزل الذي يقيم فيه هو ومن معه (منزل لونجوود) في حاجة بعض الترميمات وإن سيأمر بإجرائها حالاً^(٨). وظن أنَّ عليه أنْ يزور سجينه الميَّز وطلب من سلفه الأدميرال كوكبورن أنْ يصحبه في هذه الزيارة. ومن المفترض أنه لم يكن يعلم أن نابليون كان قد أصدر تعليماته إلى بيرتران لا يسمح لأحد بزيارته إلا بإذنه – أي إذن بيرتران – وعلى أن يكون هو (أي بيرتران) مرافقا لهذا الزائر، خوفاً من الفضوليين والراغبين في مشاهدته حباً للاستطلاع. وأتى السير هدسون والأدميرال دون ميعاد سابق وطلبوا إذن فكان رد نابليون أنه مريض ولا يمكنه رؤيتهم فسائل لو Lowe متى يأتي إذن، فأجاب نابليون: غداً. لقد جُرح كيرياء لو Lowe ولكنها أتى في اليوم التالي ومعه بيرتران، فاستقبله نابليون ببرود وسرد عليه بعض الأمور التي يُعاني منها: الحُراس متمركزوون بالقرب القريب من منزله وهم أحياناً يحدّقون ليلاً عبر نوافذ بيته، وهو لا يستطيع أن يجول بحصانه إلا في حدود ضيقه دون أن يتبعه ضابط بريطاني. فوعده لو Lowe بأن يبذل قصارى جهده لإزالة أسباب الشكوى^(٩). وبعد مغادرته، ذكر نابليون لرفاقه أنه «لم ير أبداً» ملامح أكثر شبهاً بلامح طائر السفاح الإيطالي من ملامحه^(١٠).

وكان السير هدسون لديه من الكثبياء أكثر مما لديه من روح الفكاهة، وبعد عودته إلى مكتبه أرسل إلى مساعديه نابليون يخبرهم أنَّ القيود موضوع الشكوى فرضتها الحكومة البريطانية وليس لديه الصالحيات لإلغائها، وأضاف قائلاً إنه بناء على تعليمات حكومته لابد أن تمر كل مراسلات بين لونجوود والعالم الخارجي من خلاله وأن تكون خاضعة لتفتيشه (رقابته)^(١١) وعلى وفق ما ذكره لا كاس Las Cases رفض الحاكم أن يوصل لنابليون

الخطابات التي تخطّطه «بإمبراطور نابليون^(١٢)». وأرسل الحاكم دعوة على العشاء للجنرال بيرتران، والجنرال نابليون، فرفضها نابليون. وبلغ النزاع درجة عالية من السخونة عندما أخبر الحاكم الجنرال بيرتران أن الحكومة البريطانية تذمّرت من التكاليف الباهظة التي تتكبّدها للحفاظ على نابليون والإنفاق على إقامته ومن معه (٥١ شخصا)^(١٣). وكانت الحكومة قد سمحت بمبلغ ٨٠٠٠ جنيه إسترليني سنوياً لهذا الغرض، لكن المصاريف الفعلية بلغت ١٨,٠٠٠ جنيه إسترليني في العام الأول واقتربت الحكومة البريطانية أن أي مبلغ يزيد - بعد ذلك - عن ٨٠٠٠ جنيه لأبد أن يدفعه نابليون. فأمر الإمبراطور مونثولو أن يبيع الفضة الإمبراطورية وعرض أن يدفع المصاريف الزائدة إذا وافق لو على لا يُفْضِ خطاب نابليون لمسؤوله البنكي في باريس، ولم يستجب لو Lowe. وأرسلت أسرة نابليون له عروضاً بتقديم الأموال له فشكرهم ولكنه قال إنه سيُضيّع ذلك في اعتباره، وعرضوا عليه أن يأتوا للإقامة معه فمنعهم قائلاً إنهم لن يتحملوا المناخ ولا العزلة طويلاً. وفكّر لو في تيسير الموقف برفع المخصصات إلى ١٢٠٠٠ جنيه إسترليني^(١٤)، لكن مناقشاته حول النفقات أحنت نابليون. وعندما زاره (لو) مرة أخرى (١٦ يوليول ١٨١٦) قال له نابليون (على وفق ما ذكره للا كاس) محرقاً كل الحسور بينهما «أتسمح لي أن أقول لك عن رأينا فيك؟ إننا نعتبرك قادراً على كل شيء... نعم كل شيء. إنني لن أشكو من هؤلاء الذين أرسلوني إلى سانت هيلانا، وإنما من هؤلاء الذين جعلوك حاكماً عليها. إنك مصيبة حلّت بنا، مصيبة أبشع من كل ما تسبّب لنا هذه الصخرة المرعبة من بؤس^(١٥)».

يقول لا كاس: «إن الإمبراطور ذكر أنه أزعج مارا السير هدسون لو في أثناء المناقشة. «لقد كنت متعرّك المزاج تماماً. لقد أرسلوا إلي أكثر من سجان. إن السير هدسون لوجلاً بكل معنى الكلمة... ولابد أن يكون غضبي قد ازداد بقوّة لأنني كنت أشعر باهتزاز ربلة ساقي (بطة ساقي) اليسرى^(١٦)».

وسيطر السير هدسون على نفسه وانسحب، ولم تجر بينهما أية مناقشات بعد ذلك.

إن الجانب المثير والداعي إلى الدهشة في حياة الحبس هذه هو الإخلاص الدائم والعميق لئلا المساعدين الذين صحبوا نابليون إلى سانت هيلانا. ومن المفترض أن عطر الشهرة المُسْكُر قد حفظهم على المزيد من خدمته، لكن إصرارهم على هذا ومثابتهم عليه رغم قيود المنفي وحبسهم إلى وطنهم، يكاد يضفي على ذكرهم طابعاً أسطورياً Arthurian Legend، فهم قد واصلوا إخلاصهم بل وتعاركوا متنافسين على خدمة الإمبراطور، رغم المناخ القاسي المسبب للإحباط، ورغم حاكم الجزيرة غير المقبول منهم. لقد كان إخلاصهم نبيلاً رغم الغيرة.

وكان أنبالهم جمِيعاً هو الكونت هنري - جراتيا بيرتران Henri - Gartien Bertrand (1773 - 1844). لقد دخل التاريخ كمهندس في أثناء معركة نابليون الأولى في إيطاليا. وفي الحملة الفرنسية على مصر قاد كتيبة في معركة الأهرام، وجُرح في أثناء معركة أبي قير، وكانت الجسور التي أقامها على الدانوب في معركة 1809 تُعد على وفق تقديره نابليون من أجمل الكباري (الجسور) منذ عهد الرومان^(١٧). وفي سنة 1813 تم تعيينه مارشالاً لحراسة القصر. وظل موالياً لنابليون خلال الأعوام المديدة التي انسحب (تراجع) فيها نابليون أمام الحلفاء، وصحبه إلى إسبانيا وظل معه طوال المائة يوم (بعد العودة إلى فرنسا) وركب معه إلى روشفور وأبحر معه إلى إنجلترا وسانت هيلانا. وظل في سانت هيلانا مارشالاً لحل الإقامة، يُعاين الرووار ويهدى الغضاب ويُلطف الجو بين نابليون وحاكم الجزيرة، وتحمّل بصبر متسامح محاولة اغتصاب زوجته^(١٨). لقد كانت إنجلizية مخلطة (كيرول) ابنة آخر اللورد ديلون Dillon وتمت بصلة قرابة لجوزفين. وتحمّلت عزلتها بصبر نادر في سانت هيلانا تاركة الحياة الاجتماعية في باريس. وقد صحبها بيرتران عائداً بها إلى فرنسا بعد موت نابليون بخمسة أشهر، وكتب ثلاثة مجلدات عن يوميات سانت هيلانا ولكنّه رفض

(*) يذكر بيرتران في يومياته تحت يوم ٢٦ أبريل ١٨٢١: «الإمبراطور أجاب [وفقاً لما نكره مونثولو لدام بيرتران]: إنني أمّقت رفضها أن تكون خليلة لي.. لن أسامح أبداً الدكتور أنتومارشي لأنّه أحضر إمراة رفضت أن تكون خليلتي». لكن عندما قال نابليون هذا لم يكن قد بقي من حياته سوى عشرة أيام (أي مات بعد عشرة أيام) وربما يكون قد فقد شهونه للجماع. وقد لاحظ بيرتران أنه في اليوم نفسه كان يبكي - تباعاً - وقد فقد ذاكرته.

نشرها. وقد تمَّ فك رموزها وتمَّ نشرها (١٩٤٩ - ١٩٥٩) بعد قرن من وفاته؛ وقد دفن في سرداب مقبرة المحاربين القدماء بجانب رفات نابليون.

ويكاد يضارعه في إخلاصه لنابليون الجراح الأيرلندي بري أوميرا Barry O' Meara (١٧٨٦ - ١٨٣٦). لقد كان - باعتباره طبيباً على متن السفينة نورثمبرلاند - يعود نابليون ويتحدث معه بالفرنسية والإيطالية، وكان متفقاً معه إلى حد ما في آرائه عن الأطباء، وارتبط به ارتباطاً شديداً حتى إنه طلب الإذن من الحكومة البريطانية أن يظل يرعى نابليون طبيباً في سانت هيلانا، فوافقت الحكومة على ذلك. ولم يكن السير هدسون لو موافقاً على هذه العلاقة الحميمة بين الطبيب البريطاني وال مجرم الفرنسي (نابليون) وشك في أن الطبيب أوميرا يشارك في خطة لتمكين نابليون من الهرب، وأصر (أيُّ الحاكم) على تعيين جندي ليصحب هذا الطبيب الجراح أينما ذهب فاعتراض أوميرا، فعمل (لو) على أن يتم استدعاءه إلى بريطانيا (يوليو ١٨١٨) وفي سنة ١٨٢٢ نشر أوميرا كتابه (نابليون في المنفى أو نداء من سانت هيلانا)، وهو دفاع مشبوب بالعاطفة يطالب فيه بمعاملة أفضل للإمبراطور الذي سقط. وحقق هذا الكتاب ذو المجلدين مبيعات كبيرة فبدأت موجة من التعاطف البريطاني مع نابليون. ويحتوي الكتاب على بعض الأخطاء^(١٩) لكن لا كاس دافع عن رواية أوميرا، وكان كل المحيطين بنابليون يكتون لا وميرا احتراماً كبيراً كطبيب وكإنسان مهذب (جنتلمن).

أما إخلاص الكونت عمانويل - أو جسطين - ديدونيه دي لا كاس Emmanuel Augustin - Dieudonne de Las Cases (١٧٦٦ - ١٨٤٢) والأحداث الكثيرة التي شهدتها وكتابه متعدد المجلدات عن ذكريات سانت هيلانا Mémorial de Sainte - Hélène - فتجعله في المقام الثاني بعد نابليون ولو Lowe في النزاع الشخصي الذي جرى في الجزيرة. لقد كان نبلاً صغيراً (المقصود ليس من طبقة النبلاء العليا) حارب في جيش كونديه ضد الثورة، وهاجر إلى إنجلترا وانضم إلى محاولة بعض المهاجرين (الذين تركوا فرنسا عقب أحداث الثورة الفرنسية) لغزو فرنسا عند كويبرون Quiberon وفشل المحاولة فعاد إلى إنجلترا وراح يكسب معيشته بتدريس التاريخ. ولقد وضع الأطلس التاريخي الذي

حظي في وقت لاحق بتقدير نابليون الشديد. وغامر بعد ١٨ برومبير Brumière بالعودة إلى فرنسا، وانتهى إلى أن نابليون هو أحسن دواء للثورة وراح ينتهز كل الفرصة للعمل في خدمته فترقى ليصبح عضوا في مجلس الدولة، ولم تطفئ معركة واترلو من حرارة إعجابه ببابليون، فذهب إلى ماليزو لمساعدته وتبعه إلى روشفور وإلى إنجلترا وإلى سانت هيلانا.

لقد كان هو الأقرب إلى الإمبراطور من بين كل رفقاءه، فكان هو الأكثر حماسا في تسجيل ما يمليه، وحظي بتقديره الكبير خلال كل العواصف (المشكلات) التي مرت بهم في المنفى. لقد دون كل شيء عن نابليون خلا أخطاءه، فلم يكن يعتقد - مثله في ذلك مثل كرومويل Cromwell - في الأخطاء الخالدة (المقصود التي لا تُمحى). وكان تقريره عن ذكريات نابليون وملحوظاته يفيد أنها ليست دقيقة دقة كاملة: «كان الإمبراطور يُملي بسرعة، وعادة ما كانت سرعته في أثناء الإملاء تفوق سرعته في أثناء المناوشات العادمة، لذا فقد كنت مضطراً لابداع نوع من الكتابة الهيروغليفية (المقصود المختصرة أو المختزلة) ثم أعود فأمليها بدوري على ابني» أو «كنت أجلس إلى جوار ابني وهو يعيد كتابة ما أملأه الإمبراطور... وكانت دائماً أقرأ على الإمبراطور ما كان قد أملأه في اليوم السابق فيقوم بإجراء تصحيحات ثم يواصل الإملاء^(٢٠)». وعلى أية حال فإن اللغة التي عبر بها لا كاس عن آرائه الخاصة تشبه إلى حد كبير اللغة التي عزّاهما (نسبها) إلى نابليون حتى إننا لا نستطيع أن نقبل تقريره باعتباره بالنزاهة نفسها التي ظهرت في كتابات جورجو Gourgaud حيث كان يدون مباشرة يومياته المفعمة بالحيوية.

ورغبة من لا كاس في إثارة أوروبا بسبب الصعوبات التي كان نابليون يواجهها في منفاه كتب عن هذه المشاق والصعوبات على قطعة من الحرير ليرسلها إلى لوسيان بونابرت Lucien عَهِد بها إلى خادم كان على وشك العودة إلى أوروبا، إلا أن سلطات الجزرية فتّشت الخادم واكتشفت الرسالة، فأمر السير هدسون لو بالقبض على لا كاس ومصادرة أوراقه (بما في ذلك مناقشاته مع نابليون) وأمر بترحيله هو وابنه إلى كيب تاون (مدينة الرئيس) في ١٥ نوفمبر ١٨١٦ ومن هذا المكان القصي (كيب تون) بدأ الكونت أعوااما من الترحال إلى إنجلترا وبلجيكا وألمانيا، وعادة ما كان خاضعاً لمراقبة مشددة في أثناء تجواله هذا. وفي

أكتوبر سنة ١٨١٨ قدم لوئمر الخلفاء المنعقد في إيكس - لا - شابل Aix - La Chapelle (آخر Aachen) التماساً من أم نابليون لإطلاق سراح ابنها، وقدم هو نفسه مناشدات لحكام روسيا وبروسيا والنمسا وإنجلترا للغرض نفسه لكنه لم يتلق ردا. وبعد موت نابليون سُمِح له بالعودة إلى فرنسا (١٨٢٢). وحصل من الحكومة البريطانية على مخطوطاته المصادرية ونشرها كلها تقريبا في كتابه «ذكريات سانت هيلانا» (١٨٢٣) فأصبحت هذه المذكرات هي الحدث الأدبي لذلك العام. وقد أثرى لا كاس وورثته من حصيلة البيع. وقد أدت شهادته المتخمصة على المعاملة السيئة - كما اعتقد - التي أدت إلى موت نابليون إلى استمرار نابليون «كأسطورة» وأدت إلى رفع نابليون الثالث إلى سدة الحكم فاستمر فيه أكثر مما استمر عمه، كما أدى إلى وصول لا كاس الصغير إلى منصب السيناتور في الإمبراطورية الفرنسية الثانية (أصبح عضوا في مجلس الشيوخ) وكان الرفاق الآخرون غيورين من لا كاس لأنه كان كثير التردد على نابليون وأكثر منهم قربا إليه، ولأن نابليون كان يُكن له مودة شديدة. وكان أكثرهم ضجراً وغيره هو الجنرال جاسبار جورجو (١٧٨٣ - ١٨٥٢) الذي كان لديه أسباب كثيرة لهذا، فقد حارب من أجل الإمبراطور في إسبانيا والنمسا وروسيا وفرنسا، وكان قد أنقذ حياة الإمبراطور في بريين Brienne. وكان أكثر من في المنفى حيوية وحديثاً، متحمس في صداقته، متحمس في عداوته، وتحدى مونثولو وطلب مبارزته، وكان يحب نابليون ويغار عليه من محبته الآخرين. قال نابليون «إنه يحبني كما يحب العاشق معشوقته»^(٢١) (يعنى أنه يغار عليه من الآخرين). ولكي يُعيد نابليون الوئام إلى جماعة المنفى، أرسله إلى أوربا (١٨١٨) حاملا رسالة إلى القيسار إسكندر. ورغم هذا فإن يوميات جورجو (١٨٩٩) Journal inédit de Sainte Hélène هي الأكثر واقعية وفتنة (جمالاً) من بين كل الأصداء التي انبعثت من سانت هيلانا. ولا يكاد الكونت شارل - تريزا دي مونثولو كان أكثر الأربعة الحبيطين بالإمبراطور أبداً ولن عريكة. لقد كان لديه ذكريات تدعوه إلى الفخر إذ تعلم الرياضيات وهو في العاشرة من عمره على يد قائد مدفعة شاب اسمه بونابرت، وبعد ذلك تبع نابليون في صعوده وسقوطه وأصرّ على اصطحابه إلى سانت هيلانا،

وكانت زوجته ألبني دي فاسا Albinie de Vassad قد تزوجت وطلقت قبله مرتين، وكان مطليقاها لا يزالان على قيد الحياة، لذلك لم يكن مونشلو واثقاً فيها تماماً في أي وقت من الأوقات، وتردّدت إشاعات في سانت هيلانا أنها كانت تساعد نابليون على تدفئة فراشه، وقد تناول المسؤولون الروس أمرها بخشونة: «رغم أنها كبيرة السن وفاسقة وسمينة فإنها اليوم خليلة رجل عظيم»^(٢٢). وعندما غادرت الجزيرة (١٨١٩) بكى نابليون^(٢٣). أما مونشلو نفسه فقد بقي إلى النهاية وشارك بيرتران في العناية بالأسير المحتضر وكان يُسمى المنفذ المشارك لتحقيق الإرادة الإمبراطورية. وعندما عاد إلى فرنسا شارك ابن أخي نابليون في السجن سبع سنين وساعدته بعد ذلك ليكون إمبراطوراً آخر.

٤- الدكتاتور الكبير

لقد كان العدو اللدود لهؤلاء المنفيين هو الوقت وابنه الضجر، فهم رجال كانوا قد أدمروا العمل وتاللوا مع الموت، وصاروا الآن وقد أصبحت مهمتهم هي العناية بشخصية عالمية سقط من عليائه الإمبراطورية إلى سجين لا حول له ولا قوة بكل آلامه وأمراضه وضعفه البشري، بل إن نابليون نفسه قال «إن وضعي مُرعب، إنني كميّت حي»^(٢٤) أو كميّت لازالت رغباته موجودة، فالبطل الذي كان فيما سبق يتطلع إلى مزيد من الوقت لمواجهة مهامه التي اختارها أو لينفذ خططه، أصبح يشعر الآن أن الساعات تمر ثقلاً، وأصبح يرحب بالليل ليخفف عنه - بالنوم - وطأة الوقت، بل لم يكن الليل حتى ليشفي علتة، فنظرًا لقلة العمل وجد صعوبة في النوم فراح يتنقل من سرير إلى أريكة إلى كرسي، ثم يعود مرة أخرى بحثاً عن اللاوعي (راغباً في الغيوبة).

وغالباً ما كان يلعب الشطرنج يومياً، وكان يضجر بانتصاره (في الشطرنج) فلم يكن من ندٍ له يجرؤ على هزيمته (في لعبة الشطرنج) وخلال السنة الأولى في منفاه كان يركب حصانه لعدة أميال يومياً لكنه سرعان ما عزف عن ذلك عندما لاحظ أن بعض الضباط البريطانيين كانوا يراقبونه دوماً. وكان يقرأ لعدة ساعات في اليوم لقد كان دوماً يحب الكتب، وكان لابد أن يقرأ بعض الوقت حتى في الأيام التي يكون مشغولاً فيها، لقد كان

يأخذ معه مئات المجلدات في أثناء المعركة، بل لقد أخذ معه ٨٠٠ مجلد إلى واترلو (كان من بينها سبعون مجلداً لفولتير^(٢٥)). وكان قد جلب معه إلى سانت هيلانا ٤٠٠ كتاب من فرنسا، وعند توقف السفينة نورثمبر لاند في ماديرا Madeira أرسل طلباً للحكومة البريطانية طالباً عدداً من الكتب التعليمية وصلته في يونيو سنة ١٨١٦، ووصلته شحنة أخرى في العام التالي، وأرسل له السير هدسون لو بعض الكتب من مكتبته^(٢٦). وأصبح خبيراً في معارك الإسكندر الأكبر وهانيبال (هانيبال) وقيصر. وقرأ مارا درamas كورنيل وراسين بل لقد كان يقرأهما بصوت عال أمام رفاته ويوزع عليهم الأدوار. وكان يحب الأدب الإنجليزي وجعل لا كاس يعلمه المزيد من الإنجليزية ليتمكن من القراءة بها بل والحديث بها. ذكر جورجيو «أن الإمبراطور كان دوماً يتحدث معه بالإنجليزية»^(٢٧).

وكان لديه ميزة يتميز بها عن سائر مرافقيه في المنفى: لقد كان يستطيع أن يدمج الحاضر في الماضي بإعادة سرد تاريخ بلاده، وتاريخ نصف أوروبا من سنة ١٧٩٦ إلى سنة ١٨١٥، وغالباً ما كان هذا من الذكرة (كان التاريخ حاضراً في ذاكرته)، ومن وجهة نظر المشارك الرئيسي (في الحدث)، ولم يكن يطيق صبراً على الكتابة لكنه كان يستطيع أن يتحدث. ويبدو أن لا كاس هو الذي اقترح أنه (أي نابليون) بإمكانه مذكراته لواحد أو آخر من حاشيته يعطي قيمة وتسويقاً لكل يوم يمر. والآن قد لا يجد نابليون في قول دانتي حقيقة ينقصها الكمال: «ليس هناك أكثر مداعة للالم من تذكر السعادة في أيام الشقاء» فإن ذكريات الأيام السعيدة قد تخفف الأحزان الحالية وإن كانت تعمقها في الوقت نفسه. لقد هتف قائلاً: «لقد كانت إمبراطورية جميلة! لقد كان هناك ٨٣ مليون إنسان تحت حكمي – آه إنهم نصف سكان أوروبا^(٢٨)».

ومن هنا فقد دشن دكتاتورية جديدة في السفينة نورثمبر لاند واستمر يمارسها على نحو آخر في سانت هيلانا طوال أربع سنوات. لقد بدأ بأن راح يعيد على لا كاس رواية معاركه الإيطالية في سنة ١٧٩٦ حيث أدت سرعته الحاسمة وانبهار أوروبا إلى أن أصبح (أي نابليون) لازماً لفرنسا لزوماً لافكاك منه. وعندما لم يصبح لا كاس موجوداً بسبب حنق لو Lowe راح الإمبراطور ي ملي على جورجيو، وبعد ذلك على مونثولو، وقليلاً على بيرتران

وأحياناً كان يملي على اثنين منهم في يوم واحد. الآن، تحول هؤلاء المقاتلون من السيف إلى القلم، فارقاً أخباراً كثيرة واستهلكوا أوراقاً كثيرة لحفظ ذكريات الإمبراطور من الضياع ولل一刻 become مقبولاً حسن السمعة في فرنسا التي أصبحت بوربونية من جديد، وأمام محكمة التاريخ. وسرعان ما تعبوا أسرع مما تعب هو، فقد شعر أن هذه هي فرصته الأخيرة ليدافع عن نفسه في مواجهة الخطباء والبلغاء والصحفيين ورسامي الرسوم الكاريكاتيرية الذين مكثوا أعداءه من تصويره في صورة لا إنسانية يجعله غولاً متعطشاً للدماء. وكان نابليون يعلم أنه لا يمكن أن يكون وازعهم لتسجيل أعماله ومذكراته دون مقابل، لذا فقد أعطى لكل منهم الحق الكامل للتصرف في مخطوطاته وما تدره من عوائد. والحقيقة أن كل مخطوطة من هذه المخطوطات أفادت - عندما نُشرت - على كاتبها أو ورثته ثروة^(٢٩).

ومن الطبيعي أن يُبرز المؤلف أفضل الوجوه مبراً أخطاءه لكن - بشكل عام - كانت هذه المذكرات صحيحة بقدر ما يمكن أن يتوقع من رجل يدافع عما فعله في حياته. وقد كان نابليون قد تعلم في هذا الوقت أنه ارتكب أخطاء خطيرة في مجال السياسة والقيادة العسكرية. «لقد كنتُ مخطئاً في الاختلاف مع تاليران. لقد كان يمتلك كل ما ينقصني. فلو أتني سمحت له بنفس رضيَّة أن يشاركني عظمتي لكان قد خدمني جيداً، وظللتُ حتى تخين مينتي وأنا أعتلي عرش فرنسا»^(٣٠) وقد اعترف أنه أساء تقدير صعوبات غزو إسبانيا، وقهر روسيا. «لقد تسرَّعت في الانطلاق من إلبا. لقد كان عليَّ أن أنتظر حتى ينضج مؤخر فيينا وحتى يكون الأمراء والملوك قد عادوا إلى بلادهم»^(٣١). لا أستطيع أن أفهم حتى الآن الهزيمة في واترلو^(٣٢). «لقد كنت أتمنى أن أموت في واترلو»^(٣٣).

لقد كاد الذين أُملي عليهم مذكراته يتبعون، فلم يجدوا وقتاً لتدوين مناقشاته إلا بشق الأنفس. وكانت بطبيعة الحال شائقة فمن في عصره بضارعه في مغامراته المثيرة التي شملت ثلاث قارات؟ لقد كان راوية ممتازاً يذكر كثيراً من التوارد والطرائف في أي موضوع يتناوله. لقد كان بطريقته الموضوعية (المحايدة) فيلسوفاً، وكان يمكنه أن يتحدث بتسامح في أي موضوع بدءاً من الزراعة حتى زيوس Zeus^(*). لقد قرأ التاريخ وتوسع في قراءته توسعاً

(*) زيوس: كبير آلهة اليونان. (المراجع)

جعله يتربأ بالمستقبل وإن كان في بعض تنبؤاته جنوح عن الصواب . «النظام الاستعماري... انتهى بالنسبة إلى الجميع، انتهى بالنسبة إلى إنجلترا التي تملك كل المستعمرات، وانتهى بالنسبة إلى القرى الأخرى»^(٣٤) . سرعان ما سيفتح الشعب الفرنسي عبودية البوربون^(٣٥) . سرعان ما ستواصل ألمانيا طريقه الذي بدأه هو (أي نابليون) نحو الوحدة^(٣٦) . سيكون القرن التاسع عشر قرن الثورات، فمبادئ الثورة الفرنسية – باستثناء بعض الإسفاف – ستنتصر في أمريكا وفرنسا وإنجلترا، «ومن هذه الدول الثلاث سيفجر النور العالم»^(٣٧) . «لقد انتهى النظام القديم، وثمة نظام جديد يقوّي من نفسه ولن يتأنّى قبل حدوث اضطرابات عنيفة»^(٣٨) «إن روسيا قوة ستتقدم مندفعه بالتأكيد، وبخطىٰ واسعة نحو الهيمنة العالمية»^(٣٩) . وإنّى تخميناته الخاطئة «إن السلطة الملكية في إنجلترا تزداد قوة يومياً... إنها الآن تسير ولا يعوقها عائق نحو السيادة المطلقة»^(٤٠) وأخيراً عرض لنا سياسة وشخصها لنا بشكّلٍ مُرضٍ: «لقد أغلقت خليج الأنارشية (المصادمة بعدها القضاء على الحكومة) وظهرت الطريق من الفوضوية. لقد نقّيت الشورة ووّقّرتُ الأُمّم ورسختُ أقدام الملوك. وضررتُ المثل وكنتُ القدوة ومددتُ حدود العظمة، وكفأتُ على كلّ تميّز... إن الدكتاتورية كانت ضرورية بكلّ ما في الكلمة الضرورة من معنى. ألن يُقال إنني قمعتُ الحرية؟ لقد كان هذا هو مستهل الحرية. ألن أتّهم أيضاً بأنّي كنتُ مولعاً بالحرب ولعاً شديداً؟ لقد كنتُ أنا الذي أتلقّى الهجوم الأول. ألن يُقال إنني كنتُ أهدف إلى حُكم العالم كله (أأن أتربيّ على عرش العالم؟) إن أعدائي أنفسهم هم الذين قادوني خطوة خطوة إلى هذا العزم. وأخيراً، أسفُ لأنّ على طموحي؟ لابد أنّ يُسمح لي بالطموح بلاشك، فطموحي هو أسمى وأنبل أنواع الطموح، بل وربما أسمى وأنبل أنواع الطموح على الإطلاق – إنه الطموح إلى تأسيس إمبراطورية العقل وتكريسها، وإلى الاستفادة الكاملة من كل القدرات والملكات البشرية والتنعم بها. هنا ربما يشعر المؤرخ أنه مضطّر إلى الأسف لأنّ هذا الطموح لم يتحقق ولم يُكافأ صاحبه عليه... هذا هو كل تاريخي في كلمات قلائل»^(٤١) .

وفي ٩ مارس ١٨٢١ أدى قلبه المحبط بالتبؤ برؤيا فخورة: سيظل «خيال الفرنسيين طوال الخمسينية سنة القادمة عامراً بذكري». إنهم لن يتحدثوا إلا عن عظمة معاركنا العبرية. فليكن الله في عون من سيجرؤ على الحديث عني بشكل سئٍ^(٤٢).

٥- المعركة الأخيرة

أدت الأضطرابات الداخلية ونقص التدريبات البدنية إلى أن أصبح نابليون شيخاً هرماً وهو لا يزال في سني الأربعين. لقد أدى إصرار لو Lowe على أن يقوم جندي بريطاني بمتابعة الإمبراطور بينما ذهب بحصانه خارج حدود لونجوود إلى غضب الأسير (نابليون) فتحاشى الخروج للتربيض بحصانه أو في عربته. كما أن وجود العسس على مرأى من غرفه جعله يطيل المكث وراء الأبواب المغلقة، كما أدى عزوفه عن الحياة وأمله الألا يطول مقامه في الدنيا إلى سكون وعدم نشاط. لقد كتب بيرتران في سنة ١٨١٨: «مضى مائة يوم منذ... خرج من المنزل» وذكر لا كاس أن الدورة الدموية للإمبراطور كانت تعاني صعوبات^(٤٣) إذ انخفض نبضه إلى ٥٥ نبضة في الدقيقة^(٤٤).

وفي سنة ١٨٢٠ بدأ العمل في زراعة حديقة، وهاجم مشاكله بشجاعة حربية وانضباط. لقد جنّد كل مستعمرته للعمل في المشروع فسعدوا بالخروج على روتينهم اليومي وانخرطوهم في الحفر وجر عربات المزرعة والزرع والري وإزالة الأعشاب الضارة. وبادر السير هدسون لو - في مبادرة ودية منه - إلى إرسال النباتات وأدوات الزراعة لسجينه^(٤٥). وازدهرت الحديقة فسرعان ما أنبتت خضروات طازجة راح نابليون يأكلها ببهجة. وتحسن صحته بشكل ملحوظ. لكن بعد أن تم استهلال محصول الحديقة وساد الطقس السيئ عاد نابليون إلى كسله قابعاً خلف الأبواب.

وسرعان ما عاودته الآلام وحاصرته في جبهات عديدة: آلام في الأسنان، صداع، طفح جلدي، تقيّؤ، دوستاريا، برودة أطراف، وسأط قرحته، وداء السرطان الذي تبين أنه مصاب به بعد تشريح جثته، اتضح أنه كان قد بدأ يُسبب له آلاماً متواصلاً^(٤٦). لقد أثرت هذه المعاناة الجسدية في مزاجه بل وحتى في عقله، فأصبح متشارماً سريع الهياج، مُحِسّناً

بالمارأة، بل إنه راح ينظر لما حققه من فخار وعظمية على أنهما شيء تافه، مستعداً للإساءة سريع التسامح، يُعدّ البنسات القليلة ويعطي - برغبته - مبالغ كبيرة^(٤٧). وفي سنة ١٨٢٠ وصف حاليه بجزع: «كيف سقطت؟ أنا - الذي كان نشاطي لا حد له. أنا الذي لم أخلد للراحة! أيصبح هذا حالي؟ كرسولا بليدا خدرا! لقد أصبحت أبذل جهداً لافتح عيني (لأرفع الجفن عن عيني) لقد كنت في بعض الأحيان معتاداً أن أُملي في مختلف الموضوعات على أربعة أو خمسة من السكريتيرين يكتبون بالسرعة نفسها التي بها أتحدث، لكنني كنتُ وقتها نابليون... أما الآنا فانا لا شيء... إبني حي لكنني ميت^(٤٨)».

لقد تعاقب عليه عدد من الأطباء المختلفين لكن واحداً منهم لم يكث معه الفترة الزمنية الكافية لدراسة أعراض مرضه بشكل منهجي أو وضع نظام دائم لعلاجه وطعامه. وكان الدكتور أوميرا O'Meara هو أول أطبائه (في سانت هيلانا) وأفضلهم، لكن مهمته قد أُنهت بعد فترة وجيزة. وحل محله طبيبان بريطانيان (ستوكو Stokoe وأرنوت Arnott) وكان كلاهما طبيباً جيداً وصبوراً وواعياً، لكن في ٢١ سبتمبر ١٨١٩ اضطرب الأمر بوصول الدكتور فرانسيسكي أنتومارشي Antommarchi البالغ من العمر تسعة وثلاثين عاماً، وكان يحمل توصية من خال نابليون (الكاردينال فش Fesch) فسمح له الطبيبان الآخرين بالعناية به. لقد أجاب أنتومارشي بإسهاب عن سؤال نابليون عما إذا كان الجنرالات أم الأطباء هم الأكثر إفناً للبشرية أو بتعبير آخر أيهما أكثر ضحايا، إذ كان هذا الطبيب معتزاً بنفسه واثقانها عدم الرحمة إذ عندما اشتكي نابليون من آلام في معدته، وصف له أنتومارشي مُقيعاً على عصير الليمون، فكادت روحه تخرج لفروط الألم، وظن أنَّ السُّم قد دُسَّ له في الدواء، فطرد أنتومارشي ولم يسمح له بالعودة لعلاجه^(٤٩)، لكن في غضون يوم أو يومين عاد أنتومارشي بأدويته وقاروراته، وكان على الإمبراطور أن يتحمله رغم أنه (أي الإمبراطور) راح يسبه ويلعنه بأقذع السباب واللعنات مما لا يُمكن كتابته هنا^(٥٠).

وفي نحو منتصف مارس ١٨٢١ لزم نابليون فراشه ولم يعد يغادره بعد ذلك إلا نادراً. لقد كان يعاني من آلام مستمرة لا تكاد تتوقف فراح أنتومارشي والطبيبان الآخرين يهدئانها بإعطائه جرعات صغيرة من الأفيون على نحوٍ متكرر. وقال نابليون في ٢٧ مارس: «لو

انتهت مهمتي في هذه الدنيا، إني إذن لسعيد. لقد كنتُ أططلع للموت في عدة أوقات فأنا لا أخاف الموت^(٥١)). وخلال هذا الشهر الأخير من حياته كان يتقيأ كل الطعام الذي يتناوله تقريباً. وفي ١٥ أبريل كتب وصيته، وفيما يلي قبس منها:

«١- الموت على دين الدين الرسولي الروماني (دين الدعاة الأوائل للمسيحية) الذي ولدت في أحضانه... ٢- أريد أن توضع رفاتي على ضفاف نهر السين وسط الشعب الفرنسي الذي أحببته كثيراً. ٣- لقد كان لدى دوماً من الأسباب ما يجعلني أسعد بزوجتي الحبيبة ماري لويس. إني أكِن لها آخر لحظة في حياتي أسمى مشاعر المودة. إني أتوسل إليها أن ترعى ابني وأن تحمييه من الشرك (والمشاكل) التي لا زالت تعكر طفولته... ٤- إني أموت قبل الأوان مقتولاً على يد الحكومة البريطانية The English Oligarchy^(٥٢)».

لقد كان لديه ستة ملايين فرنك، كان عليه توزيعها (٣٥ مليون + الفوائد)، وكان قد أودعها مع لافيت Laffitte، وكان يعتقد أن له مليونين آخرين عند يوجين بوهارنيه. لقد أوصى بمبلغ كبير لبيرتران ومونثولو ولا كاس، ولل溉ير خدمة مارشان Marchan وسكرتيره مينيفال Ménéval ولجنرالات آخرين أو ابنائهم وأوقف أشياء مختلفة على عدد كبير من الأشخاص من خدموه أو ساعدوه. لم ينس أحداً. كما أوصى بعشرة آلاف فرنك للضابط كانتيilon Cantillon الذي تحمل المحاكمة بتهمة اشتراكه في مؤامرة لقتل اللورد ويلنجتون، وهي التهمة التي بُرئ منها. لقد كان لكانتيilon كثير من الحق لقتل هذا الأوليغارشي (الملكي المؤيد لحكم الأقلية) تماماً كما كان لهذا الأخير الحق في أن يرسلني لأهلك على صخرة سانت هيلانا^(٥٣)».

وترك في ورقة منفصلة (وصية لابني) رباع ١٨٢١: «لا يجب أن يفكرا ابني في الثار لمoti، بل الأخرى به أن يتعلم منه درساً. يجب أن يضع في عقله ما أنجزته دون أن ينساه. وعليه أن يكون مثلثي فرنسيا تماماً. وعليه أن يكافح ليحكم بسلام. وإن كان عليه أن يحاول بدء حربه التي انتهت بدءاً جديداً لا لشيء إلا مجرد تقليدي، وبدون ضرورة تفرضها هذه الحرب، فإنه ساعتها لن يكون أكثر من قرد (مقلد). فإن يبدأ أحد القيام بعملي نفسه فهذا يعني إني لم أنجز شيئاً. فالآجدى هو إكمال هذا العمل بإثبات قوّة أساساته (ومؤسساته)

وإكمال الصرح الذي وضع أساسه وتصميمه. فالعمل الذي قمتُ به لا يمكن أن يحدث مرتين في قرن واحد. لقد كنتُ مضطراً للكبح أوربا وترويضها بقوة السلاح، أما الآن فيجب إقناعها (لابد أن تكون مقتنة). لقد أنقذتُ الثورة بينما كانت على وشك الموت. لقد ظهرتَها من جرائمها وسموتُ بها فأصبح الشعب الفرنسي يتالق شهرة. لقد أوحيتُ لفرنسا وأوربا بآفكار جديدة لن تُنسى أبداً. عسى أن يرعى أبني البذرة التي وضعتها حتى تُزهر! عساه يطور كل عناصر الرخاء الكامنة في التربية الفرنسية^(٥٤).

وكان لابد أن تتم الاستعدادات الأخيرة كي يُسلّم الروح. لقد استغرق وقتاً طويلاً ليصل إلى الایمان الديني (المقصود الكاثوليكي - المترجم) ولأنه كان قد قرأ جيبون Gibbon فقد ظهر أنه يعتبر كل الأديان زائفه (كما ينظر إليها الفيلسوف) لكنه كرجل دولة كان يعتبرها مفيدة^(٥٥). لقد كان قد تحول للإسلام (النص: الدين المحمدي) ليربح مصر، وإلى الكاثوليكية ليقبض على زمام الأمر في فرنسا. ولقد عَبَر لجورجو بما يفيد إيمانه بالمالدية البسيطة: «قل ما تشاء! إن كل شيء مادي (كل شيء مادة) غير أن التنظيم (الاتساق) فيها مختلف، فهناك ما هو أكثر اتساقاً، وهناك ما هو أقل. عندما أخرج للصيد أمر بفتح أحشاء الأيل deer فرأى أن ما بداخله هو نفسه الذي بداخلني. وعندما أرى أن للخنزير معدة مثلي، وحصيلة هضم مثلي، أقول لنفسي (إن كان لي روح فإن له أيضاً روح)^(٥٦). عندما نموت يا عزيزي جورجو نصبح جمِيعاً موتى^(٥٧). وفي ٢٧ مارس (أي قبل موته بستة أسابيع) قال لبيرتران: «إنني سعيد جداً أنني بغير دين. إنني أجد في هذا ترضية (سلوى كبرى)، فانا لا أضع في اعتباري إرهاباً متخيلاً (المقصود عذاباً مُنتظرًا) ولا خوفاً من المستقبل^(٥٨). وسائل: «كيف نوائم بين ازدهار الشرير وعذاب القديس مع وجود إله عادل؟ انظر إلى تاليران. إنه متتأكد أنه سيموت في فراشه^(٥٩)».

وكلما اقترب منه الموت بدأ يجد أسباباً للإيمان. قال لجورجو: «الجهنون وحده هو الذين يعلن أنه سيموت دون اعتراف. هناك الكثير مما لا يعرفه المرء^(٦٠) وكان يشعر؟ أن «الدين» جزء ضروري من «الوطنية»: «الدين يشكل جزءاً من قدرنا. إنه مع التربية والقوانين والعادات يكون الكل المقدّس

الذى نسميه (أرض الآباء Fatherland) التي لا يجب أن نتخلى عن مصالحها. وعندما طلب مني بعض الشوريين القدماء أيام الكونكوردات (الوفاق مع الكنيسة الكاثوليكية) أن أجعل فرنسا بروتستنطية شعرتُ كما لو أنهم يطلبون مني خلع الجنسية الفرنسية لأصبح إنجليزياً أو ألمانياً^(٦١).

لذا فقد قرر بتواضع أن يخضع للطقوس التقليدية التي يتبعها الفرنسي وهو يُسلم الروح، فوجد قسيساً محلياً ورتب الامر لإقامة قداس على روحه كل يوم أحد في لونجود، وراح يجد راحة في عقيدة طفولته وراح يُسلّي أصدقاءه ونفسه بكيفية استقباله في السماء: «إنني أذهب للقاء كليبيه (كليبر) وديزيه Desaix ولان Lannes ومسينا Masséna ... نـي Ney. سـيـاتـون لـلـقـائـيـ». وسـتـحدـثـ عنـ مـهـامـنـاـ معـ فـرـيدـرـيـكـ وـتـورـينـ Turenne وـكـونـديـهـ Condé وـقـيـصـرـ وـهـانـيـبـالـ Hannibal^(٦٢)» وفي ٢٦ أبريل بلغ به الوهن مبلغاً كبيراً حتى أنه أطاع الأطباء دون سؤال. وفي هذا المساء راح يهذى مهتاجاً للحظة قائلًا إنه سيعطي ابنه ٤٠٠ مليون فرنك^(٦٣). وذكر مونشولو الذي يقيم معه الآن ليل نهار أنه في نحو الساعة الرابعة صباح يوم ٢٦ أبريل قال له بعاطفة حيّاشة: «لقد رأيتُ لتوّي جوزفين الطيبة... إنها تجلس هناك، كما لو أنني لم أرها إلا ليلة البارحة. إنها لم تتغير - إنها دائماً هي نفسها لا زالت مخلصة لي. لقد قالت لي إننا سنلقي ثانية، ولن نفترق ثانيةً أبداً. لقد وعدتني، أرأيتها؟^(٦٤)».

وفي ٣ مايو أُجريت له الطقوس الدينية. وفي هذا اليوم انضم طبيبـانـ إلى أرنـوت Arnott وأنـتوـمـارـشـيـ وـاتـفـقـ الـأـرـبـعـةـ عـلـىـ إـعـطـاءـ الـمـرـيـضـ عـشـرـ حـبـاتـ منـ الـكـالـوـلـ Calomelـ (ـمـسـهـلـ)ـ «ـلـقـدـ أـدـىـ هـذـهـ الـجـرـعـةـ الـكـبـيـرـةـ بـشـكـلـ غـيـرـ مـعـتـادـ مـنـ هـذـاـ الدـوـاءـ غـيـرـ الـمـنـاسـبـ إـلـىـ اـضـطـرـابـ عـنـيـفـ مـرـعـبـ مـعـ فـقـدـ لـلـوـعـيـ.. وـظـهـرـتـ كـلـ عـلـاقـاتـ النـزـيفـ فـيـ الجـهـازـ الـمـعـوـيـ^(٦٥)ـ». فـمـاتـ فيـ ٥ـ ماـيـوـ ١٨٢١ـ وـهـوـ يـتـمـمـ قـائـلـاًـ:ـ «ـعـلـىـ رـأـسـ الـجـيـشـ A la tête de L'arméeـ»ـ وـفـيـ ٦ـ ماـيـوـ أـنـتـوـمـارـشـيـ فـحـصـ الجـثـةـ بـعـدـ الـوـفـاـةـ بـحـضـورـ سـتـةـ عـشـرـ آـخـرـينـ مـنـ فـيـهـمـ سـبـعـةـ جـراـحـينـ بـرـيـطـانـيـينـ،ـ وـبـيـرـتـانـ وـمـونـشـولـوـ.ـ لـقـدـ أـظـهـرـ تـشـرـيـعـ الجـثـةـ السـبـبـ الرـئـيـسـيـ لـمـ كـانـ يـعـانـيـ مـنـ نـابـلـيـوـنـ:ـ قـرـحةـ سـرـطـانـيـةـ فـيـ الـفـتـحـةـ بـيـنـ الـمـعـدـةـ وـالـلـعـيـ (ـبـيـلـورـسـ Pylorusـ)ـ وـثـمـةـ قـرـحةـ

أحدثت ثقباً بسعة ربع بوصة في جدار المعدة متسببة في نشر التهفن فيما حولها، وكان أنتومارشي قد شخص العلة على أنها التهاب كبدي لكن اتضح أن الكبد رغم أنه كان أكبر من المعتاد لم تكن به ظواهر مرضية^(٦٦). واتضح وجود الأكياس الدهنية لا في الجلد فقط وغشاء التجويف البطني وإنما أيضاً في القلب وربما كان هذا سبباً في بطء نبضاته على نحو غير طبيعي. وكانت المثانة صغيرة وبها بعض الحصوات الصغيرة، وربما كان هذا بالإضافة إلى تشهّد الكلية اليسرى سبباً في حاجة الإمبراطور إلى التبول تباعاً وربما يفسّر هذا عدم تركيزه بشكل مستمر في أثناء معركة بورودينو Borodino ومعركة واترلو. ولم يسجل أي واحد من فحصوا الجثة أي أثر لمرض السيفيلس (الزهري) لكن أعضاءه التناسلية كانت صغيرة وبدت ضامرة.

وفي ٩ مايو انطلق موكب كبير يضم السير هدسون لو Lowe لنقل الجثمان إلى مقبرة خارج لونجورود في «وادي جيرانيومز Geraniums» وكان نابليون نفسه قد اختار هذا الموقع، ولُف بالعباءة التي كان يرتديها في معركة مارنخو Marengo ودُفن معه سيفه الذي كان محل فخره وشعار حياته. وظلت جثته في هذا القبر تسعه عشر عاماً حتى أحبته فرنسا ثانية فأعادت رفاته إلى بلاده^(٦٧).

١- الأسرة:

عاشت أمه بعده خمسة عشر عاماً وماتت من عمر يناهز السادسة والثمانين. وتکاد تكون حياتها موجزاً للألمومة في مراحلها المختلفة: زوج غير دائم الإقامة في البيت، أطفال كثيرون، أفراج وأحزان، إنجاز وحرمان، فزع ووحدة، دهشة وأمل. لقد رأت كل انتصارات أبنائها، وظللت ليوم قد يحتاجون فيه إليها. «من يدرى غيري، فربما يأتي يوم يتعمّن علىَ فيه أن أُقدّم لكل هؤلاء الملوك؟»^(١). لقد ظلت تعيش باعتدال (بلا إسراف) لآخر عمرها، وكان البابا يحميها ويجلّها، مع أنّ أبنها قد أساء معاملته. وكانت من الناحية العرقية أقوى آل بونابرت وأصحّهم عقلاً.

أما جوزيف - ابنها الأكبر - فكان مولعاً بالكتب والمال وتزوج زوجاً سعيداً من جولي كلاري Julie Clary وقد أحبه أخوه الإمبراطور وكلفه بهما، وخدم جوزيف أخاه (نابليون) بكل قدراته المحدودة، ولجا إلى أمريكا بعد انهيار الإمبراطورية وعاد إلى أوروبا حيث عاش بهدوء في منطقة ريفية بجوار جنوا، ومات في فلورنسا في سنة ١٨٤٤ وهو في السادسة والسبعين من عمره.

أما لوسيان Lucien، فبعد أن ترقى في ظل حكومة الإٍدارة وبعد أن ساعد أخاه (نابليون) في الإطاحة بها، عارض دكتاتورية نابليون، وتزوج ضد الرغبة الإمبراطورية، وابتعد عن الصراع من أجل السلطة، وأصبح أميراً باباويا، وأبحر إلى أمريكا فأسرته سفينة بريطانية وتم التحفظ عليه في إنجلترا، ووجد طريقه إلى جانب نابليون في الأيام المائة (بعد عودة نابليون من إلبا) ودافع عنه في الجلسين، وهرب إلى روما بعد تنازل أخيه عن العرش للمرة الثانية، ومات في فيتربو Viterbo في سنة ١٨٤٠.

أما لويس بونابرت فبعد أن تخلى عن عرش هولندا، وانفصل عن هورتنس Hortense -

عاش في بوهيميا والنمسا وإيطاليا، ومات قبل ست سنوات من وصول ابنه الثالث إلى العرش باسم نابليون الثالث.

ونعم جيروم بثروته الملكية في وستفاليا، وفشل كجنرال في الشهر الأول في أثناء المعركة مع الروس، وعاد إلى عرشه، وفقده لصالح الحلفاء في سنة ١٨١٣ وحارب ببسالة في واترلو، وكانت هي آخر فرنسي يغادر ميدان الهزيمة^(٢). وبعد تنازل نابليون عن العرش للمرة الثانية وكانت هي آخر فرنسي يغادر ميدان الهزيمة^(٢). وبعد تنازل نابليون عن العرش للمرة الثانية راح ينتقل من مكان إلى مكان وعاد إلى فرنسا في سنة ١٨٤٧ وشهد وصول ابن أخيه للحكم فأصبح رئيسا للسيارات في ظله (في ظل نابليون الثالث) ومات في سنة ١٨٦٠ وهو في السادسة والستين من عمره في عصر كان كل عام فيه عاماً بالأحداث.

أما إليزا بونابرت بكيوشي Bacciochي فكانت أكبر أخوات نابليون وأكثرهن قدرة. لقد لاحظنا نجاحها كحاكمة في توسكانا المنقطة الإيطالية المتأثرة بالثقافة الهيلينية (الطرز الأثينية). وعندما تبيّنت أنّ أخاها لا يستطيع مواجهة الحلفاء المتحدين، انسحب إلى نابلي وانضمت إلى أختها كارولين لمساعدة مورا في الحفاظ على عرشه.

وكان مورا Murat بعد أن قاد قوات الفرسان إلى جانب نابليون في ليزج (ليبتسج) عاد إلى نابلي ودخل في تحالف مع النمسا (٨ يناير ١٨١٤) وتعهد باستخدام جيشه لصالح الحلفاء ضد نابليون في مقابل أن تساعد النمسا في الحفاظ على عرشه في نابلي. ورفض الحلفاء اعتماد هذه المعاهدة. وعندما هرب نابليون من إلبا، خاطر مورا بكل شيء بمناشدته كل إيطاليا للانضمام إليه لشن حرب استقلال ضد الحكم الأجنبي كله (٣٠ مارس ١٨١٥)، وتركته زوجته (كارولين) وأختها (إليزا) ووجدتا ملجاً لهما فيينا. وهُزم مورا في تولينتين Tolentino أمام جيش نمساوي (٢ مايو) وهرب إلى فرنسا ومنها إلى كورسيكا واستعاد فرديناند الرابع عرش نابلي. وبعد معركة واترلو كان مورا قد أصبح رجلا بلا وطن، فعبر من كورسيكا إلى كالابريا Calabria مع حفنة رجال، فتم القبض عليه وحوكم أمام محكمة عسكرية، قضت بإطلاق النار عليه وتم تبنيذ الحكم في ١٣ أكتوبر. وقد وصفه نابليون في سانت هيلانا بما يفيد حبه له، وإن كان حكمه عليه قاسيا لا يرحم: «إنه أشجع الرجال في مواجهة العدو، ولا نظير له في ساحة الوجع، لكنه غبي في كل أفعاله الأخرى

وكانت بولين (١٧٨٠ - ١٨٢٥) أخت نابليون هي أكثر ذويه جاذبية. لقد كان من نصيبها أن تنشر السعادة والمشاكل لأنها كانت أجمل نساء عصرها، فالرجال الذين رأوها لم ينسوها أبداً، والنسوة اللاتي رأينها لم يسامننها أبداً. ولم تكن مكتفية أبداً بزوج واحد، لكنها كانت فيما يبدو زوجة محبوبة في أثناء زواجها الأول حيث شاركت زوجها الجنرال ليكليرك Leclerc المخاطر التي تعرض لها ولم تتركه عندما أصيب بالحمى الصفراء في سانت دومونج St. Domingue . وعندما مات (١٨٠٢) عادت إلى باريس، وبعد فترة حداد قصيرة كونت ثروة أخرى من الشعر تجلّل رأسها، وكانت تستحم بخمسة جالونات من الحليب الطازج يومياً^(٤) . وافتتحت صالوناً وأسعدت الأزواج بحملها وأسعدت بعضهم بكرها. وكان نابليون نفسه مفتوناً - على نحو طاهر - بتكونها فسارة بتزويجها من الأمير الشري الوسيم كاميلو بورجيز Camillo Borghese (١٨٠٣) وفي فلورنسا طلب منها كانوا فانا تتخذ وضع ديانا الصيادة، وكانت بولين مياله للموافقة، إلا أنها عندما سمعت أن ديانا طلبت من جوبيتر Jupiter أن يهبها عذرية دائمة ضحكت واستبعدت الفكرة. وعلى أية حال فهناك من حثها على أن تتخذ وضع فينيوس Venus Victrix وهي شبه عارية، فكثراً المترددون على متحف بورجيز (جاليريا بورجيز Galleria Borghese) لرؤيا الصورة وكان بورجيز نفسه واعياً بعدم كفاءته فتفرغ لواجباته العسكرية كضابط عند نابليون، وتركها. وراحت بولين تسلّي نفسها بشكل مخزي متتجاوزة المعايير الأخلاقية، فألحقت بصحتها الضرر لكن ليس من دليل واضح على إصابتها بالسيفلس (الزهري)^(٥) وكانت ربة الجمال اللعب أيضاً مثلاً للرقعة ولم تكن تفوقها في رقتها سوى جوزفين التي راح كل آل بونابرت - ما عدا نابليون - يشنون عليها حرب مستمرة. لقد أعطت بولين بسخاء وكسبيت صداقات كثيرة دائمة حتى من بين عشاقها الذي تخلّت عنهم، وكانت أكثر آل بونابرت ولاة لتابليون بعد أمها. لقد خرّجت عن طريقها لتقابل أخاها غير السعيد وتواسيه وهو في طريقه إلى فريجو Frejus في سنة ١٨١٤ وسرعان ما تبعته إلى إلبا، وهناك عملت مضيفة له وأنعشت حياته وحياة الجزيرة بحفلاتها ومرحها وحيويتها ومداعباتها. وعندما خرج من الجزيرة في آخر

مغامراته أعطته أجمل قلادة من قلائدها. وعمل مارشان Marchand على انتقالها إلى سانت هيلانا، وكانت تخطط بالفعل لذلك عندما وصلتها أخبار موت نابليون، ولم تعش بعده أكثر من أربع سنوات إذ كان السرطان سبباً في موتها^(٦) (٥ يونيو ١٨٢٥) وهي في الرابعة والأربعين، وسامحها زوجها على ما ارتكبته من آثام وعاش معها عامها الأخير وأقفل جفنيها عندما ماتت.

وكانت جوزفين قد ماتت (٢٩ مايو ١٨١٤) نتيجة إصابتها بنوبة برد حادة بينما كانت تستقبل القيسير إسكندر في مالميو^(٧). أما ابنته هورتنس دي بوهارنيه (١٧٨٣ - ١٨٣٧) فقد انفصلت عنها لويس بونابرت عاشت في كنف الإمبراطور ثم تحت القيسير في وقت لاحق. ولم تعش حتى ترى ابنها وقد اعتلى العرش باسم نابليون الثالث. أما آخرها يومين فقد ظل مخلصاً لنابليون (الذي تبناه) حتى اعتزاله العرش للمرة الأولى، وبعد ذلك بخمسة أعوام تراجع مع زوجته إلى ميونخ حيث استقبله أبو زوجته ملك بافاريا بترحاب. وعندما مات هناك (٢١ فبراير ١٨٢٤) وهو في الثالثة والأربعين من عمره، كان كل الفرقاء مجتمعين على احترامه.

أما ماري لويس، فقد أخذوها من فرنسا على غير رغبتها وجرى استقبالها في فيينا كأميرة لم تخطئ (في حق بلدتها) فتمن إقاذها من الانتقام الذي حل بآل بونابرت. وسمح لها بالاحتفاظ بمينيفال كمرافق لها فبذل كل جهده لمواجهة التأثيرات التي كانت تقع عليها يومياً لترعها من إخلاصها لنابليون. ويخبرنا مينيفال أنها في أثناء أسبابها الخمسة في فيينا تلقت عدة خطابات من زوجها لم تجد وسيلة لإرسال الرد عليها لكنها كانت تأمل أن تنضم إليه في إلبا، وإن لم تُظهر هذا الأمل من حولها^(٨). وخلف أبيها أن تتدحر صحتها في فيينا التي تستعد لمؤتمر الحلفاء المنتصرين أرسلها للاستحمام في إيكسلز بينز Aix-les Bains وفي أول يوليو سنة ١٨١٤ عين الكونت آدم فون نيبيرج Von Nieberg هناك ليكون مساعداً لها في أمورها. ورغم أنه كان في التاسعة والثلاثين ولم تكن هي قد تجاوزت الواحدة والعشرين فقد اقتربه منها إلى أن قبلته عاشقاً عندما بدت لها كل فرص العودة لنابليون وقد تلاشت. وفي سنة ١٨٥١ أتعم عليها مؤتمر فيينا بذوقيات بارما، وبيانزا

وجوستالا Piacenza و Guastalla، فصاحبها نيبيرج Niepperg وشاركتها في الحكم. وفي سنة ١٨١٧ ولدت له طفلة. وعلم نابليون بهذا في سانت هيلانا لكنه لم يُزح صورتها المعقلة على جدار غرفته في لوتجنود، وذكرها في وصيته - كما رأينا - بود، وبعد موت نابليون تزوجت نيبيرج وعاشت معه على ما يبدو بإخلاص حتى موته في سنة ١٨٢٩. وتزوجت مرة أخرى في سنة ١٨٣٤ وماتت في سنة ١٨٤٧. وإذا وضعنا الظروف الخبيثة بها، فإنها تبدو امرأة صالحة لا تستحق إهمال ذكرها.

أما ابنتها من نابليون المسماة «ملك روما» (وهو اللقب التقليدي لوارث الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والعقب الشاب Aiglon) فقد تم فصله عن أمّه عند مغادرتها باريس وأعيد تعميده باسم دوق رايخشتادت Duke Reichstadt وأصبح في بلاط فيينا لينشأ في ظل تقاليد الهبسبرج تحت إشرافهم الكامل. وظل مخلصاً لذكرى أبيه وراح يحلم أن يستعيد مملكته يوماً، وكان يعاني من المرض الذي عاوده مراراً، ومات بالسل في قصر شونبرون Schonbrunn في فيينا في ٢٢ يوليو ١٨٣٢ وهو في الواحد والعشرين من عمره.

٢- العودة إلى رحاب الوطن

حتى وإن تلاشت ظواهر الأحداث من ذاكرة الفرنسيين فإن صورة نابليون نفسه أخذت شكلاً حياً جديداً في ذاكرتهم وخيالهم. فكلّما التأمّت الجروح بفعل الزمن، وكلّما تم تعويض الملايين الذين ذهبوا للحرب ولم يعودوا، فامتلاّت الحقول والدكاكين من جديد، وزاد عدد أفراد الأسر، بدت صورة عصر نابليون أكثر تألقاً وبطولة بشكل لا مشيل في التاريخ المدني (أي بصرف النظر عن الواقع الديني في التاريخ). إننا نجد - بادئ ذي بدء - أن الجنود القدماء راحوا يتذكرون أعمالهم البطولية وما ترثهم وينسون معاناتهم. لقد راقت لعيونهم انتصارات نابليون وقلما كانوا يلومونه لهزيمته. لقد أحبوه ربما كما لم يحب جنود قائدتهم في وقت من الأوقات. لقد أصبح رامي القنابل المعمر الذي حارب مع نابليون هو حكيم قريته تخلّده آلاف القصائد والحكايات والأغاني. ففي القصة الشعرية التي تحمل عنوان (العلم القديم Le vieux Drapeau) ومئات غيرها وجدنا Pierre de Beranger ١٧٨٠

– ١٨٥٧) يمجّد نابليون ومعاركه ويهجو النبلاء المستبدّين والأساقفة النّهميّين لتملّك الأرضيّ لدرجة أحقّت حكومة البوربون فسجنته (١٨٢١ – ١٨٢٨) وكتب فيكتور هوغو Hugo قصيده (Ode to the Column) يحتفي فيها بعمود فيندوم Vendôme ودلّاته التاريّخية متوجّاً بتمثال نابليون الذي أُزّيّع سنة ١٨١٥ ثم أُعيّد سنة ١٨٣٣ . أما بليزاك Balzac في عمله (طبيب المعركة) (١٨٣٣) فقد صوّر لنا بشكل مُفعّم حيويّ جنديّاً محنّكاً غيرّاً يشجب البوربون لإصدارهم تقريراً يفيد أنّ نابليون قد مات . « هذا لم يحدث ، فالعكس هو الصحيح فمن المؤكّد أنّ نابليون ما زال حيّاً ، وأنّه كان أبناً لله (*) » .

جعله أباً للجنود (٩) . أمّا سтенدال Stendhal فلم يكتفّ بأنّ بثّ في روايّاته مديحاً لنابليون ، وإنّما أصدر في سنة ١٨٣٧ كتابه حياة نابليون يلخصّ لّها فحواه (فحوى كتابه) في المقدمة حيث يقول : « ليس في قلبي حب إلاً لنابليون » و قال عن نابليون « إنه أعظم من عرفة البشرية منذ قيصر (١٠) » .

وربما قبل نابليون هذا الإطّراء مع شيء غير مؤكّد بالنسبة إلى قيصر (دكتاتور روما القديمة) ، فلم يكن نابليون لي فقد الأمل في أن تعود فرنسا إلى أيامه (أيام قيصر) . وكان نابليون قد راح يعزّي نفسه في منفاه بأن يؤدي امتعاض الفرنسيّين بسبب نفيه وسجنه إلى أن يصبحوا مخلصين له ثانية . لقد قال لاوميرا : « ستكون هناك ردة فعل لصالحي بعد أن أرسلوني للمنفى . إن استشهادي (كوني ضحية) هو الذي سيعيد تاج فرنسا لأسرتي ... قبل انتهاء عشرين سنة عندما أكون قد وُوريتُ الشّرّى ، ستري ثورة أخرى في فرنسا (١١) » . وقد تحقّقت النبوةتان .

ومن هنا فقد أملى مذكرياته لتبيّن على صورته حيّة ، وقد حّقّقت أغراضها جيداً . وقد تم تهريّب مذكرياته عن معركة واترلو التي أملأها على جورج من جزيرة سانت هيلانا ، وتم نشرها في باريس سنة ١٨٢٠ ، وذكر لنا لا كاس أن نشرها كان نبأً مثيراً وأنه أحدث ضجة (١٢) . وفي عامي ١٨٢١ – ١٨٢٢ صدرت في فرنسا ستة مجلّدات أخرى من سيرته

(*) يشبه بالسبّع على وفق بعض العقائد المسيحيّة (ابن الله) ، ومن المفهوم طبعاً أنّ المسلمين يؤمّنون بآله واحد لّهم يلدّ ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ومن المفهوم أيضاً أنّ عدداً لا يbas به من المسيحيّين الآن يؤمّنون بهذا أيضاً . (المترجم)

الذاتية. وسرعان ما شفقت مذكريات وحكايات الإمبراطور طريقها ولعبت دوراً كبيراً في تعديل «الأسطورة» (أي صورته بين الناس) وجعلته وهو ميت، قوة حية في فرنسا. وأصبح رفاقه هم رسله apostles (أي حواريه وفي هذا تشبهه له بالمسيح، والرسل في المفهوم المسيحي هم الدعاة الأوائل للمسيحية – المترجم)، ودافع عنه أوميرا بشجاعة (١٨٢٢) في عقر دار ألد أعدائه، ودافع عنه لا كاس وجعله بلا أخطاء في كتابه ذي المجلدات الأربع (١٨٢٣)، ذلك الكتاب الذي أصبح إنجيلاً لعقيدة جديدة ملهمة. ولم يظهر تقرير الكونت دي مونشولو الموسّع حتى سنة ١٨٤٧، كما لم يظهر تقريراً جورجيو، وبيتران إلبعد موتهما، لكن في هذه الأثناء كانت شهادتهما الحية تغذيان هذا اليمان (بنابليون)، وراح مونشولو يذكّرنا بتوجيهاته لابنه وهو – أي نابليون – على فراش الموت مُضفياً الفضائل على الماضي الإمبراطوري: الحذر والاعتدال والحكم الدستوري وحرية الصحافة وانتهاج سياسة السلام مع العالم والآن أتى دور النصيحة المناسبة: «دعوا ابني يقرأ التاريخ ويتأمله، فال التاريخ هو الفلسفة الوحيدة الصادقة»^(١٣).

وحتى في شهادة رفاقه الخلصين فإن الإمبراطور العظيم رغم متابعته وألامه وحبسه ومرضه وزيادة أخطائه بحكم كبر سنه، بدا الناس رغم كل هذا وقد نسوا كل هذا وركزوا على انتصاراته الحربية وتراثه الإداري وحده ذهنه. لقد كان في الواقع قد تبرأ من معظم الثورة، فاستبدل الاستبداد بالحربة (أي ترك الحرية وأخذ بالاستبداد) وأحل الارستقراطية محل المساواة والنظام محل جماعات الإخاء (الأخويات)، لكن في صورته الجديدة المعدلة أصبح مرة أخرى ابناً للثورة واليعاقبة الذين كانوا في وقت من الأوقات أعداءه المضطهد़ين، أما الآن فإنهم يتحلّقون حول ذكراه. وفي الوقت الذي كان فيه نابليون ينقى سجله ويکفر عن ذنبه بما لاقاه من عقاب، كان حكم البوربون الذين حلوا محله يفقد بريقه، ويقل إقبال الفرنسيين عليه رغم قبولهم إياه في البداية. لقد كان لويس الثامن عشر نفسه رجلاً معقولاً تأثر بالتنوير لكنه كان قد سمع أن يسيطر الملكيون على حاشيته، وكان هؤلاء الملكيون غير متسامحين في شيء، ويطالبون بكل شيء بما في ذلك عقاراتهم ومزارعهم القديمة بل ويطالبون بحكومة لا تقيدها مؤسسات التمثيل النيابي. ووُوجهت المعارضة (بإرهاب

أبيض) من الجنود والمطاردين، وبالإعدام السريع. ولم يكن الجنود القدامى بمستطاعين نسيان مطاردة ني Ney وإطلاق الرصاص عليه، وكان الجيش لا يزال يذكر بإعزاز نابليون (ذا الجسد الضئيل) الذي كان يتحدث بلا كلفة مع الجنودين حول النيران الموقدة للتندفعة في المعسكرات، فنابليون هذا قد رأهم دون نظر إلى طبقاتهم ودون تأخير ببروفراطي، وكان «جيشه العظيم» فخرًا لفرنسا ورعبًا للملوك (أعداء فرنسا). وتذكر الفلاحون أن نابليون حماهم في مواجهة مطالب النبلاء والإكليروس. وكانت البروليتاريا قد انتعشت في ظل حكمه، وكانت الطبقة الوسطى قد حققت ثروة وحظيت بالمكانة الاجتماعية. وشعر ملايين الفرنسيين أنه رغم أوتوقراطيته (مارسته حكم الفرد) فإنه حافظ على أساسيات الثورة: نهاية الإقطاع وعوائده ورسومه المرهقة، فتح الطريق للتقدم والترقي أمام كل الطبقات دون استثناء، المساواة أمام القانون، تسيير أمور العدالة بناءً على قوانين واضحة ومكتوبة موحدة على مستوى الأمة. وعلى هذا فبعد عشرين عاماً من وفاته، ولد نابليون من جديد وراح من جديد يسيطر على عقول الناس وخيالهم. كتب شاتوبريان: «العالم مرتبط بنابليون...». لقد فشل نابليون في الاستيلاء على العالم وهو حي، لكنه امتلكه بعد أن مات^(١٤). لقد غذَّ المشاعر البونابرتية ثورة ١٨٣٠ المعتدلة. لقد انتهى تسلسل الملك بشكل مباشر في أسرة البوربون بتنحِي شارل العاشر عن العرش، فقد كان الملك الجديد لويس فيليب من الفرع الأولياني *Orleanist* للبوربون، وكان أباً للويس فيليب جوزيف، دوق أورليان الذي كان يطلق على نفسه فيليب إيجاليتيه *Philippe Egalité* (فيليب مساواة، فالكلمة *Egalité* تعني مساواة) وكان قد صوت لصالح إعدام لويس السادس عشر. لقد نَعِمَ الملك الجديد لفترة بتأييد البونابرتين ودعمهم، وقد جعل من شعار الألوان الثلاثة (علم الثورة) رمزاً للحكم الإمبراطوري وأمر بإعادة تمثال نابليون إلى قمة عمود فيندوم *Vendôme*.

وفي هذه الأثناء كانت وصيَّة الرجل الديت (نابليون) قد نُشرت، وبدت الفقرة الثانية منها رغبة إمبراطوريةأخيرة: «أرَغَبُ فِي أَنْ أُدْفَنَ عَلَى ضَفَافِ نَهْرِ السَّيْنِ بَيْنِ الشَّعْبِ الْفَرْنَسِيِّ الَّذِي أَحَبَبْتُهُ كَثِيرًا». وفي كل أنحاء فرنسا راحت ترتفع وتعالى مناشدات الأمة «أعيدهُ إِلَى وطْنِهِ». دعوا فرنسا تقييم لبطلها الجنائزه التي يستحقها مثله. دعوا الرفات

المنتصر (انتصار الرفات – كما أصبح يسمى) يُزيل عار السجن الكثيف! ووصلت المناشدة إلى الحكومة، ويبدو أن وزير الخارجية الفرنسية لويس أدolf ثيري (Thiers) هو الذي اقترح على زملائه في الوزارة أن يطلبوا من الملك أن يخاطب بريطانيا العظمى للموافقة على نقل جثة نابليون إلى باريس. وثيري هذا (1797 - 1877) هو الذي كتب أعظم كتاب عن تاريخ نابليون^(*)، وتم انتخابه في سنة 1871 كأول رئيس في الجمهورية الثالثة. لقد وافق لويس فيليب على مخاطبة الحكومة البريطانية في هذا الشأن لأن رکوبه هذه الموجة قد يُكسبه قلوب الفرنسيين. ولم يكن مجلس الوزراء البريطاني موافقاً على رأي زعماء الحكومة لكن اللورد بالمرستون أجاب مباشرة وببراعة: إن حكومة صاحبة الجلالة تأمل أن يكون ردها الإيجابي دليلاً تقدمه للشعب الفرنسي على رغبتها في محو آخر أثر للعداوة بين الأمتين، تلك العداوة التي أدت في حياة الإمبراطور – إلى حرب مسلحة بين Prince de Joinville⁽¹⁵⁾ وعَهَدَ الملك الفرنسي إلى ابنه فرانسو أمير جونفيل بالتوجه إلى سانت هيلانا ليعيد رفات نابليون. وفي 7 يوليو سنة 1840 أبحر الأمير من طولون على من السفينة (بل بول Belle Paule) وبصحبته الجنرالات؛ بيرتiran، وجورجو، وكانت دي لا كاس ومارشان خادم نابليون الأثير لديه، فهو لاء هم الذين سيقررن أن الجثة لنابليون. وصلوا سانت هيلانا في 8 أكتوبر، وبعد كثير من الإجراءات الرسمية رأوا الجثة بعد إخراجها من القبر وترعوا عليها وفي 30 نوفمبر وصلوا بها إلى شيربورج Cherbourg. وهناك بدأت أطول جنازة في التاريخ. نقول أطول جنازة كحقيقة مؤكدة. لقد نقلت الجثة إلى الباخرة نورماندي Normandie التي نقلتها بدورها إلى فال دي لا هاي Val de La Haye على السين إلى الأدنى من الرون Rouen ثم نقلت إلى سفينة نهرية أقيم عليها معبد (مصلى أو كنيسة صغيرة) يحرسها في أركانها الأربعة كل من بيرتران، وجورجو، ولا كاس، ومارشان، وتحت هذا المعبد (أو الكنيسة الصغيرة) كان التابوت الذي يضم الرفات مطلأً على نهر السين. وراحت السفينة تتوقف أمام كل مدينة كبرى للاحتفاء على

Historie du Consulat et L'Empire, 19v. (Paris, 1854 - 1862) (*)

تاریخ فرنسا اثناء القنصلية والإمبراطورية.

الشاطئ^(١٦). وعند كوربفروي Courbevoie (شمال باريس بـأربعة أميال) نقل التابوت إلى عربة جنائزية مزينة يحفها موكب من الجنود والبحارة وذوي المكانة ليمر عبر نيللي Neuilly وتحت قوس النصر وعلى طول الإليزيه، وكانت الحشود فرحة تصفق^(١٧). وفي وقت متاخر من هذا اليوم اللاذعه ببرودته وصل الجثمان أخيراً إلى مكانه (القبر) - كنيسة مقابر ضحايا الحرب ذات القبة الرائعة. وغضن صحن الكنيسة وماشيها بآلاف المشاهدين الصامتين بينما يحمل أربعة وعشرون بحاراً التابوت الثقيل إلى مذبح الكنيسة حيث خاطب الأمير دي جونفيلي de Joinville أباًه الملك قائلاً: «سيدي، لقد حضرت لك جثمان إمبراطور فرنسا» فأجاب الملك لويس فيليب: «إنني أستقبله باسم فرنسا». ووضع بيرتران سيف نابليون فوق التابوت، وأضاف جورج وقبعة الإمبراطور، وأنشدت الجموع القداس على روحه بمحاسبة موسيقا وزارت، وأخيراً أصبح رفات الإمبراطور حيث كان يود أن يكون - في قلب باريس وعلى ضفاف نهر السين.

٣- منظور (زاوية رؤية)

بعد أن نكون قد فرغنا من هذا الكتاب نكون جمِيعاً - المؤلفان والقراء - قد حققنا نبوءته - إن العالم سيحيي موتة بنتهيدة ارتياح. لقد كان قوة جرى استفادها، وظاهرة من ظواهر الطاقة الكافية المتفجرة، طاقة صاعدة حارقة، شعلة ماحقة تلتهم كلَّ من يلمسها. إننا لم نجد في التاريخ روحَاً أخرى تحرق بهذه الشدة وعلى طول هذا المدى. لقد كانت إرادته في البداية متربَّدة خائفة كئيبة، لكنه سرعان ما اكتشف أسلحتها ومصادرها في ذهن ثاقب وعين فاحصة، فأصبحت إرادة واثقة مندفعة مهيبة كل ذلك مع فهم وإدراك وقوه، حتى حارت الأرباب معه، فربطت إرادات أقل من إرادته قوة لتحالف معاً وتعقبه وتحاصره وتقيده إلى صخرة حتى تخمد نيرانه. إنها واحدة من أعظم أنواع الدراما في التاريخ، لا تزال تنتظر كاتباً مثل إيسخيلوس^(*) ليكتبها.

لكن حتى في عصره كان لديه شخص كهيجل لم تُعمم الحدود فرأى فيه قوة عالمية -

(*) من كتاب التراجميديا اليونان. (المراجع)

تتحدث من خلالها حقيقة الأحداث والظروف - لتحليل التفرق إلى وحدة . والهيلوي إلى معنى مؤثر . هنا - في فرنسا أولاً ثم في وسط أوروبا - كانت توجد روح العصر *Zeitgeist* الحاجة إلى الانضباط والنظام ، نهاية الإفراط المدمر في الحرية الفردية ، والإفراط المدمر في تشطّي الحكم (المقصود تقسيم أوروبا إلى كيانات سياسية صغيرة يحكم كل منها حاكم) . بهذا المعنى كان نابليون قوة تقدمية ، أرسى دعائم الاستقرار السياسي ، وأعاد القيم الأخلاقية ونظم الهرمية وحدّت القوانين ونقّتها (نظمها) ، وحمى الحياة والممتلكات ، وأنهى الإقطاع أو خفف وطأته ، وطمأن الفلاحين وقدم العون للصناعة ، وحافظ على العملة الصحيحة ، وظهرت الإدارات والقضاء وتطورهما وشجع العلوم والفنون (لكنه لم يشجع الأدب وقمع الصحافة) وشيد المدارس ، وجعل المدن وأصلح بعض ما دمرته الحرب ، وبفضل حثّه وذاته تقدّمت أوروبا في ظرف الخمسة عشر عاماً التي حكم فيها تقدماً ما كان يحدث إلا في خمسين عاماً .

ولم يكن نابليون هو أقوى قوة في عصره وأكثرها دوماً ، فقد كانت الثورة الصناعية أقوى منه ، فقد جعلت بريطانيا العظمى من الشراء بحيث أمدّت ومؤلت كي تُسقط نابليون ، وبعدها جعلت هذه الثورة الصناعية من أوروبا قوة فعالة بحيث سيطرت على الكورة الأرضية ثم إن هذه الثورة الصناعية استطاعت بعد ذلك أن تجعل من أمريكا قارة ذات موارد بما يكفي لإنقاذ أوروبا وتعويض ما نقص فيها وما كان يلي الثورة الصناعية في القوة هو الثورة الفرنسية التي بدأت في فرنسا ١٧٨٩ والتي هي بدورها أقوى من نابليون (ابن الثورة) بكثير وأبقى منه بمراحل ، فهذه الثورة الفرنسية (١٧٨٩) نشرت تأثيراتها في كل أنحاء أوروبا إذ ألغت الروابط الإقطاعية والرسوم الإقطاعية وأحلّت محلها الحقوق الفردية ، وجعلت الجياع (المعطشين) على مستوى العالم يجدون فيها (أي في الثورة الفرنسية) أوضاع صوت معيّر عنهم: الجياع للحرية - حرية الحركة والنمو والعمل الاقتصادي والعبادة والتفكير والصحافة ، والجياع للمساوة - في الفرص المتاحة والتعليم والصحة والعدالة القانونية . هؤلاء الجياع (المعطشون) المعادون - ما هو قائم أخذوا دورهم في السيطرة على تاريخ الإنسان المعاصر: لقد أصبح التعلق للحرية ، والضرر الناتج عن المساواة موضوعين أثيرين تم

تناولهما بشكل مستمر في أوروبا وأمريكا في القرن التاسع عشر، وأصبح التعطش للمساواة على حساب الحرية – جانباً مهمتنا على التاريخ الأوروبي والأمريكي في القرن العشرين. فالثورة الفرنسية، والثورة الأمريكية كما فسرّها جيفرسون Jefferson حملت الحرية فوق طاقتها وأفرطت فيها. حُررت الفرد إلى حد إفساد النظام، وحررت القدرات المتفوقة إلى حد نشوء أزمات متكررة بسبب تكريس الشروة. وقد قدم نابليون النظام الذي قمع الفوضى السياسية والاقتصادية والأخلاقية في فرنسا في فترة ما بعد الثورة. وليس هناك نظام يكبح هذه الفوضى في زماننا.

وعندما بالغ نابليون في فرض النظام بعد سلام تيلسيت (1807) وأخضع أمور الدولة لإرادة السلطة (القوة) فإنه ساعتها لم يعد يمثل روح العصر. لقد انضم وقتها إلى ملكيات أوروبا المطلقة وراح يقلّدها، تلك الملكيات التي كان هو نفسه قد حاربها. لقد حسد الأرستقراطية وحاول إغراءها، تلك الأرستقراطية التي احتقرته وتأمرت لتدميره. لقد أصبح قوة رجعية عندما راحت فرنسا من جديد تُتُوق للحرية وتطالب بالديمقراطية.

ومن سخرية التاريخ أنه بينما كان نابليون في أثناء حياته يعمل على تجسيد حاجة بلاده للانضباط والنظام بعد فترة من الحرية المنفلتة، فإنه أصبح مرة أخرى بعد مماته ابنًا للثورة وعدوا للحكم المطلق والأرستقراطية ورمزًا للثوار والمحظوظ المتمكن المنادي بالحرية (وكان هذا بفضل إعادة صياغة تاريخ حياته، تلك الحياة التي اتخذت طابعاً أسطورياً). في سنة 1799 كانت الظروف وطبيعته قد جعلته دكتاتوراً يكاد يكون أكثر دكتاتورية من التاريخ(*)، وبعد سنة 1815 وسجنه في سانت هيلانا أعاد الخيال العام تشكيله، وكانت إعادة التشكيل هذه أوضح بعد موته 1821، ليصبح طوال نصف قرن أكثر الدعاة إلى الحرية. لقد ترك لنا عدد قليل من الرجال العظام بعد موتهما ما يفيدنا بما كانوا عليه في أثناء حياتهم.

أكان نابليون مثير حرب؟ أكان مسؤولاً عن هذه السلسلة المتعاقبة من الحروب الحاشرة،

(*) ربما يكون المقصود: جعلته الظروف وطبيعته دكتاتوراً أكثر مما حكم التاريخ عليه بالدكتاتورية. النص الإنجليزي: opportunity & character had made him adictator almost larger than history.

وعن هؤلاء الملaiين من الشباب الذين قضوا تحبهم ولم يستفيدوا شيئاً سوى نشوء المعركة وخدارها، وملaiين النسوة اللائي لم يعدن إليهن ذوون؟ فلتسمعه (أي نسمع نابليون). لقد اعترف أنه كان يسعد بالقيادة العسكرية (يسعد بجنريته) لأنه كان قد تدرب على الفن العسكري ومارسه ممارسة جيدة، لكن كيف كان غالباً ما يتطلع للخلاص من الحرب لمارسة أحد فنونه الأخرى - الإدارة تحويل الفوضى (الهبيولى) السائدة في الحياة إلى نظام فعال بتأسيس بنية قانونية قوية وقاعدة أخلاقية متينة! كم مرة عرض السلام فوجئه بالتسفيه والاحتقار والرفض! لقد رحب به الإيطاليون كمحرر سواء في عام ١٧٩٦ أو في عام ١٨٠٠. وأعاد النمساويين، ضمّهم (إخضعم) عندما كان (أي نابليون) في مصر. وهاجمه النمساويون بينما كان مشغولاً عند القنال الإنجليزي، وانضمت بروسيا وروسيا إلى هذا الهجوم دون أن يكون قد أحق بأيّهما ضرراً. وهاجمته النمسا مرة أخرى بينما كان يحارب في إسبانيا، ونقضت روسيا عهدها فلم تدعمه في مثل هذا الموقف، وتعهدت روسيا في تيلسيت أن تُحكم الحصار القاري على البضائع البريطانية وكان هذا الحصار (المضاد) الذي فرضه نابليون هو السبيل الوحيد أمام فرنسا لمواجهة الحصار البريطاني للموانئ الفرنسية، واستيلاء البريطانيين على السفن الفرنسية والمستعمرات الفرنسية. وكان الذهب البريطاني قد مول تحالفه إثر تحالف ضد نابليون حتى عندما جنح أعداؤه الآخرون للسلم، وعاملته الحكومة البريطانية ك مجرم رغم تسلیمه نفسه طوّعاً، بينما كان هو نفسه يعامل ضباط الأعداء المأسورين في أثناء المعارك بمحنة إنسانية. لقد قرر أعداؤه تدميره لأنّه وصل للملك بجهده وعمله وليس بالوراثة. وهكذا جرى دفاع نابليون. لقد اتفق المؤرخون الإنجليز (عادة ما كانوا عادلين) والمؤرخون الالمان (عادة ما كانوا دقيقين) وكثير من المؤرخين الفرنسيين (عادة ما كانوا وطنيين) مثل ميشيليه Michelet ولانفري Lanfrey وتين Taine وليفيبر Lefebvre - على إدانة الكورسيكي. لقد اغتصب العرش إذ استفاد من اعدام لويس السادس عشر وانهيار حكومة الإدارة الفاسدة ليستولي على عرش هو حق لويس الثامن عشر. مثل هذا الاغتصاب لا يمكن التسامح فيه طالما كان يقلّل الاستقرار السياسي العزيز على كلّ أوربا. ولم تكن مطالباته بمؤتمرات سلام تؤخذ على محمل الجد طالما كان

الخلفاء يرفضون الاعتراف بأمور يرونها غير محتملة كالاعتراف بالسيادة الفرنسية على سويسرا وإيطاليا، وفي وقت لاحق على كونفدرالية الراين. وشجعه مهارته الحربية على شن الحرب لذا فقد كان سيفاً مصلتاً لا على توازن القوى المطلوب لتحقيق السلام فحسب وإنما على النظام السياسي الأوروبي كله، وأدت غرامات الحرب الباهظة التي فرضها بعد انتصاراته إلى أن أصبحت الحكومات المهزومة غير قادرة على تمويل أية حركة مقاومة لحمله الخيالي، ألا وهو توحيد كل أوروبا تحت السيادة الفرنسية وفي ظل قوانين المدونة القانونية النابليونية، فاضطررت هذه الحكومات المهزومة إلى أن تقبل راضية الإعانات المالية التي قدمتها لها الحكومة البريطانية. وكان الاستيلاء على المستعمرات الفرنسية كوسيلة لإعادة فرنسا إلى وعيها متفقاً مع ما جرى عليه العرف بين الحكومات في حروب القرن الثامن عشر. أكان يمكن لحكومات كاثوليكية - كحكومة النمسا - أن تكون في ظل ملحد لا يخفي إلحاده (المقصود معاد للكاثوليكية) كان قد اضطهد بقسوة البابا الذي مسحه بالزيت (كرسه) والذي لا يملك سلاحاً سوى تقواه؟ وقد عامل الخلفاء نابليون بكلم بعد تنازله عن العرش للمرة الأولى إلا أنه بمعادرته إليها نقض الاتفاق فأجبر أوروبا على إنفاق الملايين من عوائدها والآلاف من أرواح أبنائها لقمعه وأسره، واكتفت إنجلترا وحلفاؤها بعزله بعيداً من مكان . يستحيل معه أن ينطلق مرة أخرى لتحطيم السلام في أوروبا .

قلما تكون الحقيقة بسيطة، فغالباً ما يكون لها يد يمنى وأخرى يسرى وغالباً ما تمشي على قدمين. أكان هناك - منذ أشوكا Ashoka - حرب كبرى قدمت فيها أمّة واحدة لقضية أعدائها حلاً عادلاً عدالة كاملة؟ يوجد جانب في طبيعة المواطن يجعله يؤمن بأن الله شريك في حروب بلاده. (يحارب في صف بلاده). ليست هناك دولة مهما كبرت ومهما قويت يمكنها أن تحل المشكلة لأن بعض حروفينا الكبار ذات أبعاد غير حربية (مدنية). إن أفضل سبيل نأمل تحقيقها هو أن نتح مزيداً من الرجال والنساء على تقديم نزاعاتهم إلى محكمة دولية أو عصبة أم دولية، لكن يجب لأن تتوّقع أن تقدم أمّة للتحكيم ما تعتبره مسألة حياة أو موت. فالحفاظ على النفس يظل هو القانون الأساسي للحياة . في نطاق هذه الحدود، على الفيلسوف أن يعمل على تطبيق بضاعته (أفكاره أو

فلسفته)، إن عليه أن يفهم ويتسامح. إننا نستطيع أن نفهم الإمبراطور فرانسيس الثاني الذي جرّد نابليون من نصف دولته، وطرده من عاصمته الحبيبة إلى نفسه، ومع هذا فقد عاد إليها وظل محبوباً من شعبه، رغم أنه سُلب وتعرّض للإهانة، ونستطيع أن نفهم الكاثوليكي الطيب وقد صدمه أن يُعامل البابا معاملة سيئة، ومع هذا فقد طلب من الحلفاء في وقت لاحق تيسير ظروف سجن نابليون الذي اضطهد البابا. ونستطيع أن نفهم ممانعة القيسير إسكندر في التضحية بتجارة بلاده بالتزامه بالحصار القاري (المضاد) الذي فرضه نابليون، ونستطيع أن نفهم قرار إنجلترا بالدفاع عن توازن القوى، ذلك التوازن الذي تعتمد عليه لضمان أنها وحماية نفسها من سيطرة القوى الخارجية عليها. ونستطيع أن نفهم دفاع فرنسا عن الرجل الذي خلص حكومتها وقيمتها من الفوضى القاتلة، والذي وسع حدودها بانتصاراته العبرية وحقق لها عظمة غير مسبوقة. لا. إن نابليون، هذا الرجل الرائع ليس مجرد غول قاتل مخرب. حقيقة إن رغبته في السلطة وتوقه إليها، واتساع مدى حلمه الذي لا يقاوم – كل أولئك قاده إلى أفعاله ومصيره، لقد كان أوتوقراطياً (مؤمناً بحكم الفرد) واثقاً من أنه يعرف أفضل مما يعرف مواطنه، ما هو خير لفرنسا وأوروبا. لكنه كان أيضاً رجلاً كريماً، سريعاً العفو، حنوناً يخفى حنانه، ترددَ عدّة سنوات قبل أن يطلق جوزفين، تلك المرأة التي تُقاد للإثم بسهولة. ويمكننا أن نقول من أجله أنه هو أيضاً قد عانى وكفر عن ذنبه، لقد عانى من الأمراض والأطباء وعاني عند تراجعه من روسيا (انسحابه) وعاني في سانت هيلان التي كان فيها ميتاً حياً.

إنه يبقى الشخصية البارزة المميزة في عصره، ويبقى منه شيء نبيل ظل باقياً رغم حبه الأناني للسلطة ورغم تعرضه للهبوط بين الحين والحين من سُؤدد العظمة إلى الهزيمة. لقد ظنَّ نابليون أننا لن نرى مثيلاً له مرة أخرى لمدة خمسمائة عام. إننا لا نتمنى هذا، بل إنه لأمر طيب (طيب بما فيه الكفاية) أن نتأمل ونعاني – مرة كل ألف عام – في سلطان العقل البشري، مدى قوته، ومدى قصوره.

الْعَوَالِسِي

حواشی الفصل الخامس والثلاثین

1. Watons, <i>The Reign of Georges III</i> , 469; Mistler, <i>Napoléon et L'Empire</i> , II, 66.	24. Méneval, III, 894.
2. Lefebvre, <i>Napoleon</i> , II, 179.	25. Taine, <i>Modern Regime</i> , 37; Vandal, III, 343.
3. Vandal, <i>Napoléon et Alexandre</i> , III, 26.	26. Mistler, II, 202.
4. Lefebvre, II, 109, 123-26.	27. <i>Ibid.</i> , 449.
5. <i>Ibid.</i> , 127-28.	28. <i>Ibid.</i> , 204.
6. Mistler, II, 184-89.	29. Palmer, Alan, <i>Napoleon in Russia</i> , 48.
7. <i>Ibid.</i> , 185.	30. <i>Letters</i> , 270 (July 14, 1812).
8. Vandal, III, 139.	31. Lefebvre, <i>Napoleon</i> , II, 314.
9. <i>Ibid.</i> , 34, 39, 597.	32. Herold, ed., <i>The Mind of Napoleon</i> 205.
10. Kornilov, 195.	33. <i>Letters</i> , 271.
11. Caulaincourt, <i>With Napoleon in Russia</i> , Ch. I.	34. <i>Ibid.</i> , note, by J. M. Thompson.
12. Méneval, <i>Memoirs</i> , II, 808.	35. Palmer, Alan, <i>Napoleon in Russia</i> , 81.
13. Vandal, III, 326.	36. Kircheisen, 188.
14. <i>Ibid.</i> , 2-4.	37. Mistler, II, 207.
15. Kircheisen, <i>Memoirs of Napoleon I</i> , 195.	38. Palmer, Alan, <i>Napoleon in Russia</i> , 113.
16. Letter of Dec. 19, 1811, in <i>Napoleon</i> , <i>Letters</i> , 263; Palmer, Alan, <i>Napoleon in Russia</i> , 31.	39. Testimony of Napoleon's Physician in Mestivier, in Delderfield, <i>The Retreat From Moscow</i> , 62.
17. Letter of Dec. 20, 1811.	40. Caulaincourt, 152.
18. Guérard, <i>French Civilization in the 19th Century</i> , 76.	41. Lefebvre, <i>Napoleon</i> , II, 3.
19. Edouard Driault, in Geyl, <i>Napoleon: for and Against</i> , 311.	42. Caulaincourt, 152.
20. Caulaincourt, 25.	43. Méneval, II, 859.
21. Fouché, <i>Memoirs</i> , II, 85 f.	44. Strakhovsky, <i>Alexander I of Russia</i> , 94.
22. Letter of Nov. 1, 1811, in <i>Napoleon</i> , <i>Letters</i> , 259-60.	45. Las Cases, III, 167.
23. Kircheisen, 196.	46. <i>Ibid.</i> , 172.
	47. EB, XV, 878c.
	48. Delderfield, 82.

49. Caulaincourt, 122; Lefebvre, II, 315.	61. Palmer, Alan, <i>Napoleon in Russia</i> , 221.
50. <i>Letters</i> , 273.	62. <i>Ibid.</i> , 222.
51. Mistler, II, 210.	63. Méneval, III, 874-78; Caulaincourt, 230; Mistler, II, 212.
52. Méneval, III, 865.	64. Caulaincourt, 261.
53. Caulaincourt, 132; Kircheisen, 199.	65. Delderfield, 175.
54. Palmer, Alan, <i>Napoleon in Russia</i> , 177.	66. Mistler, II, 215.
55. Caulaincourt, 41.	67. Caulaincourt, 325.
56. Méneval, III, 871. Kircheisen, 200.	68. <i>Barlett's Familiar Quotations</i> , 13th ed., 399.
57. Strakhovsky, 138.	69. Note to Bertrand, <i>Napoleon at St. Helena</i> , 265.
58. Caulaincourt, 192.	70. Méneval, III, 888.
59. Méneval, III, 887.	
60. <i>Ibid.</i> , III, 373; Delderfield, 109-11.	

جوابي الفصل السادس والثلاثين

1. <i>EB</i> , XVI, 25a.	Las Cases, III, 223-24.
2. Strakhovsky, <i>Alexander I of Russia</i> , 141.	14. Thiers, IX, 155; Mistler, II, 222.
3. Thiers, <i>History of the Consulate and the Empire</i> , VIII, 338.	15. Kircheisen, <i>Memoirs of Napoleon I</i> , 203; Las Cases, III, 278.
4. Francke, <i>History of German Literature</i> , 492.	16. Mistler, II, 225a.
5. Thiers, <i>History of the Consulate and the Empire</i> , VIII, 435-36.	17. Thiers, IX, 259.
6. <i>Ibid.</i>	18. Lefebvre, II, 390; Thiers, IX, 267.
7. Caulaincourt, <i>Memoirs</i> , II, 213, in Herold, ed., <i>Mind of Napoleon</i> , 195.	19. Thiers, 283.
8. Mistler, <i>Napoléon et L'Empire</i> , II, 217.	20. Madelin, II, 258.
9. Lefebvre, <i>Napoleon</i> , II, 329.	21. <i>Ibid.</i> , 266.
10. Madelin, <i>the Consulate and the Empire</i> , II, 214.	22. Méneval, III, 952; Madelin, II, 265; Thiers, IX, 353.
11. <i>Ibid.</i> , 217.	23. Thiers, 365.
12. Mistler, II, 221.	24. <i>Ibid.</i> , 369.
13. <i>Ibid.</i> , 221-22; Thiers, IX, 130-40;	25. Fain, Agathon, <i>Memoirs of The Invasion of France by the Allied Armies</i> , 79-81.
	26. Mistler, II, 236.
	27. <i>Ibid.</i> , 239.
	28. Fain, 107.

29. Méneval, III, 244.	36. Mistler, II, 249.
30. Thiers, X, 139.	37. Mossiker, <i>Napoleon and Josephine</i> , 375.
31. Mistler, II, 245 ff.	38. Petersen, ed., <i>Treasury of the World's Great Speeches</i> , 324.
32. Thiers, X, 138.	39. Méneval, III, 1047. Fain, 157.
33. Fain, 271.	40. Ortzen, <i>Imperial Venus</i> , 157.
34. Bertrand, H., <i>Napoleon at St. Helena</i> , 35.	
35. Fain, 257.	

حواشی الفصل السابع والثلاثين

1. EB, XIV, 346d.	Abdication, 305.
2. Thiers, <i>History of the Consulate and the Empire</i> , X, 317.	22. Thiers, XI, 235.
3. Ibid., 268; Lefebvre, <i>Napoleon</i> , II, 360.	23. Ibid., 268.
4. Brion, <i>Daily Life in the Vienna of Mozart and Schubert</i> , 173-68.	24. Mistler, II, 276.
5. Thiers, XI; 70.	25. Lefebvre, II, 363.
6. Ibid., 160.	26. Thiers, XI, 437-38.
7. Mistler, <i>Napoléon et L'Empire</i> , II, 251.	27. Las Cases, IV, 110.
8. Ibid., 253; Rose, <i>Personality of Napoleon</i> , 230.	28. Fouché, <i>Memoirs</i> , II, 246.
9. Mistler, II, 253.	29. Madelin, <i>the Consulate and the Empire</i> , II, 412.
10. Rose, 332; Goodrich, F., <i>The Courts of Napoleon</i> , 363.	30. Houssaye, 1815: <i>Waterloo</i> , 17.
11. Rose, 336.	31. Las Cases, II, 5.
12. Thiers, XI, 170.	32. Gourgaud, <i>Journal</i> , I, 93.
13. Ibid., 172.	33. Thiers, XI, 481.
14. Ibid., 173.	34. Byron, <i>Childe Harold's Pilgrimage</i> , III, xxi-xxviii.
15. Mistler, II, 260.	35. Houssaye, 1815: <i>Waterloo</i> , 80-81.
16. Gourgaud, <i>Journal</i> , Jan. 4, 1817.	36. Mistler, II, 221.
17. Thiers, XI, 184.	37. Ibid.
18. Ibid., 196; Mistler, II, 261.	38. Houssaye, 1815: <i>Waterloo</i> , 91.
19. Thiers, XI, 199-201.	39. EB, XXIII, 286.
20. Ibid., 215.	40. Longford, <i>Wellington</i> , 438.
21. Houssaye, Henrie, <i>La Première</i>	41. Howarth, <i>waterloo</i> 52, 55-56.
	42. Maclaurin, C, <i>Post Mortem</i> 224-25.
	43. Houssaye, 1815: <i>Waterloo</i> , 255.
	44. Mistler, II, 276.

45. Longford, 472.	50. Houssaye, 1815: <i>Waterloo</i> , 212.
46. Madelin, II, 457.	51. <i>Ibid.</i> , 221.
47. Howarth, <i>Waterloo</i> , 144.	52. Houssaye, 1815: <i>La Seconde Abdication</i> , 113.
48. Longford, 472.	53. Houssaye, 1815: <i>Waterloo</i> , 216, 224.
49. Kircheisen, <i>Memoirs of Napoleon I</i> , 223.	

حواشی الفصل التامن والثالث

1. Kircheisen, <i>Memoirs of Napoleon I</i> , 225.	14. Talleyrand, <i>Memoirs</i> , introd. by de Broglie, x.
2. Houssaye, 1815: <i>La Seconde Abdication</i> .	15. Barleet's Quotations, 384.
3. Constant, Benjamin, <i>Mémoires sur les Cent Jours</i> , in Houssaye, 40.	16. Talleyrand I. x.
4. Letters of June 19, in <i>Letters</i> , 307.	17. Lefebvre, <i>Napoleon</i> , II, 367.
5. Houssaye, 1815: <i>La Seconde Abdication</i> , 10.	18. Houssaye, 561.
6. <i>Ibid.</i> , 61. Mistler, II, 282.	19. Mistler, II, 285.
7. Houssaye, 199.	20. Houssaye, 396.
8. <i>Letters</i> , 308 (June 25, 1815).	21. From a copy of the original in the Royal Library at Windsor.
9. Houssaye, 215, 194.	22. Las Cases, I, 26.
10. Las Cases, I, 15n.	23. Rosebery, <i>Napoleon: The Last Phase</i> , Appendix I.
11. CMH, IX, 644.	24. Thiers, <i>History of the Consulate and the Empire</i> , XII, 305.
12. Houssaye, 337-41.	25. <i>Ibid.</i> , 313.
13. <i>Ibid.</i> , 160-66.	

حواشی الفصل التاسع والثالث

1. Kircheisen, <i>Memoirs of Napoleon I</i> , 260.	7. <i>Ibid.</i> , II, 4; Rosebery, 152.
2. Las Cases, I, 262.	8. Las Cases, II, 93.
3. <i>Ibid.</i> , 266n.	9. Thiers, <i>History of the Consulate and the Empire</i> , XII, 334.
4. Las Cases, II, 247; III, 115.	10. <i>Ibid.</i> , 335.
5. Mistler, <i>Napoléon et L'Empire</i> , 2929; Rosebery, <i>Napoleon: The Last Phase</i> , 172.	11. Las Cases, II, 386.
6. Las Cases, III, 21.	12. <i>Ibid.</i> , III, 139.
	13. Rosebery, 109.

14. <i>Ibid.</i> , 109; Las Cases, III, 158; Thiers, XII, 338.	42. Bertrand, 112.
15. Las Cases, III, 4.	43. Las Cases, I, 236.
16. <i>Ibid.</i> , II, 139, 177; Rosebery, 89.	44. Thiers, XII, 370.
17. <i>EB</i> , II, 536a.	45. <i>Ibid.</i> , 377.
18. Bertrand, H., <i>Napoleon at St. Helena</i> , 201.	46. Mistler, II, 320.
19. Rosebery, 49, 93.	47. Gourgaud, I, 150, and <i>passim</i> .
20. Las Cases, I, 120; II, 322.	48. Herold, <i>Mind of Napoleon</i> , introd.
21. Rosebery, 53.	49. MacLaurin, <i>Post Mortem</i> , 211-14.
22. Mistler, II, 288c; Bertrand, 249, notes.	50. Bertrand, 130.
23. Bertrand, 248.	51. <i>Ibid.</i> , 124.
24. Kircheisen, 224.	52. Las Cases, IV, 400.
25. Rosebery, 180.	53. <i>Ibid.</i> , 411.
26. Kircheisen, 275 (editor's postscript).	54. Kircheisen, 269.
27. Gourgaud, <i>Journal</i> , April 23, 1816.	55. Gibbon, Edward, <i>Decline and Fall of the Roman Empire</i> , I, 250.
28. Gourgaud, I, 415.	56. Gourgaud, II, 440.
29. Rosebery, 175.	57. <i>Ibid.</i> , II, 437.
30. Kircheisen, 227.	58. Bertrand, 125.
31. <i>Ibid.</i>	59. Gourgaud, II, 405; Rosebery, 191.
32. <i>Ibid.</i> , 224.	60. Gourgaud, II, 431.
33. Mistler, II, 8.	61. Thiers, XII, 366.
34. Herold, <i>Mind of Napoleon</i> , 248.	62. <i>Ibid.</i> , 384.
35. CMH, IX, 762; Herold, 66.	63. Bertrand, 200, 210.
36. Las Cases, IV, 107.	64. Marquis Charles de Montholon, <i>Histoire de la captivité de Ste-Hélène</i> , II, 103, in Herold, <i>Mind of Napoleon</i> , 17.
37. Herold, 66.	65. Martineau, Gilbert, <i>Napoleon's St. Helena</i> , 215.
38. Las Cases, IV, 75.	66. Bertrand, 235; MacLaurin, <i>Post Mortem</i> , 215; Rosebery, 175.
39. Gourgaud, II, 75; I, 567-68; III, 315; Las Cases, IV, 74.	67. MacLaurin, 216.
40. Las Cases, IV, 78.	
41. <i>Ibid.</i> , II, 120.	

1. Horne, R. H., <i>History of Napoleon</i> , II, 55.	10. In Geyl, 33.
2. Méneval, III, 1025.	11. O'Meara, B., <i>Napoleon in Exile</i> , 363, 176.
3. EB, XV, 1004.	12. Las Cases, III, 179.
4. Ortzen, <i>Imperial Venus</i> , 69, 92.	13. In Hutt, M., <i>Napoleon</i> , 77.
5. <i>Ibid.</i> , 83.	14. Chateaubriand, <i>Memoirs</i> , ed. Baldick, 300.
6. EB, III, 900b.	15. Horne, Appendix 2.
7. Thiers, <i>History of the Consulate and the Empire</i> , X, 411; Mossiker, <i>Napoleon and Josephine</i> , 339.	16. <i>Ibid.</i> , 16.
8. Méneval, III, 1059.	17. Thackeray, "The Second Funeral of Napoleon," in <i>Roundabout Papers</i> .
9. Mistler, <i>Napoléon et L'Empire</i> , II, 304.	

مراجعة (المجدر (العادي عشر

(الكتب من ١ إلى ٥)

مراجع المجلد الحادي عشر (الكتب من ١ إلى ٥)

ACTON, JOHN EMERICH, Lord, *The French Revolution*, London, 1910.

ADAMSON, ROBERT, Fichte. Freeport, N.Y., 1969.

ALTAMIRA, RAFAEL, *A History of Spain*. Princeton. Princeton, N.J., 1955.

-----, *History of Spanish Civilization*. London, 1930.

ARNOLD, MATTHEW, *Essays in Criticism*, First and Second Series. New York: A. L. Burt, n.d.

AULARD, ALPHONSE, *The French Revolution*, 4v. New York, 1910.

-----, *Christianity and the French Revolution*. Boston, 1927.

AUSTEN, JANE, *The Complete Novels*. Modern Library.

-----, *Pride and Prejudice* and *Sense and Sensibility*. Modern Library.

BALCARRES, LORD, *Evolution of Italian Sculpture*. London, 1909.

BARNES, HARRY ELMER, *An Economic History of the Western World*. New York, 1942.

BATESON, F.W., *Wordsworth: A Re - interpretation*. London, 1954.

BEARD, CHARLES, *Introduction to the English Historians*. New York, 1927.

BECKER, CARL, *The Heavenly city of the Eighteenth Century Philosophers*. New Haven, Conn., 1951.

BEETHOVEN, LUDWIG VAN, *Letters*, translated and edited by Emily Anderson, 3v. New York, 1961.

BELL, E.T., *Men of Mathematics*. New York, 1937.

BEELLOC, HILAIRE, *Danton*. New York, 1899.

BENN, ALEFRED W., *History of English Rationalism in the Nineteenth Century*, 2v. London, 1906.

BENTHAM, JEREMY, *A Fragment on Government*. Oxford University Press, 1948.

-----, *Introduction to the Principles of Morals and Legislation*. New York, 1948.

BERNAL, J. D., *Science in History*. London, 1957.

BERRY, ARTHUR, *A Short History of Astronomy*. New York, 1909.

BERTAUT, JULES, *Napoleon in His Own Words*. Chicago, 1916.

BERTAND COMTE HENRI G., *Napoleon at St. Helena*. New York, 1952.

BLAKE, WILLIAM, *Poems and Prophecies*. Everyman's Library.

-----, *Selected Poems*. London, 1947.

BOAS, GEORGE, *French Philosophers of the Romantic Period*. New York, 1964.

BORROW, GEORGE, *The Bible in Spain*. London, 1908.

BOURGUIGNON, JEAN, *Napoléon Bonaparte*, 2v. Paris: Editions Nationales, 1936.

BOURRIENNE, LOUIS - ANTOINE FAUVELET DE, *Memoirs of Napoleon Bonaparte*, 4v. New York, 1890.

BOWEN, MARJORIE, *Patriotic Lady: Emma, Lady Hamilton*. New York, 1936.

BRANDES, GEORGES *Main Currents in Nineteenth Century Literature*, 6v. New York, 1915.

-----, *Wolfgang Goethe*, tr. Allen Porterfield, 2v. New York, 1924.

BREED, LEWIS, *The Opinions and Reflections of Napoleon*. Boston, 1926.

BRETT, G, S, *History of Psychology*. London, 1953.

BRINTON, CRANE, *The Jacobins*. New York, 1930.

BRION, MARCEL, *Daily Life In The Vienna Of Mozart And Schubert*. New York, 1962.

BROCKWAY, W., and H. WEINSTOCK, *Men of Music*. New York, 1939.

-----, and B. WINER, *A Second Treasury of the World's Great Letters*. New York, 1941.

BRUCKNER, A., *A Literary History of Russia*. London, 1980.

BURKE, THOMAS, *English Night Life*. New York, 1941.

BYRON, GEORGE GORDON, LORD, *Works*, i-vol. ed. New York: George Leavitt, n.d.

CAIRD, EDWARD, *Hegel*. Edinburgh, 1911.

Cambridge History of Poland, 2v. Cambridge, Eng., 1950.

Cambridge Modern History (CMH), Vols. VIII and IX. Cambridge, 1918.

CAMERON, KENNETH, N., *The Young Shelley*. New York, 1950.

CAMPAN, JEANNE - LOUISE. *Memoirs of the Private Life of Marie Antoinette*, 2v. Boston, 1917.

CANOVA, ANTONIO, *Works*, with biographical memoir by Count Cicognara, 2v. Boston, 1876.

CANTON, GUSTAVE, *Napoléon antimilitariste*. Paris, 1902.

CARLYLE, THOMAS, *Critical and Miscellaneous Essays*, 2v. New York, 1901.

-----, *The French Revolution*, 2v. New York, 1901.

CASTIGLIONE, ARTURO, *A History of Medicine*. New York, 1941.

CAULAINCOURT, MARQUIS ARMAND DE, *With Napoleon in Russia*. New York, 1935.

CHATEAUBRIAND, FRANCOIS - RENE DE, *Atala and René*. Oxford University Press, 1926.

-----, *The Genius of Christianity*. Baltimore: John Murphy, n.d.

-----, *Mémoires d'outre - tombe*. Paris, n.d.

-----, *Memoirs*, selected and edited by Robert Baldick. New York, 1961.

CLARK, BARRETT H., *Great Short Biographies of the World*. New York, 1928.

COLE, G. D. H., *Robert Owen*. Boston, 1925

COLERIDGE, SAMUEL TAYLOR, *Selected Poetry and Prose*. New York: Random House, n. d.

-----, *Biographia Literaria*. Everyman's Library.

COLMER, JOHN, *Coleridge Critic of Society*. Oxford University press, 1959.

CONSTANT, BENJAMIN, *Adolphe*. New York, 1959.

-----, *Journal intime*. Monaco, n. d.

-----, *The Red Notebook*, in *Adolphe*.

CONSTANT, VERY, *Mémoirs of the Private Life of Napoleon*, 4v. New York, 1907.

CORTI, EGON CAESAR, *Rise of the House of Rothschild*. New York, 1928.

CRONIN, VINCENT, *Napoleon Bonaparte*. New York, 1972.

DELDEFIELD, R. F., *The Retreat from Moscow*. New York, 1967.

DICEY, A. V., *Law and Public Opinion in England during the Century*. London, 1926.

DOWDEN, EDWARD, *Life of Shelley*, 2v. London, 1887.

DUBNOW, S. M., *History of the Jews in Russia and Poland*, 3v. Philadelphia, 1916.

ECKERMANN, JOHANN PETER, *Conversations with Goethe*. London, 1882.

EMERSON, RALPH WALDO, *Representative Men*. Philadelphia: McKay, n.d.

Encyclopaedia Britannica (EB), 24V. Chicago, 1970.

Encyclopaedia Britannica, 24v. New York, 1929.

Encyclopaedia of philosophy, 8v. New York, 1967.

FAGUET, EMILE, *Dix - neuvième Siècle: Etudes Littéraires*. Paris: Boivin, n.d.

-----, *Dix - septième Siècle: Etudes et Portraits littéraires*. paris: Boivin, n.d.

FAIN, BARON AGATHON, *Memoirs of the Invasion of France by the Allied Armies (1814)*. London, 1834.

FAY, BERNARD, *Louis XVI*. Chicago, 1967.

FIALA, VLADIMIR, *Russian Painting of the Eighteenth and Nineteenth Centuries*. Artia, n.d.

FICHTE, JOHANN GOTTLIEB, *Addresses to the German Nation*. New York, 1968.

-----, *The Science of Knowledge*. New York, 1970.

-----, *The Vocation of Man*. Chicago, 1925.

FINDLAY, J. N., *Hegel: A Re-examination*. New York, 1962.

FINKELSTEIN, LOUIS, ed., *The Jews: Their History, Culture and Religion*, 2v. New York, 1949.

FISHER, H. A. L., *Studies in Napoleonic Statesmanship: Germany*. Oxford University Press, 1903.

FLORINSKY, MICHAEL T., *Russia: A History and an Interpretation*, 2v. New York, 1955.

FOUCHE, JOSEPH, *Memoirs*, 2v. London, 1825.

FOURNIER, AUGUST, *Napoleon the First*. New York, 1926.

FRANCKE, KUNO, *A History of German Literature as Determined by Social Forces*. New York, 1901.

FRUMAN, NORMAN, *Coleridge, the Damaged Archangel*. New York, 1971.

GARDNER, MARTIN, ed., *The Annotated Ancient Mariner*. New York, 1965.

GARRISON, F., *History of Medicine*. Philadelphia, 1929.

GEYL, PETER, *Napoleon: For and Against*. Baltimore: Penguin, 1965.

GIBBON, EDWARD, *History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. Dean Milman. New York: Nottingham Society, n.d.

GILBERT, O. P., *The Prince de Ligne*. New York: McDevitt Wilson, n.d.

GODWIN, WILLIAM, *Enquiry Concerning Political Justice*, 2v. London, 1842.

GOOCH, G. P., *Germany and the French Revolution*. New York, 1966.

-----, *History and Historians in the Nineteenth Century*, 2d ed. London, 1952.

GOODRICH, FRANK B., *The Court of Napoleon*. New York, 1856.

GOTTSCHALK, LOUIS R., *Jean - Paul Marat*. New York, 1937.

GORGAUD, GASPARD, *Journal*, 3v. Paris, n.d.

GRAETZ, HEINRICH, *History of the Jews*, 8v. New York, 1919.

GRAMONT, SANCHE DE, *Epitaph for Kings*. New York, 1968.

GREEN, J. R., *Short History of the English People*, 3v. London. 1898.

GREENLAW, R. W., *Economic Origins of the French Revolution*. Boston, 1958.

GROUT, DONALD JAY, *A Short History of Opera*. New York, 1954.

Grove's *Dictionary of Music and Musicians*, 5v. New York, 1927 ff.

GUERARD, A. L., *French Civilization in the Nineteenth Century*. London, 1914.

GUICCIOLI, COUNTESS, *My Recollections of Lord Byron*. Philadelphia, 1869.

GUILLEMIN, HENRI, *Napoléon tel quel*. Paris, 1969.

HALEVY, ELIE, *History of the English people in 1815*. New York, 1924.

HANCOCK, A. E., *The French Revolution and the English Poets*. Port Washington, N. Y., 1967.

HAUSER, ARNOLD, *The Social History of Art*, 2v. New York, 1952.

HAWKINS, SIR JOHN, *Life of Samuel Johnson*. New York, 1961.

HAZLITT, WILLIAM, *Lectures on the English Poets and The Spirit of the Age*. Everyman's Library.

HEGEL, GEORG WILHELM, *The Philosophy of Georg Wilhelm Hegel*, ed. Carl J. Friedrich. Modern Library, 1954.

-----, *philosophy of History*. New York, 1900.

-----, *philosophy of Right*, Great Books, Vol. 40.

HEILBRONER, ROBERT L., *The Worldly Philosophers*. New York, 1953.

HELVETIUS, CLAUDE - ADRIEN, *De l'Esprit, or Essays on the Mind*. London, 1807.

HEROLD, J. CHRISTOPHER, *Bonaparte in Egypt*. New York, 1969.

-----,ed., *The Mind of Napoleon*. New York, 1965.

-----, *Mistress to an Age: A Life of Madame de Staél*. Indianapolis, 1958.

HIRSCH, E. D., JR., *Wordsworth and Schelling*. New Haven, Conn., 1960.

HIRSH, DIANA, *The World of Turner*. New York, 1969.

HOBSBAWN, E. J., *The Pelican Economic History of Britain*. Baltimore, 1969.

HOFFDING, HAROLD, *History of Modern Philosophy*, 2v. New York. 1955.

HORN, F. W., *History of the Literature of the Scandinavian North*. Chicago, 1884.

HORNE, R. H., *The History of Napoleon*, 2v. London, 1844

HOUSSAYE, HENRI, *La Première Abdication*. Paris, 1905.

-----, *La Première Restauration*. Paris, 1905.

-----, *1815: La Seconde Abdication*. Paris, 1905.

-----, *1815: Waterloo*. Kansas City, 1905

HOWARTH, DAVID, *Trafalgar*. New York, 1969.

-----, *Waterloo: Day of Battle*. New York, 1968.

HUGO, VICTOR, *Ninety - three, in Works*, Vol. VII. New York: University Society, n.d.

HUMBOLDT, ALEXANDER VON, *Cosmos*, 5v. London, 1845.

HUTT, MAURICE, *Napoleon*. Englewood Cliffs, N. J., 1972.

JUNOT, MME. ANDOCHE, DUCHESSE D'ABRANTES, *Memoirs of the Emperor Napoleon*, 3v. London, 1901.

KAFKER, F. A., and J. M. LAUX, *The French Revolution: Conflicting Interpretations*. New York, 1968.

KAUFMAN, WALTER, *Hegel: Reinterpretation, Texts and Commentary*. New York, 1965.

KERST, FRIEDRICH, *Beethoven in His Own Words*. New York. 1964.

KIRCHEISEN, F. M., *Memoirs of Napoleon I, Compiled from His Writings*. New York, 1929.

KORNILOV, ALEXANDER, *Modern Russian History*. New York, 1924.

KROPOTKIN, PETER A., *The Great French Revolution*. New York, 1909.

-----, *Ideals and Realities in Russian Literature*. New York, 1919.

-----, *Modern Science and Anarchism*. New York, 1908.

LA BRUYERE, JEAN DE, *Characters*. New York, 1929.

LACROIX, PAUL, *Directoire, Consulat et Empire*. Paris, 1884.

LAMARTINE, ALPHONSE DE, *History of the Girondists*, 3v. London, 1913.

LANFREY, PIERRE, *History of Napoleon*, 4v. London, 1886.

LANG, PAUL HENRY, *Music in Western Civilization*. New York, 1941.

LANSON, GUSTAVE, *Histoire de la littérature française*, 12 th ed. Paris, 1912.

LAS CASES, COMTE EMMANUEL DE, *Memoirs of the emperor Napoleon*, 4v. New York, 1883.

Lea, H. C, *History of the Inquisition in Spain* 4v New York, 1906.

Le Bon, Gustave, *The Psychology of Revolution*. New York, 1913.

Lecky, William E, *History of England in the Eighteenth Century*, 8v. London 1887.

LEFEBVRE, GEORGES, *Etudes sur la Révolution française*. Paris, 1963.

-----, *The French Revolution*. London, 1962.

-----, *Napoleon*, 2v. New York, 1969.

LEMAITRE, JULES, *Chateaubriand*. Paris: Calmann-Lévy, n.d.

LENOTRE, G., *The Tribunal of the Terror*. Philadelphia, 1939.

LEVY, MAX, *Private Life of Napoleon*, 2v. New York: Scribner, n.d.

LEWES, GEORGE, *Life of Goethe*, 2v, in Goethe, *Works*, 14v in 7. New York, 1902.

LOCY, WILLIAM A., *Biology and Its Makers*. New York, 1915.

LONGFORD, ELIZABETH, *Wellington: The Years of the Sword*. New York, 1969.

LOOMIS, STANLEY, *Paris in the Terror*. Philadelphia 1964.

LOWES, J. LIVINGSTON, *The Road to Xanadu*. New York, 1927.

MACAULAY, THOMAS BABINGTON, *Critical, Historical, and Miscellaneous Essays*, 2v. New York, 1886.

MACLAURIN, C., *Post Mortem*. New York: Doran, n.d.

MADELIN, LOUIS, *The Consulate and the Empire*, 2v. New York, 1967.

-----, *The French Revolution*. London, 1938.

-----, *Talleyrand*. London, 1948.

MAINE DE BIRAN, MARIE - FRANÇOIS, *The Influence of Habit on the Faculty of Thinking*. Westport, Conn., 1970.

MAISTRE, COMTE JOSEPH - MARIE DE, *Les Soirées de Saint - Pétersbourg*, 2v. Paris: Garnier, n.d.

-----, *Works*, tr. Jack Lively. New York, 1865.

MALTHUS, THOMAS R., *An Essay on the Principle of Population, 1798 and 1803*. New York, 1926.

MANTZIUS, KARL, *History of Theatrical Art*, 6v. New York, 1937.

MARCHAND, LESLIE A., *Byron*, 3v. New York, 1957.

MARGOLIOUTH, H. M., *William Blake*. Oxford University Press, 1951.

MARKUN, LEO, *Mrs. Grundy: A History of Four Centuries of Morals*. New York, 1930.

MARTINEAU, GILBERT, *Napoleon's St. Helena*. New York, 1969.

MARX, KARL, and FRIEDRICH ENGELS, *The Revolution in Spain*. New York, 1939.

MASSON, FREDERIC, *Napoleon and His Coronation*. Philadelphia: Lippincott, n.d.

-----, *Napoleon at Home*, 2v. London, 1894.

MATHIEZ, ALBERT, *The French Revolution*. New York, 1964.

-----, *After Robespierre: The Thermidorian Reaction*. New York, 1931.

MAUROIS, ANDRE, *Byron*. New York, 1930.

MAYNE, ETHEL C., *Life and Letters of Anna Isabella. Lady Noel Byron*. London, 1929.

McCABE, JOSEPH, *Crisis in the History of the Papacy*. New York, 1916.

MENEVAL, CLAUDE - FRANÇOIS DE, *Memoirs of Napoleon*, 3v. London, 1894 - 95.

MICHELET, JULES, *The French Revolution*, 2v. London, 1890.

MILL JOHN STUART, *On Bentham and Coleridge*. New York, 1962.

MISTLER, JOHN, ed., *Napoléon et L'Empire*, 2v. Paris, 1968.

MONROE, PAUL, *Text - book in the History of Education*. New York, 1928.

MOORE, F. J., *History of Chemistry*. New York, 1918.

MOORMAN, MARY, *William Wordsworth: The Early Years*. Oxford University Press, 1968.

-----, *William Wordsworth: The Later Years*. Oxford University press, 1968.

MORLEY, JOHN, *Biographical Studies*. London, 1923.

MORRIS, GOUVERNEUR, *Diary and Letters*, 2v. London, 1889.

MOSSIKER, FRANCES, *Napoleon and Josephine*. New York, 1964.

MUSSET, ALFRED DE, *Confessions of a Child of the Century*. New York, 1908.

MUTHER, RICHARD, *History of Modern Painting*, 4v. London, 1907.

NAPOLEON, *Letters*, ed. J. M. Thompson. Everyman's Library.

-----, *Letters to Josephine*, tr. H. W. Bunn. New York, 1931.

NELSON, HORATIO, *Letters*. Everyman's Library.

New Cambridge Modern History (NCMH), Vols. VII and IX. Cambridge, Eng., 1969.

NICHOLSON, HAROLD, *Benjamin Constant*. Garden City, N. Y., 1949.

NIETZSCHE, FRIEDRICH, *Beyond Good and Evil*. London, 1913.

-----, *The Will To Power*. London, 1913.

NOLI, BISHOP F. S., *Beethoven and the French Revolution*. International Universities press, 1947.

O'MEARA, BARRY, *Napoleon in Exile, or A Voice from St. Helena*, 2v. Philadelphia, 1822.

ORTZEN, LEN, *Imperial Venus: The Story of Pauline Bonaparte Borghese*. New York, 1974.

OSBORN, H. F., *From the Greeks to Darwin*. New York, 1922.

OWEN, ROBERT, *A New View of Society*. Everyman's Library.

Paine, Thomas, *The Age of Reason*. New York, n.d.

-----, *The Rights of Man*. Everyman's Library.

PALMER, ALAN, *Metternich*. London, 1972.

-----, *Napoleon in Russia*. New York, 1967.

PALMER, R. R., *Twelve Who Died*. Princeton, 1970.

PASCAL, ROY, *The German Novel*. Manchester, Eng., 1957.

PAULSEN, FRIEDRICH, *German Education*. New York, 1908.

Pelican Guide to English Literature, Vol. V. Baltimore, 1963.

PETERSEN, HOUSTON, ed., *A Treasury of the World's Great Speeches*. New York, 1954.

PHILLIPS, C. S., *The Church in France, 1789 - 1848*. London, 1929.

PINOTEAU, HERVE, ed., *Le Sacre de S. M. l'empereur Napoléon*. Paris, 1968.

PLUMB, J. H., *The First Four Georges*. New York, 1957.

POPE, DUDLEY, *The Great Gamble: Nelson at Copenhagen*. New York, 1972.

QUENNELL, M. and C., *History of Everyday Things in England, 1733 - 1851*. New York, 1934.

REAU, LOUIS, *L'Art russe*. Paris, 1922.

REMUSAT, MME. DE, *Memoirs*. New York, 1880.

ROBINSON, HENRY CRABB, *Diary*. London, 1927.

ROBINSON, JAMES HARVEY, *Readings in European History*. Boston, 1906.

ROBIQUEL, JEAN, *Daily Life in the French Revolution*. New York, 1965.

ROGERS, JAMES EDWIN THOROLD, *Six Centuries of Work and Wages*. New York, 1890..

ROLAND, MME., *Private Memoirs*. Chicago, 1900.

ROSE, J. HOLLAND, *The Personality of Napoleon*. New York, 1912.

ROSEBERRY, ARCHIBALD PHILIP PRIMROSE, LORD, *Napoleon: The Last Phase*. New York, 1930.

-----, *Pitt*. London, 1908.

ROSEBURY, THEODOR, *Microbes and Morals*. New York, 1971.

ROSS, EDWARD A., *Social Control*. New York, 1906.

RUDE, GEORGE, *The Crowd in the French Revolution*. Oxford University press, 1959.

-----, *The Crowd in History*. New York, 1964.

-----, *Robespierre*. Englewood Cliffs, N. J., 1967.

RUSSELL, A. G., *The Engravings of William Blake*. Boston, 1912.

RUSSELL, BERTRAND, *Understanding History and other Essays*. New York, 1957.

SAINTE - BEUVE, CHARLES - AUGUSTIN, *Chateaubriand et son groupe littéraire sous L'Empire*, 2v. Paris: Calmann - Levy, n.d.

-----, *Monday Chats*. Chicago, 1891.

-----, *Portraits of Celebrated Women*. Boston, 1868.

SCHELLING, FRIEDRICH, *The Ages of the World*. New York, 1942.

-----, *Of Human Freedom*. Chicago, 1936.

SCHOPENHAUER, ARTHUR, *The World as Will and Idea*, 3v. London, 1883.

SCOTT, WALTER, *The Heart of Midlothian*, in *Works*. New York: John W. Lovell, n.d.

-----, *Poems*. New York: A. L. Burt, n.d.

SEDWICK, W. T., and H. W. TYLER, *Short History of Science*. New York, 1927.

SEELEY, J. R., *Life and Times of Stein*, 2v. Boston, 1879.

SÉGUR, MARQUIS DE, *Marie Antoinette*. New York, 1928.

SHELLEY, PERCY BYSSHE, *Letters*, ed. F. L. Jones, 2v. Oxford University press 1964.

-----, *Lost Letters to Harriet*. London, 1930.

-----, *Poems*, in *Complete Poems of Keats and Shelley*. Modern Library.

SIEYÈS, EMMANUEL JOSEPH, *What is the Third Estate?* New York, 1964.

SIGERIST, H. E., *The Great Doctors*. New York, 1933.

SOBOUL, ALBERT, *The Parisian Sansculottes and the French Revolution*. Oxford University press 1964.

SOREL, ALBERT, *Europe and the French Revolution*, Vol. 1. Garden City, N. Y., 1971.

SOREL, GEORGES, *Reflections on Violence*. New York: Huebsch, n.d.

SOUTHEY, ROBERT, *Life of Nelson*. London, 1868.

STACE, W. T., *The Philosophy of Hegel*. New York, 1955.

STAFTON, DAVID, *The Bonapartes*. New York, 1966.

STAEL, MME. DE, *Considérations sur les Principaux événements de la Révolution française*. Paris, 1845.

-----, *Corinne, or Italy*. New York: Crowell, n.d.

-----, *De la Littérature considérée dans ses rapports avec les institutions sociales*, translated as *The Influence of Literature upon Society*. Boston, 1813.

-----, *Germany*, 2v. New York, 1861.

-----, *Ten Years' Exile*. Fontwell, Eng., 1968.

STENDHAL (HENRI BEYLE), *La Chartreuse de Parme*. Baltimore: Penguin.

STEPHENS, H. MORSE, *principal Speeches of the Statesmen and orators of the French Revolution*, 2v. Oxford, 1892.

-----, *The Story of portugal*. New York, 1893.

STEVENS, ABEL, *Madame de Staél*, 2v. New York, 1893.

STRAKHOVSKY, LEONID, *Alexander I of Russia*. New York, 1947.

STRANAHAN, C. H., *A History of French Painting*. New York, 1907.

SULLIVAN, J. W. N., *Beethoven: His Spiritual Development*. New York, 1927.

TAINÉ, HIPPOLYTE, *The Ancient Regime*. New York. 1891.

-----, *The French Revolution*, 3v. New York, 1931.

-----, *The Modern Regime*, Vol. I. New York, 1890.

-----, *Les Philosophes classiques du XIX siècle en France*. Paris, 1882.

TALLEYRAND - PERIGORD, CHARLES - MAURICE DE, *Memoirs*. 5v. Boston, 1895.

THACKERAY, WILLIAM MAKEPEACE, *The Four Georges*, in *Works*. Boston: Dana Estes, n.d.

-----, "The Second Funeral of Napoleon," *Roundabout Papers*, in *Works*. Boston: Dana Estes, n.d.

THAYER, A. W., *Life of Ludwig von Beethoven*, 3v. London. 1962.

THIERS, LOUIS - ADOLPHE, *History of the Consulate and the Empire of France under Napoleon*, 12v. Philadelphia, 1893.

THORNTON, J. C., *Table Talk from Ben Jonson to Leigh Hunt*. Everyman's Library.

TOCQUEVILLE, ALEXIS DE, *L'Ancien Régime*. Oxford University Press, 1937.

TRAILL, HENRY DUFF, *Social England*, 6v. New York, 1902.

TREITSCHKE, HEINRICH VON, *History of Germany in the Nineteenth Century*, Vol. I. New York, 1915.

TREVELYAN, G. M., *English Social History*. London, 1947.

TURNER, P. M., and C. H. C. BAKER, *Stories of the French Artists*. New York. 1910.

ÜBERWEG, FRIEDRICH, *History of Philosophy*, U. Morris, 2v. New York. 1871.

VALLENTIN, ANTONINA, *Mirabeau*. New York, 1948.

VANDAL, ALBERT, *L'Avènement de Napoléon*, 2v. Paris, 1903, 1907.

-----, *Napoléon et Alexandre Ier*, 3v. Paris, 1896.

VAN DOREN, DOROTHY, *The Lost Art: Letters of Seven Famous Women*. New York, 1929.

VAN LAUN, HENRI, *History of French Literature*, 3v. London, 1876.

WATSON, J. STEVEN, *The Reign of George III*. Oxford, Eng., 1960.

WEIDMAN, FRANZ, *Hegel: An Illustrated Biography*. New York, 1968.

WHITE, R. J., *Political Tracts of Wordsworth. Coleridge, and Shelley*. London, 1953.

WIENER, LEO. *Anthology of Russian Literature*, 2v. New York, 1902.

WILLIAMS, HENRY SMITH, *History of Science*, 5v. New York, 1909.

WILSON, P. W., *William Pitt, the Younger*. New York, 1934.

WINGFIELD - STRATFORD, ESMÉ, *History of British Civilization*. London, 1948.

WINWAR, FRANCES, *Farewell the Banner*. New York, 1938.

WOLF, A., *History of Science, Technology and philosophy in the Eighteenth Century*. New York, 1939.

WOLLSTONECRAFT, MARY, *A Vindication of the Rights of Woman*. New York, n.d.

WOODS, WATT, and ANDERSON, *The Literature of England*, 2v. Chicago, 1936.

WORDSWORTH, DOROTHY, *Journals*, ed. Mary Moorman. Oxford University press, 1971.

WORDSWORTH, WILLIAM. *Complete Poetical Works*. New York: A. L. Burt, n.d.

WORDSWORTH AND COLERIDGE, *Lyrical Ballads*. Oxford University Press, 1969.

WRIGHT, RAYMOND, *Prose of the Romantic Period 1780 - 1830*. Baltimore: Penguin (Pelican).

YOUNG, ARTHUR, *Travels in France During the Years 1787, 1788, and 1789*. London, 1906.

ZWEIG, STEFAN, *Joseph Fouché*. New York, 1930.

المحنيون

٥	الفصل الخامس والثلاثون (إلى موسكو ١٨١١ - ١٨١٢)
٣٥	الفصل السادس والثلاثون (إلى إلبا ١٨١٣ - ١٨١٤)
٦٣	الفصل السابع والثلاثون (إلى واترلو ١٨١٤ - ١٨١٥)
٩٧	الفصل الثامن والثلاثون (إلى سانت هيلانا)
١٠٩	الفصل التاسع والثلاثون (إلى النهاية)
١٢٩	الفصل الأربعون (وماذا بعد؟ ١٨١٥ - ١٨٤٠)
١٤٥	الحواشي
١٥٣	مراجع المجلد الحادي عشر (الكتب من ١ إلى ٥)